ميقات الحج

مجلة نصف سنوية تعنى بالشؤون الثقافية والتاريخية والسياسية والاجتماعية للحج



٢٥

محرّم ـ جمادى الآخرة

١٤٣٢هـ

السنة ١٣

■ الحج.. رموز وحِكَم (1) ■ صلاة الطواف ومكانها ■

■ شبهات معاصرة في الحج «3» ■ فقه الجدال في الحج «2» ■

■ صفحات من تاريخ المدينة المنورة ■

■ حكايات من مكة المكرمة ■ أسماء بنت عميس.. داعية تحتذى ■

■ الرحلة الحجية للعلامة السيد محسن الأمين ■

■ مكة المكرمة دراسة في جغرافية المدن ■

بسم الله الرحمن الرحیم

دو فصلنامه « میقات الحج »

کاتب:

محمدی ری شهری

نشرت فی الطباعة:

مشعر

رقمی الناشر:

مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

الفهرس

ميقات الحج-المجلد ۲۵

اشارة

عنوان و نام پديدآور : ميقات‌الحج : مجله نصف سنويه، تعنى بالشوون الثقافيه .....محمد محمدى‌رى‌شهرى.

مشخصات نشر : [بی‌جا: بی‌نا، ۱۴۱۷ق = ۱۳۷۵.

مشخصات ظاهرى : ۳۰۰ص.:نمونه، عكس.

شابک : ۵۰۰۰ ريال

وضعيت فهرست نويسى : فهرست نويسى توصيفى

يادداشت : عربى.

يادداشت : شماره پنج اين مجله بنام ميقات الحج است.

يادداشت : پشت جلد به انگليسى: Mighat al - Haj.

يادداشت : كتابنامه.

شناسه افزوده : محمدى رى‌شهرى، محمد، ۱۳۲۵ -، مدير مسئول

شناسه افزوده : قاضى‌عسكر، سيدعلى، ۱۳۲۵ -

شماره كتابشناسى ملى : ۱۵۴۲۸۹۶

ص: ۱

اشارة

ص:۲

ص:۳

ص:۴

الحج، رموز وحِكَمْ (۴)

ص: ۵

الشيخ عبداللّه جوادى آملى

وجوب الإحرام من الميقات

من الأمور الهامّة فى الحجّ والعمرة (۱)، معرفة مواقيت الإحرام، ذلك أن عقد

۱- الحجّ فى اللغة، القصد المكرّر، أما فى الإصطلاح، فيُقصد به إنجاز الأعمال الخاصة فى أيّام محدّدة فى أرض مكة المكرّمة.

أما العمرة، فتعنى فى اللغة الزيارة، واعتمرَ أى زار مجمع البحرين ۲: ۱۲۷۰، مادة: عمر، وحيث كانت الزيارة باعثةً على عمران مكانها ومحلّها، سمّيت زيارة بيت اللّه الحرام عمرةً واعتماراً.

والحجّ والعمرة أعمالٌ تعبّدية، لا توصلية؛ حيث يستفاد ذلك من تعبير «للّه» الوارد فى قوله تعالى: «وَ أَتِمُّوا الْحَجَّ وَ الْعُمْرَةَ لِلَّهِ...» البقرة: ۱۹۶، نعم، لهذه الأعمال العبادية منافع أيضاً، قال سبحانه: «وَ أَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالًا وَ عَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ» الحج: ۲۷- ۲۸، و هو أمرٌ لا ينافى العبادية، كما لا يستلزم التوصلية.

ويقع الحجّ على أنواع ثلاثة: التمتّع، والقران، والإفراد؛ فحجّ التمتّع مركّب من عبادتين: إحداهما عمرة التمتّع، وثانيتهما حج التمتّع، أمّا عمرة التمتّع فتقدّم على حجّ التمتّع، وتتألّف من خمسة أجزاء هى: ۱- الإحرام ۲- الطواف حول الكعبة. ۳- صلاة الطواف. ۴- السعى بين جبلى الصفا والمروة. ۵- التقصير، أى أخذ مقدارٍ من شعر الرأس أو الأظافر.

ويتألّف حج التمتّع من ثلاثة عشرة عملًا هى: ۱- الإحرام من مكّة. ۲- الوقوف بعرفات. ۳- الوقوف بالمشعر الحرام. ۴- رمى جمرة العقبة فى منى. ۵- ذبح الأضحية فى منى. ۶- حلق الرأس فى منى أو تقصيره. ۷- طواف الزيارة فى مكّة. ۸- صلاة الطواف. ۹- السعى بين الصفا والمروة. ۱۰- طواف النساء. ۱۱- صلاة طواف النساء. ۱۲- المبيت فى منى ليلتى الحادى‌عشر والثانى‌عشر من ذى‌الحجّة، وبعض الحجّاج يجب عليه المبيت ليلة الثالث عشر أيضاً. ۱۳- رمى الجمرات الثلاث فى يومى: الحادى عشر والثانى عشر، وعلى من بات فى منى ليلة الثالث عشر أن يرجم صبيحتها أيضاً.

أمّا العمرة المفردة، فإضافةً إلى الأعمال المتقدّمة فى عمرة التمتّع، هناك عملان آخران واجبان فيها هما: طواف النساء، وصلاة طواف النساء، ويجب إنجاز هذين العملين بعد الحلق أو التقصير.

وللتعرّف على أجزاء هذه العبادات وشرائطها تراجع كتب مناسك الحج.

ص: ۶

الإحرام من مصاديق إتمام الحج والعمرة، وهو- أى الإتمام- ما جاء الأمر الإلهىّ به، (۱) جاء فى الحديث: «من تمام الحجّ والعمرة أن تحرم من المواقيت...» (۲).

والميقات مكانٌ خاص، والمواقيت أماكن محدّدة عيّنها رسول اللَّه صلى الله عليه و آله على أساس الوحى الإلهى لأهل الأقاليم، والجدير ذكره أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله حدّد مواقيت لأهل أفريقيا، وأهل الشام والعراق، يُحرمون منها عند ورودهم الحرم الشريف مع أنّه لم يكن بعدُ قد تشرّف أحد فى تلك الديار بشرف الإسلام، بل إنّ المدن الرسمية والمعروفة فى العراق لم تكن- وفق بعض المنقولات- قد ظهرت بعدُ عند تحديد النبى صلى الله عليه و آله للمواقيت (۳).

والمواقيت الخاصّة المحدّدة خمسة أو ستة، إلّاأنّ المواضع التى يصحّ فيها الإحرام للحجّ والعمرة تبلغ العشرة تقريباً، وللمواقيت المعينة خصوصية أنّها المكان الوحيد المناسب لحدوث الإحرام فيه، فلا يجوز تقديم الإحرام عنها أو تأخيره، اللهم إلا فى حال الضرورة أو النذر أو لإدراك إحرام شهر رجب.

والجدير ذكره أن الدخول إلى الحرم لا يجوز إلا محرماً، ليس هذا فحسب، بل إن العبور عن المواقيت لمن يقصد الحرم لا يجوز له إلا فى حال الإحرام أيضاً.

والميقات لا يقبل التغيير، تماماً كسائر المواقف مثل عرفة والمشعر ومنى، وإذا

۱- البقرة: ۱۹۶.

۲- وسائل الشيعة ۸: ۲۲۲.

۳- يقول الإمام الصادق عليه السلام: «فإنّه وقّت لأهل العراق ولم يكن يومئذٍ عراق» انظر: وسائل‌الشيعة ۸: ۲۲۲.

ص: ۷

ما صار جزءاً من قريةٍ أو مدينةٍ نتيجة حصول توسعةٍ فيهما بقى له حكمه دون تعديل، فالتنعيم مثلًا- وهو أحد مواقيت العمرة- كان سابقاً خارج حدود مكّة، إلّا أنّه غدا اليوم- بعد اتساع المدينة- داخلها، ومع ذلک لم يخرج عن صفة الميقات التى كان يملكها.

وثمّة أفكار كثيرة يمكن استفادتها من النصوص الواردة فى بيان المواقيت، نحاول هنا الإشارة إلى بعضها وهى:

۱- إنّ تعيين الميقات المكانى إنما نشأ- كالميقات الزمانى- من جانب الشارع المقدّس وطبقاً للسنّة الدينية، لا من ناحية عادات الناس.

۲- إنّ تعيين مواقيت لأبناء بعض البلدان والمدن التى لم تكن قد ظهرت بعدُ، أو لأناسٍ لم يكونوا قد دخلوا فى الإسلام هو- كما أشرنا من قبل- إعجاز دينى.

۳- للأحكام الشرعية كافة أصل فى الوحى الإلهىّ، مع أنّه لم تبيّن الأصول السماوية لكلّ حكم معه، إلّاأن بعض المواقيت، مثل ذى الحليفة قد جاء فيه:

«قلت لأبى عبداللَّه عليه السلام: لأىّ علّة أحرم رسول اللَّه صلى الله عليه و آله من مسجد الشجرة ولم يُحرم من موضع دونه؟ فقال: لأنّه لما أسرى به إلى السماء وصار بحذاء الشجرة نودى يا محمد! قال: لبيک، قال: ألم أجدک يتيماً فآويتک، ووجدتک ضالًا فهديتک؟ فقال النبىّ صلى الله عليه و آله: إنّ الحمد والنعمة والملک لک كلها لا شريک لک، فلذلک أحرم من الشجرة دون المواضع» (۱).

ورغم ما للميقات من حرمةٍ خاصّة، إلا أن تلک المكانة إنّما أخذها من كونه موضعاً للإحرام، وحيث قام الإسلام على السهولة والسماحة، لا سيّما فى الحجّ والعمرة حيث لا تكرار فيهما يومياً كالصلاة حتى تكون أحكامه عند الجميع.. من هنا فلو تجاوز شخص عن غفلةٍ أو قصور أو ذهول أو سهو ونسيان عن موضع

۱- وسائل الشيعة ۸: ۲۲۵.

ص: ٨

الإحرام وميقاته دون أن يحرم، ثمّ دخل الحرم وهو على هذه الحال، وأنجز تمام أعمال الحجّ والعمرة طبقاً للضوابط المعهودة، ثمّ التفت آخر العمل أنّه لم يعقد الإحرام، كانت أعماله بتمامها صحيحةً، فلا حاجة له إلى الإعادة أو القضاء.

الحرم الإلهى

الحرم موضع مكانى محدّد، يختلف بُعد حدوده عن الكعبة من الجهات المتعدّدة، فيحدّه من ناحية الشمال والشمال الغربى مسجد التنعيم على طريق المدينة، ومن الجنوب والجنوب المائل إلى الشرق «إضاءة اللبن» على مسير اليمن، ومن الشرق والشرق المائل إلى الجنوب «الجعرانة» القريبة من منى والمشعر الحرام على طريق الطائف، ومن الغرب والغرب الشمالى «الحديبية» على مسير جدّة.

وقد وُضعت لتعيين حدود الحرم من الأطراف كافّة علائم وعلامات.

ويجيب الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام عن سؤالٍ وجّه إليه عن سبب اختلاف حدود الحرم فى بعدها عن الكعبة من الجهات المتعدّدة، ففى بعضها قريبة وفى بعضها أبعد؟: «إنّ اللَّه عزّ وجلّ لمّا أهبط آدم من الجنّة هبط على أبى قُبيس، فشكا إلى ربّه الوحشة، وأنّه لا يسمعُ ما كان يسمعه فى الجنّة، فأهبط اللَّه عزّ وجلّ عليه ياقوتةً حمراء، فوضعها فى موضع البيت، فكان يطوف بها آدم، فكان ضوؤها يبلُغُ موضع الأعلام، فيعلّم الأعلام على ضوئها وجعله اللَّه حرماً» (١).

وقد نقل هذا المطلب بطريقةٍ أخرى عن الإمام الباقر عليه السلام، وطبق هذا النقل، فإنّ اللَّه تعالى أمر جبرئيل؛ لتسكين آدم عليه السلام وحواء، بالذهاب إليهما، «فأهبط عليهما بخيمة من خيم الجنّة.. وأنصب الخيمة على التُرعة..»، ويضيف الإمام الباقر عليه السلام ما هو قريب من الرواية السابقة: «الترعة مكان البيت.. وكان عمودُ

١- الكافى ۴: ١٩٥- ١٩۶.

ص: ۹

الخيمة قضيب ياقوتٍ أحمر، فأضاء نوره وضوؤه جبال مكّة وما حولها.. فهو مواضعُ الحرم اليوم من كلّ ناحية من حيث بلغ ضوءُ العمود.. فجعله اللّه حرماً لحُرمة الخيمة والعمود؛ لأنّهما من الجنّة..» (۱).

أمن الحرم

لقد أحيا النبى إبراهيم عليه السلام، وهو شيخ الأنبياء الإبراهيميين، سنّةً وسيرةً، إلا أنّ بعض أعماله وبعض مناجاته تعدّ من جوامع الكلم، فطلبه صيرورة هذا المكان بلداً، وأمناً مطلقاً، ومجمعاً لثمار مختلفة من أقطار العالم، والتنبؤ بصيرورة- مكانٍ غير ذى زرع أمَّ القرى.. من الكلمات الجامعة له عليه السلام، تقع فى صراط تأسيس نظام التوحيد، ونشر الإيمان والعمل الصالح، والقيام بتنمية شاملة للمعارف العقائدية، والأخلاقية، والاجتماعية، والسياسية، ذلك أنّها إذا كانت موضعاً لسكان أرضها الآمنة فحسب لم تكن- أبداً- أمّ القرى، ذلك أنّ نواحيها ليست بالمكان الآمن، فقطّاع الطرق فى عمق الصحراء المحيطة سوف يقطعون أىّ نوعٍ من أنواع الارتباط، مما سيمنع تردّد أبناء الأطراف المحيطة إليها، كما لن تصل محاصيل أطرافها من القريب والبعيد إليها، ولن تكون سوقاً رسمية.

يمكن للحرم الإلهى وأرض مكّة أن تحمل على عاتقها مسؤولية العالمية بل العولمة الصحيحة، وذلك:

أولًا: توفّر جانب كونها أمّ القرى، وتبعيّة نواحيها لها، ورغبة الناس وشوقهم للمجىء إليها.

ثانياً: إنها مركز التوحيد، أى أنّها تستوعب بين جنباتها الكعبة، وهى القبلة والمطاف أيضاً.

ثالثاً: وصول نداء بانى الكعبة، نبينا إبراهيم عليه السلام الذى بناها بأمرٍ من اللّه تعالى،

۱- المصدر نفسه.

ص: ۱۰

وهو صاحب البيت، ذاك النداء الداعی للحضور إلی ساحهٔ هذا البیت بغیهٔ الحج والعمرهٔ... وصوله إلی أسماع العالم بأقطاره ونواحيه، ومن الثابت أنّ فضيلةً عظيمةً معدّهٔ لامتثال هذا الأمر الإلهی الإلزامی.

إن سرّ تقديم الأمن على الدعوهٔ إلى الحجّ والعمرهٔ، وعلى جلب أنواع الثمار من النواحی القريبهٔ والبعيدهٔ إلى هذه الأرض الطيبهٔ هو أن الأمن أطيب النعم الفرديهٔ والإجتماعيهٔ للإنسان وأجملها وأحبّها إلى قلبه، ففى ظلّ الأمن تتحقق سائر البركات المفقودهٔ، كما أن فقدانها يصاحبه زوال هذه النعم الموجودهٔ.

ومن أبرز مصاديق الأمن ومظاهره، الأمن الثقافى والفكرى، ووجود مناظرات ثقافيهٔ سليمهٔ؛ ذلك أن الحوار وتضارب الآراء والصبر على آراء الآخرين العلميهٔ المنصفهٔ يلعب دوراً رئيساً فى وضوح الحق وجلائه ومحو الباطل واندثاره.

لقد كان إبراهيم عليه السلام رائداً فى الحوارات العلميهٔ، وفى الجدال بالتى هى أحسن، بل فى تمام الخصال والسجايا الأخلاقيهٔ الكبرى، وقد كان الأئمهٔ المعصومون من نسل طه وأسرهٔ ياسين صلى الله عليه و آله يعتبرون جوار الكعبهٔ مدرسةً للحكمهٔ ومعهداً للجدال بالتى هى أحسن.

إشارهٔ: كانت الكعبهٔ فى بنائها الأصلى موجودةً منذ عصر آدم الصفى عليه السلام، لكنّها انهدمت تدريجياً وتركت، وتمّ تجاهلها إلى أن بناها إبراهيم عليه السلام خليل الرحمن، وما حصل على صعيد بنائها وبنيانها حصل أيضاً- كما تشهد به بعض المعطيات الروائيهٔ- على صعيد الأمن فيها والأمان، فقد كانت الكعبهٔ مكان آمناً فى البدايهٔ، ثمّ فقدت أمنها تدريجياً، ليعود لها مرّةً أخرى مع النبى إبراهيم عليه السلام.

وهنا، يجدر الاهتمام بأنّ دعاء النبى إبراهيم عليه السلام قد حقّق لأرض مكّهٔ أمنها وأمانها، لا للكعبهٔ وحدها، وإلّا فأمن الكعبهٔ لم يتحقق بطلب إبراهيم عليه السلام وإنّما صار أن جعلها اللّه منذ البدايهٔ مثابةً ومطافاً، وقبلةً، وأمناً.

ص: ۱۱

وأمن الحرم علی قسمین: تشریعی، وتکوینی، وسوف یتکفّل ببیان هذین النوعین من الأمن المبحثان التالیان.

۱- الأمن التکوینی

وفقاً لظواهر الأمور، یفترض بأرض مکـة أن تکون أرضاً غیر آمنة، ذلک أن طبع أبناء الحجاز من جهة کان علی الاعتداء والغارة، کما أنّهم- من جهة أخری- ما کانوا ینعمون بالعلم، والثقافة، والزراعة، وتربیة المواشـی، والصـناعة و.. بل إن الشـعب الفاقد للثقافة والجائع فی الوقت عینه من الطبیعی أن یکون عدوانیاً یعیش علی الهجمات والغارات.

إلا أنّه، رغم ذلک کلّه، قال تعالی: «أَوَلَمْ نُمَکِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً یُجْبی إِلَیْهِ ثَمَراتُ کُلِّ شَیْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا» (۱)

وقال: «وَ مَنْ دَخَلَهُ کانَ آمِناً» (۲).

وطبقاً للمبدأ عینه، عاشت قریش النعمة والأمن من الجوع والخوف، قال سبحانه: «أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَ آمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ» (۳).

ویحـدّثنا اللّه تعـالی عن الأـمن التکوینی للحرم فیقول: «وَ قـالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُـدی مَعَکَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِـنا أَ وَ لَمْ نُمَکِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً» (۴). کمـا أنّ اللّه تعـالی یحـدّثنا عن مکّـة کیف کان خطف الناس رائجاً فی أطرافها، لکنّ اللّه جعل أرضـها حرماً آمناً، لا لأنّ سـکّان الحرم الإلهی ومدینـة مکـة قد غدوا أناساً صالحین، بل لأنّ الناس تفهم حرمة الحرم وتقوم بحقه، قال تعالی: «أَوَلَمْ یَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً وَیُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ» (۵)، وحیث کان الخطف أمراً تکوینیاً فإن الأمن الذی

۱- القصص: ۵۷.

۲- آل عمران: ۹۷.

۳- قریش: ۴.

۴- القصص: ۵۷.

۵- العنکبوت: ۶۷.

ص: ۱۲

يقابله سيكون تكوينياً أيضاً.

ويستفاد جيداً من الآيات المذكورة المرتبطة بعصر الجاهلية أن خطر الهجمات والغارات والخطف وقطع الطرق كان قائماً خارج نطاق الحرم، أمّا في الحرم فلم يكن كذلك، فحكم الأمن تشريعاً إنما جاء بعد الإسلام، والقرآن الكريم عندما يذكر الأمن في الحرم في العصر الجاهلي إلى زمان الإسلام وإلى ما بعده أيضاً فإنما يقدّم ذلك شاهداً ومستنداً له.

يقول الإمام الصادق عليه السلام حول أمن الحرم: «من دخل الحرم من الناس مستجيراً به فهو آمن، ومن دخل البيت مستجيراً به من المذنبين فهو آمن من سخط اللَّه، ومن دخل الحرم من الوحش والسباع والطير فهو آمنٌ من أن يُهاج أو يؤذى حتى يخرج من الحرم» (۱).

ولابدّ من الالتفات إلى أن الإعلان عن أمن الحرم المكي لا يعني حرية أي إنسان في أن يقوم بما يشاء فيه، ذلك أنّ اللَّه تعالى يحدّثنا عن أناسٍ كانوا يعيشون بأمنٍ في بلادهم غير أنّ اللَّه أغرقهم بالخوف والجوع والاضطراب إثر كفرهم بنعمه، قال تعالى: «وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيها رِزْقُها رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذاقَهَا اللَّهُ لِباسَ الْجُوعِ وَ الْخَوْفِ بِما كانُوا يَصْنَعُونَ» (۲).

وعليه، فالأمن التكويني للحرم لا يعني أنّه لا تقع فيه مذابح ومظاهر قتل، بل بمعنى أنّ اللَّه سبحانه جعل هذه الأرض- على أساسٍ من لطفه- مأمناً، أمّا لو ضلّ الناس فيها سبيلهم، فإن اللَّه ينزل عليهم العذاب.

۱- وسائل الشيعة ۹: ۳۳۹.

۲- النحل: ۱۱۲.

ص: ۱۳

طويلـة، نعم، من الممكن لدولةٍ فى الحجاز مع عاصـمة مثل الرياض أن تقوم ببعض ألوان الظلم الفردى أو الاجتماعى، إلّاأنّه لا يمكن فى مكّة ممارسة ظلم إلحادى ذى صبغةٍ كافرة، ذلك أن الآية الشريفة: «وَ مَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَلِيم» (۱)، تهدّد من يقوم بذلك، أى بالظلم الإلحادى، لا غيره، وفى خصوص الحرم لا خارجه، والظلم الحقوقى بالأشخاص الحقيقيين أو الحقوقيين مغايرٌ للظلم الإلحادى الذى يصاحبه كفرٌ وإلحاد.

وحصـيلة الكلام، ليست مكّـة كالجنة لا يقع فيها معصـية أو انحراف (۲)، إلا ـ أنّهـا- مع جريان أحكام الـدنيا عليها- تمتاز عن كثير من البقاع فى الأرض، ومن جملة هذه الامتيازات أنّه لو أراد بها شخص سوءاً عن ظلم وكفر فسوف يلقى عذاباً شديداً (۳).

ومن الجـدير ذكره، أنّ الأمن التكوينى للحرم نسبىّ بلحاظ مكّة، ونفسىّ بلحاظ الكعبة، بمعنى أنّه من الممكن للّه‌تعالى أن يعاقب فى مكـة ليتبه الكـافرين والمـذنبين، إلّـاأنّه لا ـ يمكن لأحـد أن يواجه أصـل الكعبـة- وهى قبلـة المسـلمين ومطـافهم- وإذا ما خرّب بعض المعاندين فى بعض حقب التاريخ البشرى الكعبة فهو لكى يلقوا القبض على بعض المتحصّنين بها، لا لمواجهتها ومحاربتها نفسها، من هنا أقدموا مرّتين على إعادة بنائها.

۲- الأمن التشريعى

يجمع دعاء النّبى إبراهيم عليه السلام، والذى طلب فيه من اللَّه سبحانه الأمن والخير الإقتصادى لمكّة وساكنيها، بين التكوين والتشريع، قال تعالى: «رَبِّ اجْعَلْ هذا بَلَداً آمِناً وَ ارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَراتِ» (۴).

۱- الحج: ۲۵.

۲- الطور: ۲۳.

۳- الحج: ۲۵.

۴- البقرة: ۱۲۶.

ص: ۱۴

إن الأمكنـة والأزمنـة المرتبطـة بالـدين هی المعتمـد الوحيـد لأمن البشـر، والأشـياء، والأفراد، من هنـا جعل اللّه سـبحانه بعض البلاد، والأزمنة، والأشـخاص، والأشـياء معالم أمن، تماماً كما أعلن احترام الحجّ بأطرافه عادّاً له من الشـعائر الإلهية بغية بيان هذا الأمن وتثبيته شاملًا لأطراف الحرم وسكانه وزوّاره.

قال سـبحانه: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعائِرَ اللَّهِ وَ لَا الشَّهْرَ الْحَرامَ وَ لَا الْهَدْیَ وَ لَا الْقَلائِدَ وَ لَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَ رِضْواناً» (۱).

وعلی هـذا الأساس، أصـدرت قوانين عديـدة لحفـظ الأمن ومطابقـة التشـريع للتكوين، مثل حرمـة حمل السـلاح حال الإحرام، إلا مع الضرورة، وكذا حرمة إظهار السلاح فی غير حال الإحرام بحيث يسبّب ذلك إحساساً بعدم الأمن لدی زوار بيت اللّه الحرام.

والأمن التشـريعی للحرم محفوظ دومـاً، فلا يجوز خرق حرمـة الحرم إلّافی فترة محـدودة هی فتـح مكّـة، اللّهمّ إلا إذا هاجم الآخرون المسلمين وكسروا حرمة الحرم فيجوز عندها سلب الأمن عنهم، علی أساس قوله تعالی: «وَ الْحُرُماتُ قِصاصٌ» (۲)، وقوله سبحانه: «وَ لا تُقاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ حَتَّی يُقاتِلُوكُمْ فِيهِ» (۳).

ولتوفير أفضل السـبل لتربيـة الناس وإقامة السـلام والأمن وإقرارهما، أكّدت التشـريعات علی الحدّ من بعض التصـرّفات، وأعلنت حرمةً شاملة للحرم وأمناً

۱- المائدة: ۲.

۲- البقرة: ۱۹۴.

۳- البقرة: ۱۹۱.

ص: ۱۵

واسعاً له ولحال الإحرام أيضاً، من هنا أعلنت الأشهر الأربعة الحرم أمناً شاملًا، سواء كان هناك حج أو عمرة أو لم يكن، وكذلك فى الأشهر التى يسافر فيها الحجّاج، وهى أشهر قد تطول- سابقاً- أحد عشر شهراً.

والجدير ذكره هنا، أن نعمة الأمن والأمان وإن كانت عظيمة القيمة، إلّاأن هذا الإصرار على إقامتهما يلفت نظر الباحث الحصيف إلى أنّه لا بدّ فى تلك المنطقة من إنجاز أعمال لا تُنجز- على ما يبدو- سوى مع وجود إحساسٍ بالأمن والهدوء والطمأنينة، فإذا ما كانت هذه الأعمال مجرّد المناجاة والزيارة والطواف وأمثالها دون إعلان الغضب والتنديد بوجه الطغاة والمعتدين والعاصين، فلن يعيق هؤلاء عن تحقيق الأمن، ومن ثمّ ستكون كلّ هذه النصوص المصرّة على مسألة الأمن لغواً وعبثاً.

تذكّر: سوف نتحدّث- بإذن اللَّه تعالى- عن قسمٍ آخر لمبحث الأمن التشريعى، لدى الحديث عن «الخصائص الفقهية للحرم».

ص: ۱۶

ساحة أمن ولایة المعصومین علیهم السلام

استناداً إلى بعض الروایات، ومع الأخذ بعین الاعتبار ما تقدّم عند الحدیث عن قوله تعالى: «وَ مَنْ دَخَلَهُ کانَ آمِناً» (۱)، فإن کل داخلٍ فی الاعتقاد بالامامة والالتزام بالولایة هو فی أمنٍ وأمان، وطبقاً لهذا النمط من الروایات لایراد الإطلاق من الآیة الشریفة المشار إلیها، ذلک أنّه من الممکن أن ینفذ الکفّار والملحدون وأصحاب العقائد الباطلة إلى داخل الکعبة، والحال أنّهم لیسوا فی أمان.

وعلیه، فالمراد- کما یقول الإمام الصادق علیه السلام-: «من دخله- وهو عارف بحقّنا کما هو عارف له- خرج من ذنوبه وکفی همّ الدنیا والآخرة» (۲).

وفی روایةٍ أخرى للإمام الصادق علیه السلام وضمن مناظرةٍ جرت بینه وبین أبی حنیفة جاء فیها: «.. فأخبرنی عن قول اللَّه عزّ وجلّ: «سِیرُوا فِیها لَیالِیَ وَأَیَّاماً آمِنِینَ» (۳)، أین ذلک من الأرض؟ قال: أحسبه ما بین مکّة والمدینة، فالتفت أبو عبداللَّه إلى أصحابه فقال: تعلمون أن الناس یقطع علیهم بین المدینة ومکّة، فتؤخذ أموالهم ولا یأمنون على أنفسهم ویقتلون؟ قالوا: نعم، قال: فسکت أبوحنیفة، فقال: یا أباحنیفة! أخبرنی عن قول اللَّه عزّ وجلّ: «وَ مَنْ دَخَلَهُ کانَ آمِناً» أین ذلک من الأرض؟ قال: الکعبة... فقال أبوبکر الحضرمی: جعلت فداک الجواب فی المسألتین الأولتین؟ فقال: یا أبابکر! «سِیرُوا فِیها لَیالِیَ وَ أَیَّاماً آمِنِینَ» مع قائمنا أهل البیت، وأمّا قوله تعالى: «وَ مَنْ دَخَلَهُ کانَ آمِناً» فمن بایعه ودخل معه، ومسح على یده، ودخل فی عقد أصحابه، کان آمناً» (۴).

نعم، المراد هنا الأمن المطلق: التشریعی، والتکوینی.

۱- آل عمران: ۹۷.

۲- تفسیر العیاشی ۱: ۱۹۰.

۳- سبأ: ۱۸.

۴- بحارالأنوار ۲: ۲۹۲- ۲۹۴.

ص: ۱۷

الخصائص الفقهيّة للحرم

لمنطقة الحرم خصوصيات فقهية كثيرة، نشير هنا إلى بعضها:

۱- لا يوجد على سطح المعمورة مكان غير هذا المكان يُشترط لوروده، حتى فى غير موسم الحج، الإحرامُ من أحد المواقيت المقرّرة، من هنا، فدخول غير المسلم إلى الحرم ممنوع؛ ذلك أنّه يلزمه الإحرام، وإحرام الكافر غير صحيح، والموارد الاستثنائية لهذا الحكم الكلّى العام بالغة القلّة.

۲- لا يقتصر منع دخول المشركين على الكعبة والمسجد الحرام، بل يتعدّى ليشمل مكّة والحرم كلّه، قال سبحانه: «إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرامَ بَعْدَ عامِهِمْ هذا» (۱)، فيجب على المسلمين تنزيه هذا المكان وطرد هؤلاء المشركين منه (۲).

۳- يحرم تعذيب أىّ شخص يدخل الحرم أو إيذاؤه، اللّهمّ إلا إذا جنى جنايةً خارجه ثمّ احتمى بالحرم والتجأ إليه، وفى هذه الحالة تحرم مبايعته، وكذا حمايته وإجارته وعاريته البيوت، كما يحرم إعطاؤه الطعام أو بيعه له.

ومثل هذه الضغوطات والمتاعب عليه إنّما تهدف إلى إجباره على الخروج من الحرم كى تقام عليه الحدود الإلهية.

لقد بلغ الاهتمام بحريم الحرم الإلهى حدّاً، أن يسأل سماعة بن مهران الصادق عليه السلام فيقول: «سألته عن رجل، لى عليه مال، فغاب عنّى زماناً، ثمّ رأيته يطوف حول الكعبة، أفأتقاضاه مالى؟ قال: لا، لا تسلّم عليه، ولا تروّعه حتّى يخرج من الحرم» (۳).

۴- لو ارتكب شخص جناية فى الحرم أو جرماً جرى عليه الحدّ فيه، ذلك أنّه لم يرع حرمة الحرم، لذا لزمه قصاصه من هذه الناحية، قال سبحانه:

۱- التوبة: ۲۸.

۲- وسائل الشيعة ۹: ۳۴۴.

۳- المصدر نفسه: ۳۶۵.

ص: ۱۸

«وَالْحُرُماتُ قِصاصٌ» (۱).

وقـد قال الإمام الصادق علیه السـلام حول من قتل فی الحرم أو سـرق: «یُقام علیه الحـدّ فی الحرم صاغراً؛ لأنّه لم یَرَ للحرم حرمـةً، وقد قال اللّه عزّ وجلّ: «فَمَنِ اعْتَـدی عَلَیْکُمْ فَاعْتَـدُوا عَلَیْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَـدی عَلَیْکُمْ» (۲)، فقال: هـذا هو فی الحرم، وقال: «فَلا عُـدْوانَ إِلَّا عَلَی الظَّالِمِینَ» «۳»» (۳).

إن ما یقتضیه قوله تعالی: «فَمَنِ اعْتَدی عَلَیْکُمْ فَاعْتَدُوا عَلَیْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدی عَلَیْکُمْ» أنّ إعدام القاتل واجب، بید أنّ إهانته حرام، أمّا هنا فتغدو إهانته راجحة؛ ذلک أنّه تجاهل الحرمات والمقدّسات ولم یقدّرها أو یحترمها، ومعه فلا یصح أن یحترم هو أیضاً.

إن الکعبـة بمنزلـة کرامة المسـلم وشـرفه؛ من هنا کان الجمیع مکلفین بحفظ حرمتها، فحرمة الکعبة هی الأساس لحرمة الحرم إلی حدّ تجنّب الفقهـاء- حـذراً وخوفـاً- من السـکن فیه؛ والسـبب فی ذلـک خوفهم من أن یرتکبوا فیه أیّ ذنب، یحتملون کونه «إلحاداً»، ممّا یخیفهم من نتائج التعذیب الإلهی: قال تعالی: «وَ مَنْ یُرِدْ فِیهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَلِیمٍ» (۴).

ولا یعنی ذلک کراهة العیش فی ذلک المکان المقدّس، وإنّما یعنی الخوف من عدم مراعاة حقوق الحرم الإلهی الرفیع.

مکّة، أنموذج المدینة الفاضلة

قد تکون لبعض الأزمنة والأمکنة خصوصیات استناداً إلی جذور ترجع

۱- البقرة: ۱۹۴.

۲- البقرة: ۱۹۴.

۳- وسائل الشیعة ۹: ۳۳۶- ۳۳۷.

۴- الحج: ۲۵.

ص: ۱۹

إلیها فی المخزن الإلهی، ممّا لا تملکه أزمنة أخری أو أمکنة، إلّاأنّ الظاهر أن احترام الزمان یکون بمن فیه، واحترام المکان یکون بالمتمکّن فیه.

من هنا، یمکن أن تکون مکّة أفضل البقاع؛ ذلک أنّها کانت منذ قدیم الأیام مهداً للتوحید، ومرکزاً للوحی، ومحلًا لتربیة الکثیر من الأنبیاء والأولیاء وکذا لظهورهم و... حیث تمثلت الحلقة الأخیرة من هذه السلسلة الذهبیة بالتوحید الخالص، وهبوط القرآن، وصعود خاتم الرسل صلی الله علیه و آله لمقام النبوّة النهائی المنیع ومرکز الرسالة الخاتمة.

إضافةً إلی ذلک، فقد احتوت مکّة بیت اللَّه الشریف ومکانه النهائی، من هنا کانت مقدّسةً منذ قدیم الأیّام، وعلیه فالمدینة المنورة- کمکة المکرّمة- مهبط الوحی ومحل نزول الکثیر من سور القرآن الحکیم، کما أن الدولة الإسلامیة شهدت قیامتها وانتظام أمرها هناک، وقد عدّ القرآن الکریم أبناء هذه المنطقة وشعبها أنصاراً لدین اللَّه وإخوةً للمهاجرین فی سبیل اللَّه (۱)، لهذا کانت المدینة لائقةً بدعاء خاتم الأنبیاء صلی الله علیه و آله (۲)، لتکون حرماً خاصاً. نعم، برکة المدینة المنوّرة مستمرّة ما دام أبناؤها حافظین للأصول العقائدیة، والأسس الأخلاقیة، والفروع الفقهیة.

مکّة أمّ القری (۳)، وأنموذج المدینة الفاضلة، فقد أسّس إبراهیم خلیل الرحمن علیه السلام بانی الکعبة ومؤسّس الحضارة، أسّس المدینة الفاضلة علی أرکان أربعة، نظمها حول محورٍ مرکزی، ثمّ طلبها من اللَّه تعالی. کان دعاء إبراهیم فی هذا المجال علی الشکل التالی:

۱- «رَبِّ اجْعَلْ هذا بَلَداً» (۴).

۱- الحشر: ۹.

۲- السیوطی، الدرّ المنثور ۱: ۲۹۷.

۳- الأنعام: ۹۲، والشوری: ۷، ویقول الإمام الصادق علیه السلام: «أسماء مکّة خمسة: أمّ القری، ومکّة، وبکّة، والبسّاسة، کانوا إذا ظلموا بها بسّتهم، أی أخرجتهم وأهلکتهم، وأم رحم، کانوا إذا لزموها رحموا»، انظر: بحار الأنوار ۹۶: ۷۷.

۴- البقرة: ۱۲۶.

ص: ۲۰

۲- «آمناً» (۱).

۳- «وَ ارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَراتِ» (۲).

۴- «فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِی إِلَیْهِمْ» (۳).

ذلک أنّ قیام المدینة الفاضلة یکون علی أساس میل قلوب الرعیة لقادتها العارفین بالسیاسة، فصِرْف الأمن وزیادة النعمة الکثیرة، مع ضرورتهما، إلا أنهما لیسا کافیین للناس؛ إذ هذا الأمن ووفور النعمة قد نجدهما فی أقالیم أخری وبلدان، إنّما الأساس هو میل قلوب الرعیة وعطف جانبها وجذب أرواحها وجلب ثمار قلوبها، وتلک هی المحبّة (۴).

علی هذا الأساس، طلب إبراهیم علیه السلام فی أدعیته السالفة من اللّه تعالی، إلی جانب الأمن والاقتصاد، جذب الأفئدة والقلوب إلیهم.

۵- أما المحور الأساس الذی تدور حوله الأرکان الأربعة السابقة، وهو الذی یضمن الأمن ویحقق الهدوء والطمأنینة ویوفر السلامة الاقتصادیة للمجتمع، فهو الدولة والحکومة القائمة علی أساس الوحی الإلهی، وفی ظلّ إشراف وإدارة الإنسان الکامل.

من هنا، طلب النبی إبراهیم علیه السلام من اللّه تعالی أن یبعث فی نسله نبیاً منهم.. قال سبحانه: «رَبَّنا وَ ابْعَثْ فِیهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ یَتْلُوا عَلَیْهِمْ آیاتِکَ وَ یُعَلِّمُهُمُ الْکِتابَ وَ الْحِکْمَةَ وَ یُزَکِّیهِمْ إِنَّکَ أَنْتَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ» (۵).

إنّ إبراهیم علیه السلام کان قبل ذلک قد شاهد بأمّ عینه تحقق ظاهرةٍ تبدو فی الظاهر

۱- البقرة: ۱۲۶.

۲- البقرة: ۱۲۶.

۳- إبراهیم: ۳۷.

۴- الطبرسی، مجمع البیان ۱- ۲: ۳۸۷- ۳۸۸؛ وتفسیر القمی ۱: ۶۲.

۵- البقرة: ۱۲۹.

ص: ۲۱

غير ممكنـة، وهى أن يصـير صاحب ولـد فى كبره وشـيخوخته، من هنا كان معتقـداً بهيمنـة الإرادة الإلهيـة على الأمور كافّة، لهذا قال: «رَبِّ اجْعَلْ هذا بَلَداً آمِناً» (۱).

وبعـد مضـىّ مـدّة، اجتمع فيها من القريب والبعيـد عديـدٌ من الناس لتظهر إثر ذلك مدينـة مكّة على سـطح الأرض، كرّر إبراهيم عليه السلام دعاءه السابق بشكل آخر فقال: «رَبِّ اجْعَلْ هذا بَلَداً آمِناً» (۲).

وقد لازمت صـفة الأمن والأمان مدينة مكّة حتّى اشـتهرت بها، إلى حد أنّ اللّه سبحانه يذكرها بهذا الاسم، فيقول: «وَ هذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ» (۳).

والجـدير ذكره أن تعبير «غَيْرِ ذِى زَرْعٍ» مغـاير للأرض الموات البـائرة التى لم تزرع؛ إذ الموات قابلـة للإحيـاء عادةً، تماماً كما الأرض البـائرة تقبـل القيـام، ومـا لم يزرع يقبـل الزرع، أمـا الأرض غير ذات الزرع فتعنى التى لا يوجـد فيها اقتضاء الزرع، كما لا يمكن توفير الأسباب والإمكانات لتعميرها؛ فهى لا تبدو- بحسب ظاهرها- متمتعةً بأىّ عنصر مساعد طبيعياً على زراعتها.

نعم، عدم إمكان زراعة هذه الأرض غير ذات الزرع إنّما هو بالنسبة إلى العلل والأسباب الطبيعية، أمّا بالنسبة إلى الإرادة الإلهية فإن غير الممكنات العادية كافة قابل للوجود والتحقّق.

إن اللّه تعالى يتحـدّث عن ظروف توفير الحياة الاقتصاديـة لمكّـة عبر بيان أنّ ذلك ليس عن طريق الغيب ولا سبيل الإعجاز، فحاجات المؤمنين الاقتصادية لا تؤمّن عبر هذا السبيل، بل «يُجْبى إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَىْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا» (۴).

واليوم تتقـاطر الثمرات تترى على أرض مكّـة غير ذات الزرع والضـرع حتى أنّ المحاصـيل المتنوّعـة فى تمام أرجاء العالم تُحضـر إلى مكّة فى فصول الحجّ والعمرة كافّة.

۱- البقرة: ۱۲۶.

۲- إبراهيم: ۳۵.

۳- التين: ۳.

۴- القصص: ۵۷.

ص: ۲۲

وتوضیح ذلک:

أولًا: إن أشهر الحج قمریة ولیست شمسیة، وهذا ما یجعلها متنوعةً علی امتداد السنین.

ثانیاً: إن الأرض کرویّة، وتتنوّع أقالیمها الحارة والباردة.

ثالثاً: تختلف أذواق الناس فی المدن والبلدان، وکذا إبداعاتها ومخترعاتها وفنونها المسکوبة فی نتاجاتها المصنوعة.

من هنا، تظهر المحاصیل المتنوّعة الکثیرة فی تمام مناسبات الحج والعمرة فی مکّة، بدعاء إبراهیم علیه السلام، وکذا المدینة بدعاء الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله، وکما یصل زوّار مکّة علی أیّ مرکب ضامر أو غیره، ومن أیّ إقلیم فج وقریب، ینقل أصحاب البضائع التجاریة، أعمّ من الزراعة، والحیوانات، والصناعة، محاصیلهم ومنتوجاتهم إلی مکة أیضاً.

وعلیه فکما یراد من الأکل فی مثل: «وَ لا تَأْکُلُوا أَمْوالَکُمْ بَیْنَکُمْ بِالْباطِلِ» (۱)

و «إِنَّ الَّذِینَ یَأْکُلُونَ أَمْوالَ الْیَتامی ظُلْماً إِنَّما یَأْکُلُونَ فِی بُطُونِهِمْ ناراً» (۲)

مطلق التصرّف فی المأکول وغیره، لا خصوص الأکل بمعناه المصطلح، کذا یکون المراد من «أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ» (۳)، حیث لا یقصد تأمین الحاجات الغذائیة التی ترفع حدّ الجوع فحسب، بل یتعداه إلی تأمین مطلق الحاجات الاقتصادیة أیضاً، ذلک أنّه إذا تمتعت أمة بغذائها اللازم لها، لکنّها ظلّت محرومةً من نواحی أخری کالمسکن والدواء والعلاج واللباس والأثاث، وسائر حاجات الحیاة الأخری، فستبقی دائماً خائفة مغمومة، ومثل هذا الوضع لا ینسجم مع الرسالة التی تریدها الآیة الکریمة المذکورة.

۱- البقرة: ۱۸۸.

۲- النساء: ۱۰.

۳- قریش: ۴.

ص: ۲۳

وعليه فالمقصود من الآية توفير الجانب الاقتصادى وما شابهه توفيراً تاماً، تماماً كما ألمحت الجملة الأخرى فى الآية، وهى: «آمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ» (۱)

إلى جانب الاستقرار الأمنى الشامل وتوفير الأمن والأمان.

تذكير:

۱- إن أساس الأمن الاقتصادى والاجتماعى لمكّة، وكذا نعمها الوفيرة، أمر تكوينى لا تشريعى فحسب.

والشاهد والمؤيّد لذلك ما جاء فى سور القصص والعنكبوت وقريش، وهى من السور المكية، فيما الحج الإسلامى الذى يمكنه أن يكون سبباً لحلول الأمن ونزول البركة إنّما جاء تشريعه فى العصر المدنى، أى بعد سنين طويلة من نزول السور المذكورة.

۲- إن الأنبياء والأولياء الإلهيين عليهم السلام كافة أرفع وأفضل من مجرّد سلطة البطن على الطعام والشراب، ذلك أن بعض تلامذتهم- وهم الذوات المقدّسة- «كان خارجاً من سلطان بطنه» (۲)، إلّاأنّهم كانوا دائماً مهتمّين بحال الضعفاء وأواسط الناس، من هنا، كانوا يطلبون من اللَّه تعالى لهم النعم الوفيرة ورخص الأرزاق، ويسألون لهم الاقتصاد السالم حتى تتوفّر بذلك أرضيةٌ لبناء الأمن الداخلى من جهة ولحصولهم على استقلالهم واستغنائهم عن الآخرين من جهةٍ أخرى، ليكون ذلك كلّه فى خدمة الدين نفسه؛ ذلك أن مبدأ الهوية فى الإنسان إنّما يصنعه الدين، لا الاقتصاد، وعدم وجود اقتصاد صحيح لأواسط الناس يعدّ مرضاً عضالًا صعب العلاج بالنسبة إلى تحصيل عقيدة أصيلة أو حفظها بعد حصولها.

نعم، الأوحدى من الناس هو من يرى أن محورية العقيدة والحق أفضل من

۱- قريش: ۴.

۲- نهج البلاغة، الحكمة: ۲۸۹.

ص: ۲۴

الرفاه العادی، أمّا علی صعید الحسابات الاجتماعیة فلا بدّ من ملاحظة الأکثریة لیحکم علی طبق وضعها.

۳- لقد أنعم اللَّه علی الکفار، أعمّ من ذریة إبراهیم علیه السلام وغیرهم، ببرکة الکعبة وبحرمة الحرم، إن دعاء النبی إبراهیم علیه السلام کی یستفید مؤمنو مکة «وَ ارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَراتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ» (۱)

لم یضیّق علی غیر المؤمنین ولم ینف الرزق عنهم، إنّما لم یشملهم فحسب، فهناک قصور فی المشمول، لا أنّه یوجد منع عنه، أی أنّه لم یدع للکافرین، لا أنّه دعا علیهم.

بعض الخصوصیات الفقهیّة لمکّة

۱- یکره إجارة بیوت مکّة لزوّارها (۲)، یقول أمیر المؤمنین علیه السلام فی هذا المجال لعامله علی مکة: «ومُر أهل مکّة أن لا یأخذوا من ساکنٍ أجراً، فإنّ اللَّه سبحانه یقول: «سَواءً الْعاکِفُ فِیهِ وَ الْبادِ» (۳)

، فالعاکف المقیم به، والبادی الذی یحجّ إلیه من غیر أهله» (۴).

ویقول الإمام الصادق علیه السلام: «إنّ معاویة أوّل من علّق علی بابه مصراعین بمکّة فمنع حاجّ بیت اللَّه ما قال اللَّه عزّ وجلّ: «سَواءً الْعاکِفُ فِیهِ وَ الْبادِ»، وکان الناس إذ قدموا مکّة نزل البادی علی الحاضر حتی یقضی حجّه» (۵).

۲- یکره البقاء فی مکّة لمدّة طویلة، إذ یکون ذلک باعثاً علی قساوة القلب، من هنا، یقول الإمام الصادق علیه السلام: «إذا قضی أحدکم نسکه فلیرکب راحلته، ولیلحق بأهله، فإنّ المقام بمکّة یقسی القلب» (۶).

۱- البقرة: ۱۲۶.

۲- وسائل الشیعة ۹: ۳۶۷.

۳- الحج: ۲۵.

۴- نهج البلاغة، الرسالة: ۶۷، الفقرة: ۵.

۵- وسائل الشیعة ۹: ۳۶۷- ۳۶۸.

۶- المصدر نفسه: ۳۴۳.

ص: ۲۵

وسرّ کراهة الإقامة لمدة طویلة فی مکّة، هو ما جاء فی الروایة الآنفة من أن ذلک یغدو سبباً لقساوة القلب، وحسب الظاهر فإن هذا الإنسان لا یراعی الحقوق العظیمة لتلک الأرض، ما یفتّت- تدریجیاً- ویضعف العهد، کما یمیت القلب.

نعم، بالنسبة للزوار المجاورین للحرم المراعین حقوقه یستفیدون من الفیض العظیم النازل علیهم، إذ إن الإقامة فی الحرم أفضل من الخروج منه (۱).

۱- المصدر نفسه: ۳۴۱.

ص: ۲۶

صلاة الطواف ومكانها

الشيخ جعفر السبحانی

اتّفق الفقهاء على وجوب ركعتين بعد الطواف فی العمرة والحجّ إلّاما يحكی عن الشافعی فی أحد قوليه (۱)، والكلام فی المقام فی مكانها عند الزحام وغيره، والأصل فی ذلک قوله سبحانه: «واتّخذوا من مقام إبراهيم مصلّی» أیاتّخذوا من مقام إبراهيم موضع صلاة تصلّون فيه.

والمعروف حسب النصوص والروايات وكلمات العلماء أنّ المقام- الذی هو موضع وقوف إبراهيم عند بنائه للبيت- هو صخرة على شكل مكعّب متساوی الأضلاع وطول الضلع ذراع واحد، بذراع اليد، أیما يساوی ۵۰ سانتمتراً تقريباً، وهذا المقدار لا يتسع لأداء الصلاة، لأنّ ما يشغله المصلّی المستوی الخلقة- عادة- من المساحة الكافية لوقوفه وركوعه وسجوده وجلوسه هو ۵۰ سم عرضاً فی ۱۰۰ سم طولًا، وأين هذا من مساحة الحجر؟ (۲) فيقع الكلام فی تفسير الآية وسوف يوافيک معناه.

۱- الخلاف ۲: ۳۲۷.

۲- مبادئ علم الفقه ۳: ۲۱۰.

ص: ۲۷

إنّ تعبير المحقّق «يجب أن يصلّى فى المقام» أثار بحثاً بين الشرّاح، قال فى «المدارك»: إنه غير جيّد أمّا لو قلنا بأنّ المقام نفس العمود الصخرى فواضح وامّا إن أريد به مجموع البناء الذى حوله فلأنه يتعيّن وقوع الصلاة فيه قطعاً (۱).

وقريب منه فى المستند (۲).

يرد على الاحتمال الثانى، أنّ البناء كان أمراً مستحدثاً ولم يكن فى عصر الرسول حين نزول الآية حتّى تفسر به. وقد أزيل السنين الأخيرة وكان موجوداً أوائل العقد الثامن من القرن الرابع عشر، أعنى سنة ۱۳۸۱.

وقد وافقه صاحب الجواهر، فقال إنّ تعبير بعض الفقهاء بالصلاة فى المقام مجاز تسمية لما حول المقام باسمه، إذ القطع بأنّ الصخرة التى فيها أثر قدمى إبراهيم لا يصلّى عليها (۳).

ثمّ إنّ بعض المفسرين من أهل السنّة حاول حفظ ظهور الآية وهو أنّ كون الصلاة فى المقام حقيقة فقال: المراد من مقام إبراهيم هو عرفة والمزدلفة والجمار، لأنّه قام فى هذه المواضع وسعى فيها، وعن النخعى: الحرم كلّه مقام إبراهيم (۴).

واحتمل بعضهم أن المراد من المقام هو المسجد الحرام، ولكنّه محجوج بفعل النبى؛ حيث إنّه بعد ما طاف سبعة أشواط أتى إلى المقام فصلّاهما وتلا قوله تعالى:

«وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى»، فأفهم الناس أنّ هذه الآية أمر بهذه الصلاة وهنا مكانها (۵).

وفى صحيح مسلم بسنده عن جابر فى بيان حجّ النبى صلى الله عليه و آله: حتّى إذا أتينا البيت

۱- المدارك ۸: ۱۸۱

۲- المستند ۱۲: ۱۳۹.

۳- الجواهر ۵: ۳۱۸.

۴- الكشاف ۱: ۲۸۷.

۵- سنن الترمذى ۳: ۲۱۱ رقم الحديث ۸۵۶؛ سنن النسائى ۵: ۲۳۵.

ص: ۲۸

معه، استلم الرکن ثلاثاً فرمل ثلاثاً ومشى أربعاً، ثمّ نفذ إلى مقام إبراهیم وقرأ:

«وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِیمَ مُصَلًّی» (۱).

توضیح مفاد الآیة

المهم هو توضیح مفاد الآیة فهناک فرق بین قولنا: «فاتّخذوا مقام إبراهیم مصلّی» وقوله: «وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِیمَ مُصَلًّی». وإنّما یلزم المحال عند الجمود على ظاهر الأوّل، لعدم التمکّن من الصلاة فی المقام الذی هو الصخرة.

وأمّا الثانی فقد ذکروا فی الجار «من» احتمالات، من کونها للتبعیض، أو بمعنى فی، أو للابتداء، أو بمعنى عند. والأولى الرجوع إلى الآیات التی ورد فیها هذا النوع من الترکیب حتّى یتعیّن أحد الاحتمالات.

قال سبحانه: «وَ أَوْحى رَبُّکَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِی مِنَ الْجِبالِ بُیُوتاً» (۲).

وقال سبحانه: «تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِها قُصُوراً» (۳).

هذا کلّه فی مورد المکان، وأمّا فی غیره فمثل قوله سبحانه:

«لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبادِکَ نَصِیباً مَفْرُوضاً» (۴).

«وَ لا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِیّاً» (۵).

«تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَکَراً وَ رِزْقاً» (۶).

ومثّل فی «الجواهر» وقال: «اتّخذت من فلان صدیقاً ناصحاً، ووهب إلیه لی من فلان أخاً مشفقاً» (۷).

۱- صحیح مسلم: ۴۹، باب حجّة النبی صلی الله علیه و آله: ۴۲.

۲- النحل: ۶۸.

۳- الأعراف: ۷۴.

۴- النساء: ۱۱۸.

۵- النساء: ۸۹.

۶- النحل: ۶۷.

۷- الجواهر ۱۹: ۳۱۹.

ص: ۲۹

ترى فى هذه الموارد أنّ شيئاً عامّاً يؤخذ منه جزء لغرض، فالنحل تتخذ من الجبال جزءاً بصفة البيت، أو أنّهم كانوا يتّخذون من سهول الأرض قصوراً، أو أنّ الشيطان يتّخذ من عباداللّه نصيباً، إلى غير ذلك.

فإذا كان هـذا ظاهر هـذه التراكيب، فالآيـة منزّلة على هذا النمط من الكلام، فيراد من المقام ما يجاوره ويقاربه تسـميةً لما حول المقام باسمه، ضرورة أنّ المقام لا يتبعض لأخذ المصلى منه، فعلى الطائف أن يأخذ جزءاً من هذا المقام المجازىّ مصلّىً يصلّى فيه، وإطلاق الآيـة يعمّ الخلف ومـا حوله من اليمين واليسـار، ولا يختصّ مفاده بالخلف؛ لأنّ المقام- حسب ما اسـتظهرناه- هو المكان المتّسع قرب المقام الحقيقى، المسوّغ لتسمية ذلك المكان مقاماً أيضاً، فالموضوع هو الصلاة قربه.

فخرجنا بتلك النتيجة: أنّ المقام أُطلق وأُريد منه ما يجاوره ويليه، وأنّ «من» تبعيضيّة لا غير، وسائر الاحتمالات الاخرى غير تامّة.

وعلى ضوء ما ذكرنا، فاللازم هو التصرّف فى لفظ «المقام» على ما عرفت،

ص: ۳۰

وأمّا التصرف فی الجار أعنی «من» وجعله تارهٔ بمعنی «فی» وأُخری بمعنی «عند» فغیر وجیه.

وذلک لأنّ مجرد جواز استعمال «من» مکان «فی» أو «عند»- علی فرض صحّته- لا یسوّغ تفسیر الآیهٔ بهما؛ لأنّ مادّهٔ الفعل «الأخذ» لا یتعدی لا ب «فی» ولا ب «عند»، ولو فرض صحّهٔ استعماله فهو استعمال شاذ، لا یحمل علیه الذکر الحکیم.

هذا هو مفاد الآیهٔ، فإن دلّت الروایات علی أوسع من الآیهٔ أو أضیق منه، نأخذه، وإلّا فمفاد الآیهٔ هو المتّبع.

وسیوافیک أنّ المستفاد من الروایات کفایهٔ إتیان الصلاهٔ قریباً من المقام، من غیر فرق بین الخلف وأحد الجانبین، فما دام یصدق علی العمل کونه «عنده» فهو مسقط للفریضهٔ، وأمّا الترکیز علی کونها خلف المقام کما فی طائفهٍ من الروایات، فالظاهر أنّه بصدد الرد علی تقدیم الصلاهٔ علی المقام، ولزوم تأخّرها عنه. لا لزوم کونها خلفه لا جنبه، وهو یصدق مع إتیانها یمیناً ویساراً وخلفاً.

العناوین الواردهٔ فی کلمات الفقهاء

إذا عرفت ذلک، فلنذکر العناوین الواردهٔ فی کلمات فقهائنا، ثمّ ما هو الوارد فی لسان الروایات.

أمّا الأُولی: فقد اختلفت کلمهٔ الفقهاء فی التعبیر عن موضع الصلاهٔ علی الشکل التالی:

۱. الصلاهٔ فی المقام.

۲. الصلاهٔ خلف المقام.

۳. الصلاهٔ عند المقام.

أمّا الأوّل: فقد عبّر عنه کثیر من الفقهاء.

قال المحقّق فی الشرائع: یجب أن یصلّی رکعتی الطواف فی المقام (۱).

۱- الشرائع ۱: ۲۶۸.

ص: ۳۱

وقال العلّامة: وتجبان- الركعتان- فی الواجب بعده فی مقام إبراهیم علیه السلام حیث هو الآن ولا یجوز فی غیره (۱).

وأمّا الثانی: أیخلف المقام، فقال ابن الجنید: رکعتا طواف الفریضة فریضة عقیبه خلف مقام إبراهیم، وکذا قال ابن أبیعقیل (۲).

وبذلک عبّر الشهید فی «الروضة» (۳)، والأردبیلی فی «مجمع الفائدة» (۴)، والبحرانی فی «الحدائق» (۵).

وأمّا الثالث: أیعند المقام، فقال ابن البراج: والصلاة- رکعتا الطواف- عند مقام إبراهیم (۶).

والظاهر أنّ الجمیع یرشد إلی معنی واحد وهو الصلاة قرب مقام إبراهیم، ولذلک نری أنّ الصدوق بعدما قال: ثمّ ائت مقام إبراهیم فصلّ رکعتین، قال:

واجعله أمامک (۷).

هذا کلّه ناظر إلی کلمات الفقهاء.

وأمّا النصوص الواردة فی تحدید موضع صلاة الطواف فهی علی طوائف، وتتلخّص فی العناوین التالیة:

۱. خلف المقام.

۲. جعل المقام إماماً.

۱- قواعد الأحکام ۱: ۴۲۷.

۲- المختلف ۴: ۲۰۱.

۳- الروضة البهیة ۲: ۲۵۰.

۴- مجمع الفائدة ۷: ۸۷.

۵- الحدائق ۱۶: ۱۳۵.

۶- المهذب ۱: ۲۳۱.

۷- الهدایة: ۵۸.

ص: ۳۲

۳. فی المقام.

۴. عند المقام.

والظاهر رجوع العنوان الثانی إلی الأوّل، فإن من جعل المقام إماماً، یقع خلف المقام، فلیس هذا عنواناً جدیداً، ففی صحیحة معاویة بن عمار قال: قال أبو عبداللَّه علیه السلام: «إذا فرغت من طوافک فائت مقام إبراهیم علیه السلام فصلّ رکعتین واجعله إماماً» (۱). ومعنی ذلک: لا تتقّدم علیه وکن خلفه.

ولنقتصر علی نقل ما یدلّ علی لزوم الإتیان بها فی موقع خاص من هذه المواقع، علی نحو ینفی فی بدء النظر جواز إتیانها فی موقع آخر، فتکون النتیجة وجود المنافاة بین الروایات. وأمّا ما یدلّ علی الجواز فی بعض هذه المواقع، کفعل النبی أو الإمام الذی لا یستفاد منه التعین، أو ما لا یدلّ علی المطلوب، لکون الروایة فی مقام بیان أمر آخر، فنترکه للقارئ الکریم.

الطائفة الأولی: تعیّن إتیان الصلاة خلف المقام

۱. صحیحة معاویة بن عمّار الماضیة قال: «فائت مقام إبراهیم علیه السلام فصلّ رکعتین، واجعله إماماً، واقرأ فی الأُولی منهما سورة التوحید «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» وفی الثانیة: «قُلْ یا أَیُّهَا الْکافِرُونَ»، ثمّ تشهّد واحمد اللَّه واثن علیه، وصلّ علی النبی صلی الله علیه و آله واسأله أن یتقبّل منک» (۲).

وقد مرّ أن مفاد الحدیث هو إتیان الصلاة خلف المقام، والأمر ظاهر فی التعین، واشتمال الروایة علی قسم من المندوبات لا یضرّ بظهورها فیه، إذ المتبع هو الظهور ما لم یدلّ دلیل علی الخلاف.

۲. مرسلة صفوان، عمّن حدّثه، عن أبی عبداللَّه علیه السلام قال: «لیس لأحد أن یصلّی رکعتی طواف الفریضة إلّاخلف المقام، لقول اللَّه عزّوجلّ: «وَ اتَّخِذُوا مِنْ

۱- الوسائل: ۹، الباب ۷۱، من أبواب الطواف، الحدیث ۳.

۲- الوسائل: ۹، الباب ۷۲ من أبواب الطواف، الحدیث ۳.

ص: ۳۳

مَقام إِبْراهِيمَ مُصَلًّى»، فإن صلّيتها فى غيره فعليك إعادة الصلاة» (۱).

ودلالتها على تعيّن إتيان الصلاة خلف المقام واضحة، وإن كانت دلالة الآية عليه (خلف المقام)، غير واضحة لنا.

۳. خبر أبى‌عبداللَّه الأبزارى قال: «سألت أبا عبداللَّه عليه السلام عن رجل نسى فصلّى ركعتى طواف الفريضة فى الحِجر، قال: يعيدهما خلف المقام، لأنّ اللَّه تعالى يقول: «وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى» عنى بذلك ركعتى طواف الفريضة» (۲).

ودلالتها على تعيّن إتيان الصلاة خلف المقام واضحة، وإن كانت دلالة الآية عليه غير واضحة لنا.

۴. معتبرة سليمان بن حفص المروزى، عن الفقيه عليه السلام قال: «إذا حجّ الرجل فدخل مكّة متمتّعاً فطاف بالبيت وصلّى ركعتين خلف مقام إبراهيم عليه السلام وسعى بين الصفا والمروة وقصّر، فقد حلّ له كلّ شىء ما خلا النساء، لأنّ عليه لتحلّة النساء طوافاً وصلاة» (۳).

ودلالته بظاهره على لزوم إتيانها خلف المقام لا غبار عليها.

۵. مرسل جميل، عن بعض أصحابنا، عن أبى‌عبداللَّه قال: «يصلّى الرجل ركعتى طواف الفريضة خلف المقام» (۴).

۶. صحيح الحلبى عن أبى‌عبداللَّه عليه السلام: قال: «إنّما نسك الذى يقرن بين الصفا والمروة مثل نسك المفرد ليس بأفضل منه إلّابسياق الهدى، وعليه طواف بالبيت، وصلاة ركعتين خلف المقام، وسعى واحد بين الصفا والمروة، وطواف

۱- الوسائل: ۹، الباب ۷۲ من أبواب الطواف، الحديث ۱.

۲- الوسائل: ۹، الباب ۷۲ من أبواب الطواف، الحديث ۲.

۳- الوسائل: ۹، الباب ۸۲ من أبواب الطواف، الحديث ۷.

۴- الوسائل: ۹، الباب ۱ من أبواب الطواف، الحديث ۹.

ص: ۳۴

بالبیت بعد الحجّ» (۱).

ودلالته علی لزوم الإتیان بها خلفه فی التمتّع، لأجل اشتراک الأقسام: التمتّع، والقران والإفراد فی الحکم إلّاما خرج.

۷. صحیح زرارة قال: سألت أبا جعفر علیه السلام فی تعریف المتعة؟ فقال: «یهلّ بالحجّ فی أشهر الحجّ، فإذا طاف بالبیت فصلّی الرکعتین خلف المقام وسعی بین الصفا والمروة وقصّر وأحل...» (۲).

فالحدیث فی مقام بیان مقدّمات حجّ التمتّع، وأنّ منها الصلاة خلف المقام.

ولعلّ هذا المقدار من النصوص کاف والروایات أکثر ممّا نقلت، وإنّما ترکت بعضها لعدم وضوح دلالتها علی التعیین. وسیوافیک أنّ التأکید علی الصلاة خلف المقام لأجل ردّ جواز الصلاة بین البیت والمقام. فانتظر.

الطائفة الثانیة: وجوب إتیان الصلاة عند المقام

هناک روایات تدلّ علی لزوم الإتیان بها «عند المقام» نذکر منها ما یلی:

۱. حدیث جمیل بن دراج، عن أحدهما علیهما السلام أنّ الجاهل فی ترک الرکعتین عند مقام إبراهیم بمنزلة الناسی (۳).

۲. صحیح أبی الصباح الکنانی، قال: سألت أبا عبداللّه علیه السلام عن امرأةٍ طافت بالبیت فی حجّ أو عمرة، ثمّ حاضت قبل أن تصلّی الرکعتین؟ قال: «إذا طهرت فلتصلّ رکعتین عند مقام إبراهیم، وقد قضت طوافها» (۴).

۳. صحیح معاویة بن عمار، عن أبی عبداللّه علیه السلام قال: «القارن لا یکون إلّا بسیاق الهدی، وعلیه طواف بالبیت ورکعتان عند مقام إبراهیم، وسعی بین الصفا

۱- الوسائل: ۸ الباب ۲ من أبواب أقسام الحجّ، الحدیث ۷.

۲- الوسائل: ۸ الباب ۵ من أبواب أقسام الحج، الحدیث ۳.

۳- الوسائل: ۹، الباب ۷۴ من أبواب الطواف، الحدیث ۳.

۴- الوسائل: ۹، الباب ۸۸ من أبواب الطواف، الحدیث ۲.

ص: ۳۵

والمروة، وطواف بعد الحج، وطواف النساء» (۱).

۴. صحيحته الأُخرى فى بيان ما يعتبر فى حجّ التمتّع عن أبى عبداللّه عليه السلام: «على المتمتّع بالعمرة إلى الحجّ ثلاثة أطواف- إلى أن قال:- وركعتان عند مقام إبراهيم عليه السلام» (۲).

۵. صحيحه الثالث قال: «المفرد للحجّ عليه طواف بالبيت وركعتان عند مقام إبراهيم» (۳).

والأحاديث الثلاثة لابن عمار، بصدد بيان أجزاء الحج بأقسامه الثلاثة:

القران، والتمتع والإفراد، ومن أجزاء الحج بأقسامه الثلاثة الصلاة عند المقام.

۶. موثّقة سماعة، عن أبى عبداللّه عليه السلام قال: «المجاور بمكّة إذا دخلها بعمرة فى غير أشهر الحج- إلى أن قال:- فليخرج إلى الجعرانة فيحرم منها، ثمّ يأتى مكّة ولا يقطع التلبية حتّى ينظر إلى البيت، ثمّ يطوف بالبيت ويصلى الركعتين عند مقام إبراهيم عليه السلام...» (۴).

إلى غير ذلك من الأحاديث المبثوثة فى أبواب أقسام الحج والطواف.

الطائفة الثالثة: الصلاة فى المقام

وهناك ما يدلّ على أنّ المعتبر هو الصلاة فى المقام، ففى صحيحة محمّد بن مسلم، عن أحدهما عليهما السلام قال: «سُئل عن رجل طاف الفريضة ولم يصل الركعتين- إلى أن قال:- ويرجع إلى المقام فيصلّى الركعتين» (۵). أىفيه.

۲. خبر أحمد بن عمر الحلّال قال: سألت أبا الحسن عليه السلام عن رجل نسى أن

۱- الوسائل: ۸، الباب ۲ من أبواب الطواف، الحديث ۱۲.

۲- الوسائل: ۸، الباب ۲ من أبواب أقسام الحج، الحديث ۸.

۳- الوسائل: ۸، الباب ۲ من أبواب أقسام الحج، الحديث ۱۳.

۴- الوسائل: ۸، الباب ۸ من أبواب أقسام الحج، الحديث ۲.

۵- الوسائل: ۹، الباب ۷۴ من أبواب الطواف، الحديث ۵.

ص: ۳۶

يصلّى ركعتى طواف الفريضة فلم يذكر حتّى أتى منى؟ قال: «يرجع إلى مقام إبراهيم فيصلّيهما» (۱). أىفيه.

۳. وفى صحيح معاوية بن عمار، عن أبى عبداللَّه عليه السلام: «إذا فرغت من طوافك فائت مقام إبراهيم فصلّ ركعتين» (۲). أىفيه.

الجمع الدلالى بين الروايات:

هذه عمدة الروايات الواردة، وقد مرّ أنّ ما ذكر لفظ «الأمام» يريد به كون المصلّى خلف المقام، وأمّا الصنف الأخير، الدال على الإتيان بها فى المقام، فقد مرّ أنّ الصلاة فيه غير ممكنة فلابدّ أن يراد به حول المقام، فلم يبق من العناوين إلّا العنوانان التاليان:

۱. خلف المقام.

۲. عند المقام.

وأمّا الجمع بينهما فهو: أنّ التأكيد على الإتيان بها خلف المقام، لغاية نفى التقدّم على المقام، كما إذا صلّى بين البيت والمقام على نحو يكون المقام خلفه، ولعلّ الإصرار على ذلك هو اشتهار أنّ المقام كان ملصقاً بالبيت ثمّ أتى به إلى المكان المعهود فكان ذلك سبباً لإتيان الصلاة قبل المقام، فتأكيد أئمّة أهل البيت عليهم السلام على الإتيان بالصلاة وراء المقام، كان ردّاً لتلك الفكرة، ويشهد على هذا صحيح إبراهيم ابن أبى محمود قال: قلت للرضا عليه السلام: أُصلّى ركعتى طواف الفريضة خلف المقام حيث هو الساعة، أو حيث كان على عهد رسول اللَّه قال: «حيث هو الساعة» (۳).

وفى صحيح محمّد بن مسلم: «كان الناس على عهد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يطوفون بالبيت والمقام وأنتم اليوم تطوفون ما بين المقام وبين البيت، فكان الحدّ موضع

۱- الوسائل: ۹، الباب ۷۴ من أبواب الطواف، الحديث ۱۲.

۲- الوسائل: ۹، الباب ۳ من أبواب الطواف، الحديث ۱.

۳- الوسائل: ۹، الباب ۷۱ من أبواب الطواف، الحديث ۱.

ص: ۳۷

المقام اليوم» (۱).

وحاصل الكلام: كان المعروف فى عصر صدور الروايات، أنّ المقام كان ملصقاً بالبيت، وكان ذلك سبباً لتوهم جواز الإتيان بالصلاة بين البيت والمقام، وجعله أمامه لا خلفه، وعند ذلك يكون الموضوع «كون الصلاة عند المقام» أى حوله. وهو يصدق على الصلاة خلفه أو أحد جانبيه.

والحاصل: كما أنّ للآيات شأنَ نزول، كذلك للروايات أيضاً سبب صدور، وبالرجوع إليه يرتفع الإبهام عن وجوبها.

وعلى ضوء ذلك، يمكن أن يقال: إنّ سبب التركيز على وقوع الصلاة خلف المقام لا لأجل اعتبار الخلفيّة فى مقابل اليمين واليسار، بل التركيز لأجل نفى التقدّم، ولذلك أمر الإمام أن يجعل المقام إماماً، أى لا يتقدّم عليه.

فيكون الموضوع حسب الآية والروايات «الصلاة عند المقام ولديه» سواء كان خلف المقام أو اليمين أو اليسار، لكن بشرط عدم التقدّم عليه.

وأمّا على مختار الأصحاب من التركيز على شرطية الخلف وعدم كفاية الصلاة فى أحد الجانبين فالموضوع عندهم مركب من أمرين:

۱. كون الصلاة خلف المقام.

۲. كون الصلاة عند المقام.

وعلى ذلك لو صدق كون الصلاة خلف المقام ولم يصدق كونها عنده، فلا يكفى ذلك كما إذا صلّى خلف المقام لكن بعيداً عنه. كما أنّه لو صلّى عند المقام دون خلفه، فلا يكفى كما إذا صلّى فى أحد الجانبين:

اليمين واليسار.

نعم ورد فى خبر أبى بلال المكّى، قال: رأيت أبا عبداللّه عليه السلام طاف بالبيت ثمّ صلى فيما بين الباب والحجر الأسود ركعتين، فقلت له: ما رأيت أحداً منكم صلّى فى

۱- الوسائل: ۹، الباب ۲۸ من أبواب الطواف، الحديث ۱.

ص: ۳۸

هذا الموضع، فقال: «هذا المكان الذى تيب على آدم فيه» (۱).

فلو كان المراد من الباب باب الكعبة كما هو الظاهر لزم أن يكون الإمام صلّى ركعتين والمقام خلفه لا أمامه.

واحتمال أنّ الإمام صلى عند المقام محاذياً بين الباب والحجر الأسود غير صحيح، لأنّ هذا لا يثير تعجّب الراوى، إذ يكون عملًا عاديّاً.

كما أنّ حمل الصلاة على التطوّع غير صحيح، لأنّ الظاهر أنّ الإمام صلى فى الموضع الذى صلى فيه لأجل طوافه بالبيت حيث قال: طاف بالبيت ثمّ صلى فيه.

فالرواية لا يُحتج بها لأنّها معرض عنه.

اللّهمّ إلّاأن يحمل على الطواف المجرّد عن سائر الأعمال فيجوز إتيان صلاته من حيث شاء ويدل عليه خبر زرارة (۲).

ومن ذلك يعرف النظر فى بعض الكلمات على ما عرفت، وأنّه ليس للخلفية موضوعيّة، وإنمّا الموضوعية لعند المقام ولديه.

حكم الصلاة عند الزحام

ما ذكرنا من الحفاظ على عنوان «العنديّة» فقط أو «الخلفيّة» و «العنديّة» راجع إلى حال الاختيار وعدم الزحام، وأمّا عند كثرة الطائفين فكثيراً ما يكون خلف المقام مطافاً للطائفين فيأتون زرافاتٍ ووحداناً والمصلّون من الشيعة خلف المقام بين قائم وراكع وساجد، وعند ذلك يقع التدافع وتثور ثورة الطائفين من جانب ومنع المصلّين من جانب آخر، وينتهى الأمر إلى الجدال الممنوع فى الحجّ فما هو الواجب فى هذه الحالة؟

وبما أنّ المسألة ليست حديثة الابتلاء، بل لها جذور فى تاريخ الحجّ تعرّض لها الفقهاء فى كتبهم، وقد اختلفت كلمتهم فى هذا الموضع بالنحو التالى:

۱- الوسائل: ۹، الباب ۷۳ من أبواب الطواف، الحديث ۳.

۲- الوسائل: ۹، الباب ۷۳ من أبواب الطواف، الحديث ۱.

ص: ۳۹

۱. مخيّر بين وراء المقام أو أحد جانبيه

قال المحقّق: فإن منعه زحام صلّى وراءه أو إلى أحد جانبيه (۱).

۲. تقدّم الخلف على الجانب مع الإمكان

قال صاحب الرياض: الأحوط تقدّم الخلف على الجانب مع الإمكان (۲).

۳. تحرّى الأقرب فالأقرب

واختار الفاضل الإصبهانی تحرّی القرب منه ما أمكن، وإذا تعذّر لزحام جاز البعد بقدر الضرورة (۳).

وعلى كلّ تقدير يقع الكلام تارة فی حكمها من حيث القواعد، وأُخرى من حيث النصوص.

أمّا مقتضى القواعد فهناك احتمالان:

أ. سقوط وجوب الصلاة عند تعذّر الشرط.

ب. سقوط وصف «العندية» أو «الخلفية» لا نفس الصلاة.

أمّا الأوّل: فهو ضعيف جدّاً بشهادة أنّه لو نسی صلاة الطواف يقضيها أينما تذكر إذا شق عليه الرجوع وإلّا يرجع فيصلّی فی المقام كما سيوافيك.

بقی الثانی: ولكن سقوط العنديّة على وجه الإطلاق بمجرّد الزحام غير صحيح، بل يتربّص إلى الحد الذی لا يفوت معه الموالاة بين الصلاة والسعی.

فإذا لم يسقط الواجب ولم يتمكّن من الصلاة عند المقام حتّی بعد الصبر والتربّص يلزم- على المختار عندنا- عليه الصلاة فی كلّ نقطة أقرب إلى المقام بشرط أن لا يتقدّم عليه، من غير فرق بين الخلف والجانبين، بل الموضوع هو

۱- شرائع الإسلام ۱: ۲۶۸.

۲- رياض المسائل ۶: ۵۴۰.

۳- كشف اللثام كما فی الرياض ۶: ۵۴۰.

ص: ۴۰

حفظ «العندية» مهما أمكن، أى‌الأقرب فالأقرب، وعلى ذلك ينزل ما روى عن حسين بن عثمان بسندين: أحدهما نقىّ والآخر غير نقىّ.

أمّا الأوّل، فقد رواه الكلينى فى «الكافى». قال: رأيت أبا الحسن موسى عليه السلام يصلّى ركعتى طواف الفريضة بحيال المقام قريباً من ظلال المسجد.

وأمّا الثانى فقد رواه الشيخ وقال: رأيت أبا الحسن عليه السلام يصلّى ركعتى الفريضة بحيال المقام قريباً من الظلال لكثرة الناس (۱).

والتعبير فى كليهما واحد غير وجود التصريح بالسبب فى رواية «التهذيب» دون «الكافى»، وما ذكر فيه السبب، وإن كان ضعيف السند، لكن وحدة المتن يكشف عن صدق الراوى فى الحديث، ومن البعيد أن يزيد من جانبه شيئاً.

وبذلك يعلم أنّ ابتعاد الإمام عليه السلام عن حول المقام لأجل كثرة الناس، وأمّا انتخابه قريباً من ظلال المسجد وفى الوقت نفسه حيال المقام لأجل أنّه كان فى ذلك الوقت أقرب من سائر الأمكنة.

هذا على المختار، وأمّا على مختار الأصحاب فبما أنّ المعتبر عندهم رعاية أمرين: الخلفية والعندية، فقد فصّلوا فى ذلك كالتالى:

ففى نجاة العباد: يختار عند الزحام الأقرب إلى المقام من الخلف، وإلّا فيختار أحد الجانبين، وإلّا فحيث يشاء مع رعاية الأقرب إلى الخلف (۲).

۱- الوسائل: ۹، الباب ۷۵ من أبواب الطواف، الحديث ۱ و ۲.

۲- نجاة العباد: ۳۳.

ص: ۴۱

فقهيات معاصرة فى الحج «۳»

موضع مقام إبراهيم (۲)

الشيخ محمد القائينى

إنّ الذى تقتضيه ملاحظة النصوص والأدلّة المتقدّمة [فى القسم الأوّل] أن الموضع الفعلى للمقام ليس متعيّناً، سواء قلنا بأنه جائز أن تكون الصخرة فعلًا فى موضعه الفعلى أو لا.

والوجه فى عدم التعيّن أن هذا الموضع لم يكن الموضع الأصلى لحجر المقام، ولم يضعه رسول اللّه صلى الله عليه و آله هنا، بل وضعه ملاصقاً للبيت.

ثم جَعْلُ عمر لصخرةٍ هنا اجتهادٌ منه لو كان سائغاً، لكنه غير متعين حسب اجتهاده، بل ربما كان مقتضى اجتهاد الحاكم نقله إلى موضعٍ أبعد من الموضع الفعلى.

حيث ينقل أن نقل الحجر إلى موضعه الفعلى كان لمصلحة الطائفين أو المصلّين بسبب الزحام، وكلما كان الزحام أكثر اقتضت المصلحة تبعيد المقام أكثر.

بل ربما اقتضت المصلحة تثبيت المقام خارج المسجد؛ ليفرغ البيت للطائفين حيث لا ـ يمكن تحويل البيت إلى موضع آخر ليفرغ المقام للمصلّين.

وقد صرّح بعض بعدم تعيّن المكان الفعلى للمقام، وأنه يجوز نقله إلى

ص: ۴۲

موضع ثالث غیر الموضع الأصلی وغیر الموضع الفعلی، کالنقل إلی داخل الحجر حیث یکون الحجر محاطاً بجدار لا یتزاحم بسببه المصلّی والطائف؛ نعم لا یجوز التصرّف ظلماً وعدواناً فی المقام.

ولکن الذی یقتضیه التحقیق أن نقل المقام إلی موضعه الأصلی بلصق البیت جائز؛ وأمّا نقله إلی موضع ثالث فلا یبعد منعه وحرمته.

أمّا الأوّل: فالوجه فیه عدم المانع؛ بل تضمّنت النصوص أنّه المکان الأصلی، وأن المهدی علیه السلام إذا ظهر یردّ المقام إلی هناک، وأن علیاً علیه السلام اعتذر من عدم ردّ المقام إلی موضعه الأصلی بالعجز بسبب مخالفة الناس.

إن قلت: إن ما تضمّن أن المهدی علیه السلام هو الذی یباشر ردّ المقام ینافی جواز نقل المقام لغیره.

قلت: لا منافاة له مع جواز النقل لغیره؛ وإنما غایة مدلول الروایة- ولو بالالتزام- هو عدم تحقق النقل من غیره إخباراً عن أمر تکوینی لا عدم جواز النقل تشریعاً.

مع أنه ربما کان المراد بالخبر أن المهدی علیه السلام یباشر الردّ لو کان المقام باقیاً فی موضعه الفعلی إذا ظهر.

مع أنه ربما کان المراد أن الموضع الفعلی لو کان المهدی علیه السلام ظاهراً فی ذاک العصر لغیّره ولردّ المقام منه إلی موضعه الأصلی. وهذا تعبیر عن النقمة علی الوضع الموجود وتدلیل علی وجوب الردّ تکلیفاً.

وکیف کان، فلا ینبغی الشک فی دلالة النصوص المشار إلیها والتی ذکرنا تفصیلها علی جواز مباشرة نقل المقام من موضعه. ولا أقل من کون أصالة البراءة قاضیة بجواز ذلک بعد أن لم تکن صخرة المقام ملکاً لأحد فعلًا کالصفا والمروة.

وأمّا تعین النقل إلی الموضع الأصلی وعدم جواز غیره فلنفس النصوص المشار إلیها، المتضمنة للأخذ علی عمر فی فعله وعدّه بدعة؛

ص: ۴۳

فإن نقل المقام إلى موضع ثالث هو مصداق للبدعة أيضاً، كنقله إلى موضعه الفعلى؛ فإن ملاك عدّ فعل عمر أمراً غير مرغوب فيه- حسب المتفاهم من النص- ليس إلّامخالفته لما فعله رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، وهذا موجود فى نقل الصخرة إلى موضع ثالث كداخل حجر إسماعيل.

هذا كلّه- أعنى حكم موضع الصخرة- مع الغضّ عن حكم صلاة الطواف واشتراط كونها فى المسجد الحرام مع كون الصخرة فى قبلة المصلّى، كما سنبينه إن شاء اللَّه تعالى فى مسألة الصلاة على تقدير نقل المقام.

وبالجملة، فمقتضى ما تقدم من الرواية عن أميرالمؤمنين عليه السلام من إظهار عدم التمكنّ من ردّ المقام إلى موضعه الأصلى، وما تقدم من النصوص المشار إليها فى أن المهدى عليه السلام إذا ظهر ردّ المقام إلى موضعه، وما تقدّم من الأخذ على عمر فى فعله ومخالفته لما فعله رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، مقتضى ذلك كلّه وجوب ردّ المقام إلى موضعه الأصلى، واللَّه العالم بحقيقة الحال.

ويمكن أن يستدل لجواز نقل صخرة المقام- حتى عن موضعه الأصلى فضلًا عن موقعه الفعلى- بما تضمن اشتراط كون صلاة الطواف عند المقام وخلفه؛

بتقريب أنه كما لا يجوز الصلاة فى موضع آخر اختياراً كالصلاة فى حجر إسماعيل؛ لكونه إخلالًا بشرط الصلاة ولا يجوز الإخلال بهذا الشرط كسائر الشرائط من الطهور والقبلة وغيرهما، كذلك يجب تحقيق شرط الصلاة ولو بنقل المقام حيث لا يتيسّر الشرط إلّابذلك.

فيكون الدليل على جواز نقل المقام تكليفاً هو الدليل على اشتراط الصلاة بمجاورة المقام؛ فإن المجاورة إذا وجبت وجبت مقدّمتها أو حلّت على الأقل؛ والمراد بالمقدّمة نقل المقام حيث يتوقف تحقيق الشرط عليه.

هذا غاية ما يمكن أن يُقرّب به جواز نقل المقام على هذا الأساس.

ولكن يرد عليه:- بعد تسليم كون الشرط للصلاة هو الصخرة لا موضعها،

ص: ۴۴

بحيث لو نقلت الصخرة انتقلت الصلاة، وهذا بحث يأتى مفصلًا إن شاء اللّه فى مسألة حكم الصلاة- أوّلًا: إن النصوص الدالّة على تخصيص المقام بموضعه الأصلى تقتضى الردع عن ما تقتضيه القاعدة من جواز نقل المقام فضلًا عن وجوبه.

وثانياً: إن وجوب تحصيل هذا الشرط فيما إذا توقف تحقيقه على نقل المقام أوّل الكلام؛ فهو من قبيل وجوب تحصيل وقت الصلاة كالزوال والغروب والفجر إذا لم تتحقق هذه الأوقات إلّابمغادرة المكلّف موقعه والتحوّل إلى بلدٍ آخر، لكون موقعه الفعلى مما يطول ليله ستة أشهر ونهاره كذلك.

وإن شئت قلت: إن ما يقتضى وجوب تحصيل الشرط فى شرط الواجب- لا شرط الوجوب- لايستدعى وجوب تحصيل الشرط بمثل ذلك؛ ففى الحقيقة تحقق الأمر الفلانى من شرط الوجوب، وإنما شرط الواجب هو الإتيان بالفعل مقروناً بالأمر الفلانى إذا كان ذاك الأمر متحققاً اتفاقاً. فالواجب هو الصلاة مجاوراً للمقام إذا كان المقام بوضعه الخاصّ مما يمكن الصلاة عنده؛ أمّا قلع المقام ونصبه فى محلّ آخر تمكيناً من مجاورة الصلاة له فغير لازم. فإذا قال: صل عند المقام فهم منه وجوب تحصيل الشرط، أعنى مجاورة الصلاة للمقام بحسب الوضع الفعلى للمقام وموضعه الخاص، وأنه لايجوز فعل الصلاة فى جانب آخر من المسجد كحجر إسماعيل؛ وأمّا أنه إذا توقفت مجاورة الصلاة للمقام على تحويل المقام إلى موضع آخر فهذا غير مفهوم من الدليل.

ونظير ذلك ما إذا قال: صلّ فى مسجد القبيلة، فهم منه أنه إذا كان هناك مسجد القبيلة تجب الصلاة فيها، أمّا إذا فرض عدم التمكّن من ذاك المسجد للزحام الشديد فوجوب توسعة المسجد فضلًا عن إيجاد مسجد آخر غير مفهوم من الدليل؛ فاشتراط الصلاة بالمسجد الخاص وإن كان من شرط الواجب لاشرط الوجوب، ولذا لا يجوز الاكتفاء بالصلاة فى الدار مع التمكّن من المسجد بلا حرج وشدة ضيق، تحصيلًا للشرط كالطهارة وغيرها، ولكنه شرط الواجب على هذا

ص: ۴۵

التقدير، وأمّا بلحاظ عدم التمكين من فعله إلّابتوسعة المسجد ونحوها فهو شرط الوجوب، ومعناه أنه لا يجب تحقيق الشرط بتوسعة المسجد وإن كان على تقدير التوسعة يجب الكون فى المسجد والصلاة فيه ولو فى التوسعة الحادثة.

والغرض أن المتفاهم من إطلاق دليل الوجوب ليس أكثر من ذلك؛ وإلّا فإطلاق وجوب الشىء بنحو يستتبع وجوب تحصيل المكنة بمثل المقدّمات المتقدمة كتوسعة محلّ الواجب وما شاكلها- فيما لو صرّح بالإطلاق- معقول ولا محذور فيه. وإنما المقصود أنه لا يُفهم من الإطلاق وجوب ذلك.

ويظهر ذلك بملاحظة سائر الأمثلة العرفيّة؛ فإذا قيل: يجب على الناس عيادة المريض أو يستحب فلا يفهم منه مطلوبية العيادة فيما إذا توقفت على توسعة دار المريض أو إخراج المريض من مسكنه إلى مكان وسيع يتيسّر عيادته لعامّة الناس، وسرّه حصول الغرض من العيادة المطلوبة بعيادة من يتيسّر له ذلك حسب الوضع الفعلى للمريض.

وهكذا إذا قيل: يجب على كل متمكّن الحضور فى المجلس وكان يتوقف حضور الزائد عن عدد على بناء مكان أو توسعة المكان الموجود؛ وهكذا.

ومن هذا القبيل أمر الشارع بالحج والمشتمل على الطواف والسعى والوقوفات؛ فإن الحج مشروط الوجوب بالاستطاعة، وأمّا شرط كون الطواف فى المسجد والسعى بين الجبلين والوقوف فى المشاعر، فكلّ ذلك من شرط الواجب لاشرط الوجوب فيجب تحصيلها؛ ولكن على حسب الوضع الموجود؛ بمعنى أنه إنما يجب الطواف إذا أمكن بحسب سعة المسجد فعلًا، وأمّا إذا توقف الطواف بوجوب مقدمته- أعنى توسعة المسجد- فغير معلوم.

ومن هذا القبيل بناء طابق فوق المسعى يتحقق معه التمكّن من السعى بين الجبلين لعددٍ أكثر من الحجّاج.

ومن هذا القبيل بناء طوابق فى المواقف، أعنى عرفة ومزدلفة ومنى، يتحقق

ص: ۴۶

معهـا التمكّن من نسـك الحـج والعمرة لعـدد أكثر، فـإن كـل ذلـك غير معلوم الوجوب وإن كـان على تقـدير تحقيقهـا، أعنى تحقق التوسعة والبنايات، يجب على عدد أكبر من المسلمين الحج.

وبالجملة جواز البنايات والتوسعات من باب تحصيل شرط الوجوب هذا أمر ووجوبها من باب تحصيل شرط الواجب مسألة أخرى.

والقول بوجوب نقل المقام إلى موضع يمكن الصـلاة خلفه بـدون مزاحمة الطائفين- تحصيلًا لشـرط الصـلاة- يسـتلزم وجوب توسـعة المسجد الحرام عرضاً وارتفاعاً، ولو ببناء طوابق عليها بمقدار لا يخرج عن صدق الطواف بالبيت، وكذا المسعى.

ويسـتلزم وجوب توسـعة المواقف عرفـة ومنى ومزدلفـة ارتفاعـاً ببناء طوابق فيها، بل عرضاً فيما أمكن كتعريض منى بنحت الجبال فيها بمقدار لا يخرج عن صدق الوادى.

وهذا كلّه غير واضح؛ ولذا لم ترد الإشارة إليه فى شـىء من النصوص مع ترقّب زيادة عدد الحجاج فى عصـر الأئمّة عليهم السلام ولما بعدهم.

وربمـا تكون المصـلحة فى اجتمـاع عـدد خـاص فى المشـاعر لاـ أكثر؛ وذلـك لحصول الغرض من ذاك الاجتمـاع- كنشـر المعارف والاطلاع على مآسـى الأمّـة ونحو ذلك- مباشـرة من الحجاج وبواسـطتهم للآخرين ممن تخلّف عن الحـج لعدم التمكّن بسـبب ضـيق المشاعر. واللَّه العالم.

فلذا لا تسـتوحش مما قد ورد أن المهدى عليه السلام إذا ظهر ردّ المسجدالحرام إلى سعته الأصليّة وأبطل الزيادات؛ فإن الزيادات ربما توجب زحمة الناس ومفاسد ممّا لا موجب لها؛ فإن الزيادات تسـتتبع وجوب الحج على البقية لحصول المكنة لهم بسـبب بناء الزيادات والتوسـعات وهـذا مسـتلزم لمشـقّات لاـ داعى لهـا؛ فـإن الـداعى على الحـج أمرٌ يحصـل الغرض منه بوجوب الحـج على العـدد الـذى يستوعبهم

ص: ۴۷

المسجد الحرام حسب بنائه الأصلى، فلا داعى لتمكين عدد أكبر وأكثر ليسبّب مشاكل لا داعى لها كالزحام الموجب لقتل النفوس وغيره.

ثم إنه لو قيل بوجوب توسعة المسجد والمواقف، تمكيناً للمكلّفين من أداء نسك الحج والعمرة، فالظاهر توظيف الحاكم والمتولى للأمر بذلك.

والسرّ فى ذلك أن التكاليف التى لا ـ يمكن لعامّة الناس التصدى لها، لاستلزام تصدّى العامة لها اختلال النظم والتشاجر وعدم الانضباط، فالمكلّف بها فى الحقيقة هو إمام المسلمين ومتولّى أمرهم؛ وذلك جمعاً بين وجوب الشىء وبين عدم إمكان تصدى الأفراد له؛ فيكون الدليل الدال على وجوب مثل هذه الأمور دليلًا على وجوبها على الحكّام؛ وإن كان المتصدّى للأمر يأخذ مؤونة تلك الأعمال من أفراد المكلّفين؛ ولكن المتصدّى للواجب هو الحاكم لا أفراد المكلّفين؛ دفعاً للهرج واختلال النظم وغير ذلك من المفاسد.

ومن هذا القبيل توسعة المشاعر للحج لو قيل بوجوبها.

ولكن تقدم أنه لا موجب لوجوب ذلك؛ إذ لم يعلم ثبوت غرض للشارع فى تمكين عدد أكبر ممن تسعهم المشاعر بوضعها الفعلى؛ ولا أنه يساعد على الدلالة على وجوب ذلك إطلاق أدلة وجوب الحج بعد كونه مقيداً بتمكّن المكلّف ومشروطاً بذلك كاشتراط كل واجب سواه بالتمكّن من العمل.

هذا بالغض عمّا دل على أن المهدى عليه السلام إذا ظهر يردّ المسجد إلى وضعه الأصلى مما يدل أو يشعر بعدم جواز توسعة المشاعر فضلًا عن وجوبها.

وقد ظهر بما ذكرنا الوجه فى اختصاص بعض التكاليف بالحكّام بعد إطلاق الأدلة- لو كان- كالحدود، فإنها لو كانت مسوقة لبيان إطلاق الوجوب- لا ـ أصل الوجوب خاصّ ة- فلابد أن تحمل ولو تقييداً على خصوص الحكّام؛ دفعاً لمحذور اختلال النظم ووقوع المفاسد العظيمة بالمشاجرات وغيرها لو كان المباشر لتلك التكاليف عامّة الناس.

ص: ۴۸

وبما ذکرنا من البیان یتضح أنه لا مجال لما ذهب إلیه سیدنا الأستاذ قدس سره من وجوب الهجرة علی ساکنی القطبین وأمثالهما من الأمکنة التی لیس لها الأوقات الخاصّة فی کل أربع وعشرین ساعة من الزوال والغروب والفجر کعدم جواز السفر إلیها للمکلّفین.

أمّا الوجه فی هذه الفتوی فهو أن الأوقات الخاصّة کالزوال والغروب والفجر وإن کانت شرطاً لوجوب الصلوات علی المکلّفین لا شرطاً للواجب، ولکنها شرط للوجوب فی حق المکلّفین الذین یقطنون الأقطار المشتملة علی هذه الأوقات؛ فلا یجب علی المکلّف أن یغادر بلده قبل الزوال لیصل إلی مکانٍ تزول الشمس فیه قبل بلده؛ فإن الزوال شرط وجوب الصلاة لا شرط صحتها لیجب تحصیله؛ ولو کان شرطاً للصحّة فلیس مما یجب تقدیمه علی زمان تحققه فی بلد سکنی المکلّف بالسفر؛ ولکن کون هذه الأوقات شرطاً فی الوجوب لا- یشمل مثل سکنة القطب؛ فإن اشتراط الوجوب فی حقهم بهذه الأوقات یستلزم سقوط الصلاة عنهم رأساً؛ أو وجوب خمس صلوات فی مدة سنة واحدة.

وهذا غیر محتمل بضرورة الدین وأنه لا تسقط الصلاة عن أحد من المکلّفین غیر النائم ونحوه؛ ولازم ذلک عدم اشتراط وجوب الصلوات الخمس فی حق مثل أهل القطبین بالأوقات الخاصة؛ فإذا وجبت علیهم الصلوات الخمس فی کل أربع وعشرین ساعة- لا فی السنة مرّة- فتجب علیهم مغادرة سکناهم والتوطن فی مکان یتمکّنون فیه من فعل

ص: ۴۹

الصلوات فى الأوقات الخاصّة؛ وإلّا فلا تصح الصلاة بدون ذلک؛ لأن الأوقات الخاصّة هى شرط للصحّة؛ وإنما کانت الأوقات شرطاً للوجوب زائداً على الصحّة فى حق غیر القطبى.

وإنما نقول بکون الأوقات الخاصّة شرطاً للصحّة؛ لأنّ الواجب هو صلاة الفجر لا مطلق رکعتین، والواجب صلاة الزوال والعصر لامطلق ثمان رکعات أو أربع؛ والواجب صلاة المغرب واللیل [العشاء] لا مطلق سبع أو خمس رکعات؛ فلا یمکن امتثال الأمر الصلاتى فى قوله تعالى: «أقم الصلوة لدلوک الشمس إلى غسق اللیل وقرآن الفجر» إلّابالتحول إلى بلد یشتمل على الأوقات الخاصّة.

وبهذا البیان یندفع احتمال کون الواجب هو فعل خمس صلوات فى القطب؛ وکذا احتمال کون العبرة بأفق مکّة وأوقاتها؛ أو کون العبرة بآخر بلد مشتمل على الأوقات یتحول منه المکلّف إلى القطب ونحوه من البلاد التى لیس لها فى کل أربع وعشرین ساعة الأوقات الخاصّة.

وجه الاندفاع أمّا الأوّل: فما تقدم من أن الواجب لیس هو مطلق خمس صلوات، وإنما هو صلوات خمس عند أوقات خاصّة.

وأمّا الثانى: فلأن العبرة فى الأوقات التى تضاف الصلوات إلیها إنما هو بموقع المکلّف وبلده لا سایر الأماکن؛ فکما لا یجوز لغیر المکّى- کالصینى من البلاد المشتملة على الأوقات الخاصّة- أن یراعى أوقات مکّة فکذا لا وجه لوجوب مراعاة أوقات مکّة على القطبى؛ لعدم کون صلاته مضافةً إلى بلدة مکة کعدم إضافة صلاة الصینى إلیها.

وبما ذکرنا فى الثانى یندفع الاحتمال الثالث من کون العبرة بآخر بلد ارتحل المکلّف منه مما کان مشتملًا على الأوقات الخاصّة، وجه الاندفاع: أن الواجب هو إضافة الصلاة إلى الأوقات الخاصّة بلحاظ موقع المکلّف حین الصلاة، لا إضافة الصلاة إلى موقع المکلّف سابقاً. فکما أنه لا یجوز للمسافر أن یصلّى بأوقات بلده

ص: ۵۰

ووطنه، ولا أنه یجوز للمکلّف أن یصلّی فی وطنه بأوقات بلد سافر منه إلی وطنه فکذا شأن المسافر إلی القطب.

والتمسک لهذا الاحتمال الثالث بالاستصحاب غریب مردود: أوّلًا: بأنه من الاستصحاب بعد اختلال الموضوع؛ لکون الوقت من مقوّمات المتعلق.

وثانیاً: إنه من الاستصحاب التعلیقی.

هذا، ولکن بما ذکرنا سابقاً یظهر أنه لاتصل النوبة إلی ما صار إلیه سیدنا الأستاذ قدس سره؛ وذلک لانصراف أدلة اشتراط صحّة الصلاة بالأوقات الخاصّة إلی خصوص من تمرّ علیه هذه الأوقات بصورة طبیعیّة؛ لا من کان مرور هذه الأوقات علیه بحاجة إلی تکلّف سفر وارتحال عن بلده.

ومعه، فالدلیل إنما یقتضی وجوب صلاة مّا علی المکلّف فی مثل القطب فی کل أربع وعشرین ساعة؛ وأما اشتراط صحة الصلاة بالأوقات الخاصّة فلا إطلاق له فی شأن هذا المکلّف؛ وإنما یحتمل وجوب الصلاة علیه حسب أوقات أخری کمکة أو غیرها، أو کونه مخیّراً فی فعل الصلوات الخمس کیف کان؛ والأصل یقتضی الثانی.

ومن هذا القبیل ما إذا توقف فعل الصلاة فی الأوقات الخاصّة أداءاً علی السفر من البلاد المتعارفة عندنا المشتملة علی الأوقات الخاصّة کما لو ضاق الوقت عن صلاة ثمانی رکعات وأمکن فعل أربع رکعات فی الوقت، ولکن یتوقف انقلاب التکلیف من ثمانی رکعات إلی أربع علی السفر.

فإنه لا موجب لذلک؛ إذ التکلیف بثمانی رکعات أدائیة موقوف علی تمکّن المکلّف من ذلک؛ فإذا لم یتمکّن سقط التکلیف بالأداء؛ لا أن التکلیف بالأداء یبقی متبدّلًا من ثمانی رکعات إلی أربع رکعات بفعلها فی السفر لیکون السفر واجباً مقدّمیاً لفعل الصلاة أداءاً.

وإن شئت قلت: إن السفر من قبیل شرط الوجوب لا شرط الواجب؛ فیجب

ص: ۵۱

على الحاضر ثمان ركعات ويجب على المسافر أربع ركعات؛ فالحاضر والمسافر كالمستطيع وفاقده؛ فكما أن الاستطاعة شرط للوجوب فكذا الحضر شرط لوجوب التمام والسفر شرط لوجوب القصر.

نعم، لو فوّت المكلّف الحاضر على نفسه اختياراً حتّى ضاق الوقت عن ثمانى ركعات فلا يبعد وجوب السفر عليه عقلًا- لا شرعاً- تحصيلًا للصلاة الأدائيّة الاختياريّة وإلّا فقد فوّتها فيعاقب عليه؛ فلدفع العقاب يجب السفر؛ وهذا بخلاف من فاته الوقت عن ثمانى ركعات بلا اختيار.

كما أنه لو كان الجامع بين القصر فى السفر والتمام فى الحضر واجباً على المكلّفين وجب السفر إذا توقف عليه الأداء فى الصلاة؛ وذلك لعدم كون السفر والحضر من شرط الوجوب على هذا التقدير بل هما من شرط الواجب. وتفصيل البحث عمّا هو التحقيق من كون السفر والحضر من شرط الوجوب أو الواجب محوّل إلى غير المقام.

فقد تحقق مما حرّرناه وقررناه فى هذا المقام الأمر فى بحث اصولى عام لم يعنون فى محلّه المناسب من مباحث الأصول؛ وإن كان ربما يظهر من بعض الكلمات فى مجالات تطبيقية لهذا البحث فى الفقه بعضُ الإشارات؛ وحصيلة هذا البحث ومحلّه المتناسب من الأصول هو: أن الواجب ينقسم إلى مطلق ومشروط؛ وواضح أن الواجب المطلق هو ما لا يكون الوجوب فيه منوطاً بسبق أو تحقق ما فرض إطلاق الوجوب بالنسبة إليه؛ بل إطلاق الوجوب يدفع نحو تحقيقه ولو بتحقيق ذاك الأمر إذا لم يكن متحققاً.

ويقابله الواجب المشروط وهو ما يكون الوجوب متعلقاً على فرض تحقق الشرط، والأمر الذى فرض الوجوب مشروطاً بالنسبة إليه، من دون أن يكون للوجوب دعوة أو دفع نحو إيجاد ذاك الأمر والشرط. وواضح أن الإطلاق والاشتراط أمران نسبيّان؛ فرب واجب مطلق يكون مشروطاً فى نفس الوقت

ص: ٥٢

بالنسبة إلى أمر غير ما فرض الواجب مطلقاً بالنسبة إليه؛ وكذا العكس وهذا واضح جدّاً، هذا من ناحية.

ومن ناحية اخرى إذا شك فى اشتراط وجوب الواجب بشرط وبأمر ولم يكن اخذ ذاك الشرط قيداً فى القضية المطلقة المتضمنة لوجوب الواجب فلا محالة يكون إطلاق القضيّة نافياً للشرطيّة ودالّاً على إطلاق الوجوب.

وعلى أساس هاتين الناحيتين ينفتح المجال للبحث عن الناحية الثالثة والتى أشرنا إليها- والبحث مرتبط بمجال الإثبات- وهو أن اقتضاء إطلاق القضيّة لكون الوجوب مطلقاً هل يعمّ مثل هذه الموارد ليكون الوجوب بلحاظ هذه المقدمات أيضاً مطلقاً فيجب على المكلّف تحصيل المقدّمة التى هى من هذا القبيل كتوسعة المطاف والمسجد وبناء طوابق فى المشاعر وما شاكل ذلك كالذى أشرنا إليه من السفر فى ضيق الوقت للتمكين من الصلاة الأدائيّة، وهكذا أو لا يشمل الإطلاق ما كان من هذا القبيل؟

ذكرنا أن الظاهر هو عدم الشمول ولا أقل من الإجمال.

ثم لا اخفيك أنه ربما تكون بعض المقدمات مشكوك كونها من أى القبيلين؛ فبعض المقدمات واضح أنه من قبيل ما يجب تحصيله كالوضوء للصلاة والسير إلى الحج وما شاكل.

وظنّى أن بعض المقدمات واضح أنه لا يجب تحصيلها، وبالتالى يكون الوجوب مشروطاً بالنسبة إليها، وذلك من قبيل توسعة المسجد الحرام وبناء الطوابق فوق المشاعر وشراء ماء للوضوء بميليارات؛ وهذا بالغض عن أدلة الحرج والعذر؛ وهناك بعض المقدمات يشك فى كونها فى أىّ القبيلين؛ ولذا يقع الخلاف أو وقع فيها؛ وذلك مثل الحج الدورانى، وذلك فيما إذا توقف التمكن من الحضور فى المشاعر لأداء مناسك الحج على الدوران فى البلاد؛ والمسألة مطروحة فى العروة الوثقى، وقد اختلف فيها وربما كان المعروف من المعلّقين عدم الوجوب، وببالى أن

ص: ۵۳

سيدنا الأستاذ أفتى بالوجوب إن لم يستلزم الحرج.

ويخطر ببالى أنه لاتصل النوبة فى نفى الوجوب إلى الحرج؛ بل مقتضى الأدلة- مع الغض عن الحرج- عدم الوجوب؛ وذلك لكون وجوب الحج مشروطاً بالاستطاعة المفسّرة بخلوّ السرب؛ والسرب الدورانى لا يعد سرب الحج، وإنما هو ذهاب إلى الحج من غير سربه، فلذا لا يكون الحج واجباً.

بل لو لم تكن الاستطاعة مفسّرة بخلوّ السرب، فإطلاق وجوب الحج بالنسبة إلى مثل هذا الفرض مما يعدّ عرفاً غير متمكّن، ويعدّ الدوران من قبيل تحصيل المكنة مبنىّ على البحث المشار إليه فى المقام من أن إطلاق الوجوب بالنسبة إلى مقدّمات فى هذا القبيل، هل هو شامل أو هو منصرف عن مثل ذلك؟ وهذا ما يجعل المثال مندرجاً فى المقام وإلّا فبحسب العمل ذكرنا أن النص المفسّر للاستطاعة بخلوّ السرب مانعٌ من وجوب الحج فى الفرض المشار إليه.

وهناك فى الفقه مسائل عدّة مناسبة لهذا البحث الذى أشرنا إليه، كوجوب الجماعة فى الصلاة على الأعجمى والملحن بالقراءة ومن يضيق وقته عن القراءة.

ويكفينا فى المقام الإشارة إلى هذا المقدار؛ وتفصيل الكلام زائداً عنه محوّل إلى الأصول.

كما اتضح بما ذكرنا الأمر فى بحث اصولى آخر غير معنون فى محلّه المناسب من الاصول وهو حكم الواجبات التى لا يمكن مباشرة عموم الناس لها؛ لاستلزامه اختلال النظم ونحوه؛ وأنها محوّلة- حسب الفهم العرفى من دليل الوجوب أو الاستلزام العقلى بضم امتناع توظيف العموم بها لمحذور اختلال النظم ونحوه- إلى الحكّام.

فظهر بما ذكرنا حكم وجوب نقل المقام عن موقعه إلى موقع آخر يتمكّن فيه المصلّون من الصلاة خلفه بلا تزاحمٍ بينهم وبين الطائفين، وأنه لا موجب لذلك.

هذا كلّه، مع الغض عن أنه لو سلّم اقتضاء إطلاق الوجوب لوجوب تحصيل

ص: ۵۴

مقدّمات من هذا القبیل واقتضاء إطلاق وجوب مجاورة الصلاة للمقام لوجوب نقل المقام فهو إنما یتمّ حیث لا دلیل علی عدم جواز النقل؛ ومعه- کما تقدّم بیانه وتفصیله- یعلم بسقوط الشرطیة، أعنی شرطیة المجاورة لا محالة.

ثم إنّه یبقی فی المقام شیء، وهو أنّه ربما کان وجوب نقل المقام إلی محلّه الأصلی المجاور للکعبة- حسبما یستفاد من النصوص- فی جملة سائر الأحکام المفروضة فی فقه أهل البیت علیهم السلام والتی منها وجوب إرجاع المسجد الحرام إلی حدّه القدیم بحذف التوسعات. فلا یمکن استفادة وجوب نقل المقام إلی الموضع الأصلی فی فرض وسعة المسجد؛ والسرّ فی ذلک أن الدلیل علی وجوب ردّ المقام إذا کان هو مباشرة المهدیّ علیه السلام له إذا ظهر فیکون سرایة الحکم إلی غیره علیه السلام بملاک إلغاء الخصوصیّة لا محالة، والمتیقن من إلغاء الخصوصیّة هو مورد فعله علیه السلام. وفعله علیه السلام إنما هو فی فرض سایر أفعاله التی ربما یکون لها مدخل ولو احتمالًا حسب الفهم العرفی.

وأمّا إلغاء الخصوصیة عن فعله علیه السلام لنقل المقام بإلغاء ظروف فعله علیه السلام فهذا مما لایجوز، بعد ما لم یحرز عدم دخل ما یقارن ذلک الفعل من فعل ردّ المسجد إلی الحالة القدیمة فی الحکم.

نعم لو کان المدرک لوجوب ردّ المقام إلی مکانه الأصلی ما روی عن أمیرالمؤمنین علی علیه السلام، فلا یبعد دلالته علی کون ردّ المقام واجباً مستقلًا غیر مرتبط بأمرٍ آخر کردّ المسجد إلی حالته السابقة؛ فلاحظ وتأمل فی المقام فإنه حقیق به.

وبه یتضح الشأن فی التعدّی عمّا تضَمّن أفعالًا للمهدی علیه السلام للحکم بوجوبها علی سائر الناس أو الحکّام؛ فإنه منوط بإحراز عدم کون فعل آخر مرتبطاً بما یراد الحکم بوجوبه علی أساس مباشرة المهدی علیه السلام له إذا ظهر.

وبالجملة: إلغاء خصوصیة المهدی علیه السلام فی لزوم ما یباشره علیه السلام من الأفعال شیء وإلغاء خصوصیة ما یکتنف فعله من فعل آخر والحکم بعدم دخله فی حکم الفعل الآخر شیء آخر.

ص: ۵۵

نعم، حيث يكون فعل المهدى واقعاً روايته فى كلام ساير الأئمّة عليهم السلام وكأنّهم عليهم السلام بصدد النقمة على الوضع الموجود المعاصر لهم والاعتراض على ذلك، فلا يبعد دلالة إطلاق كلامهم عليهم السلام على كون الفعل المحكى مطلوباً على الإطلاق بلا دخل لفعلٍ آخر فى مطلوبيّته. وهذا البحث بحاجة إلى مزيد تحقيق.

إن مما يمكن الاستدلال به لوجوب ردّ المقام إلى موضعه الأصلى ما تضمّن أن المهدى عليه السلام إذا ظهر ردّ المقام إلى ذاك الموضع.

ولكن قد يقال: إن النصوص المتضمّنة لفعال المهدى إذا ظهر لا تُخَصّ بما يكون واجباً، بل هى مشتملة على ما لا يجب، كتوسعة الطرق وهدم المناير والمنابر فى المساجد، وإن كان فيها ما هو واجب كإحياء السنن وإبطال البدع.

ولكن يمكن أن يقال: إن عامّة ما ورد من فعال القائم المهدى عليه السلام إذا ظهر هى واجبات وامور لازمة، إمّا أصالةً من الشرع أو ولايةً من الحاكم والمتولى للأمر بعنوان كونه مسؤولًا عن الوضع العام والنظم الاجتماعى؛ ولم يعلم أن يكون شىء منها أمراً مطلوباً لكونه مجرّد راجح؛ فإن توسعة الشوارع وما شاكلها امور لا بد منها فى الحياة الاجتماعيّة المبتنية على الحاجة إلى تسهيل أمر الطرق؛ بل هى ضرورة لا مناص منها؛ وهذا واضح لمن مارس التردد فى البلاد المبتلاة بزحمة الشوارع بالوسائط النقليّة وغيرها من أسباب ضيق المسالك والطرق؛ وعلى هذا الأساس فلا نستبعد أن يكون مثل هذه الأمور فى النص إشارة إلى الجهة لا تحديداً لمقدار الحاجة؛ فتوسعة الشارع ثلاثين ذراعاً ونحوها لا يعنى هذا العدد بالتحديد؛ بل هى نقض للوضع الموجود حال صدور النص من ضيق الشوارع وأنه لا ينبغى الاقتصار فى الطرق على ذلك المقدار، وأن للحاكم هدم الدور والمساجد لغرض توسعة الطرقات حسبما تقتضيه المصلحة؛ ولو مع التعويض عنها للملاك وغيرهم.

هذا فى جملةٍ من الأمور.

ثمّ جملة منها امور لازمة بأصل الشرع؛ فإن هدم المنائر فى المساجد- إذا

ص: ۵۶

کانت المنائر مبنیّةً فی المساجد لا علی جانبها- أمر غیر جائز علی القاعدة؛ لکون المسجد محرّراً شرعاً للمصلّین فی المسجد فکلّما زاحم الصلاة لم یجز، ومن جملة المزاحمات إشغال شطرمن المسجد بما لا یمکن معه الصلاة فی ذلک الشطر، کبناء حوضٍ للماء أو بنیة المنارة؛ وأمّا الجدار المبنی حول المسجد للإحاطة به ولبناء السقف علیه فهو لمصلحة المصلّی، ولابد أن یکون ما یشغله الجدار والأساس للسقف بمقدار الحاجة والضرورة لا أزید.

وکذا ما ورد من هدم المهدی علیه السلام المنابر، وکأنه یشیر إلی المنابر التی کانت مبنیّةً حتی زمان متأخر فی المسجد الحرام وکذا هی مبنیّة فی سایر المساجد، فإنها تشغل شطراً من المسجد ولا یجوز ذلک. وقد هدمت الحکومة الحجازیّة هذه المنابر فی المسجد الحرام فی العمارة الأخیرة، وکذا المقاصیر التی ورد أن المهدیّ یهدمها؛ وهذا یؤکد ما ذکرناه سابقاً من أن مدلول هذه الروایات، لیس هو الإخبار بهذه الأفعال بنحوٍ تصدر فعلًا من المهدی؛ وإنما هی من قبیل المعلّق؛ وإرشاداً إلی أنه لیس الوضع الموجود أمراً مقبولًا شرعاً، وأن المهدی إذا ظهر وکانت هذه الأمور باقیة وموجودة أزالها؛ لأنها منکرات.

ثم ذِکْرُ المهدی؛ لأنه علیه السلام لا یتّقی أحداً إذا ظهر، وأما باقی الأئمّة علیهم السلام فلم یکن لهم القدرة علی مواجهة تلک الأوضاع، بل کانوا فی ظروف التقیّة؛ وعلی هذا الأساس لاتنافی هذه النصوص وجوب إبطال هذه الأمور علی غیر المهدی علیه السلام حیث یمکن ویقدر علیه.

کما أن هذه النصوص لا تستلزم بقاء هذه المنکرات إلی زمان ظهوره علیه السلام لیکون لها مصداق ویباشر المهدی علیه السلام إبطالها وإزالتها، بعد أن کانت مشیرةً وإرشاداً إلی الإنکار علی الوضع القائم آنذاک.

علی أنه ربما تعود هذه المنکرات مرّةً اخری بعد مرّ الزمان بحیث یکون الإمام علیه السلام إذا ظهر هو المباشر لإزالتها أیضاً. وما تضمّن أن ظهور المهدی یکون بعد

ص: ٥٧

امتلاء الأرض جوراً وظلماً، ظاهر فى تحقق هذه الحالة قبل الظهور، كما أن ذلك لا يستدعى عدم وجوب إقامة المعروف ودفع المنكرات قبل ظهوره عليه السلام، وهذا ظاهر.

إذن، فما تضمّن أن المهدى عليه السلام يردّ المقام إلى موضعه الأصلى ظاهر بوضوح فى عدم كون وضعه الفعلى أمراً مقبولًا، إمّا بأصل الشرع أو باعتبار مصلحة الحجّاج حسبما أشرنا إليه من أن شأن المقام شأن الحجر الأسود. أو باعتبار أنه سبق وأن النبى صلى الله عليه و آله جعل المقام فى موضع خاص، ولو لم يكن النبى صلى الله عليه و آله هو الذى باشر ذلك لم يكن فى تغيير المقام عن موضعه الأوّل أى محذور.

وعلى أىّ تقدير، فلا يجوز لأحد أن يخالف الحالة التى كانت عليها الصخرة قبل أن يباشر عمر نقلها.

وربّما كان المنشأ فى مواجهة المهدى لبعض الأمور أن المباشر لفعلها كان شخصاً ضالًّا وإمام سوء يكون فى إمضاء عمله مفسدة بملاحظة خصوص عمله ذاك بل بملاحظة ساير أعماله.

هذا كلّه بالغض عن دلالة ما عدا هذه الطائفة من النصّ على ذلك؛ كالذى تضمّن أن علياً عليه السلام قال: إن الولاة قد عملوا قبله بأعمال خالفوا السنّة فيها، وعدّ منها نقل المقام.

ثم إنّى بعد ما أنهيت الرسالة هذه فى حكم نقل المقام، وقفت على بعض الرسائل من أهل السنّة فى هذا المجال، وقد كانت مشتملة على جملة من النقاط التى بحثناها تفصيلًا كما أنها تخالفنا فى نقاط اخرى أحببت أن أوردها هنا بالاختصار وانبّه على ما يمكن الايراد عليها على أساس القواعد والمبانى المقبولة.

وقد توصل صاحب الرسالة على أساس ما نقّحه فى هذه الرسالة إلى جواز نقل المقام من موضعه الفعلى إلى أبعد من ذلك، ولكن بشروط عبّر عنها بحقوق المقام وهى: القرب من الكعبة، والبقاء فى المسجد الذى حولها والبقاء على سمت

ص: ۵۸

الموضع الذی هو علیه.

ومراده من القرب من الکعبة لیس هو القرب بلحاظ الموضع الفعلی؛ بل یعنی أن لا یبعد من الکعبة بُعداً مفرطاً، کجعله قریباً من المسعی فی المسجد. واستنتاجه لهذه الحصیلة عبر مقدمة وفُصول نلخصها فیما یلی:

ذکر فی المقدّمة قوله تعالی: «واتخذوا من مقام إبراهیم مصلّی وعهدنا إلی إبراهیم وإسماعیل أن طهرا بیتی للطائفین والعاکفین والرکع السجود» (۱)، وقوله تعالی: «وإذ بوّأنا لإبراهیم مکان البیت أن لا تشرک بی شیئاً وطهّر بیتی للطّائفین والقائمین والرکع السّجود» (۲). ثم ذکر أنه فسّر التطهیر فی الآیتین بالتطهیر من الشرک والأوثان، وأن هذا من باب ذکر الأهم، وإلّا فالمأمور به أعم من ذلک، مستشهداً ببعض الاستظهارات من السلف.

ثم ذکر أن ذکر العلّة والغایة من الأمر بالتطهیر یبیّن أن التطهیر المأمور به لا یخصّ الکعبة بل یعمّ ما حوالیها، حیث تؤدی هذه العبادات من الطواف وغیره هناک. ثم ذکر أن فی معنی التطهیر إزالة کل ما یمنع من هذه العبادات ویعسّرها أو یخلّ بها، کأن یکون فی موضع الطواف ما یعوق عنه من حجارة أو شوک أو حُفَر، فالمأمور به تهیئة المسجد لما یتّسع لهذه العبادات مع الیسر.

ثم لما کان المسلمون قلیلین فی عهد النبی صلی الله علیه و آله کان یکفیهم المسجد القدیم؛ وکثرتهم فی حجّة الوداع لم تکن منتظرة ولا متوقع استمرارها فی السنوات التی تلیها، فلذا لم یوسّع المسجد فی زمانه صلی الله علیه و آله بعد حجّة الوداع، مع ما کانت بیوت قریش ملاصقةً للمسجد لا تمکن توسعته إلّابهدمها؛ وهدمها ینفّرهم وعهدهم بالشرک قریب؛ ولمّا زال المانع فی عهد عمر وسّع المسجد، وهکذا من بعده من الخلفاء بحسب کثرة المسلمین فی أزمنتهم؛ وکذا استمرّ إلی زمن ملک الحجاز.

۱- البقرة: ۱۲۵.

۲- الحج: ۲۵.

ص: ۵۹

ثم استظهر من تقديم الطائفين فى الآيتين المتقدمتين أن حقّ الطائف مقدّم– عند التعارض– على غيره من العاكفين والمصلّين.

ثم ذكر كثرة الطائفين فى هـذه الأزمنة وأنه ينتظر استمرار الزيادة على مرّ الزمن بأسباب طبيعيّة، فلا محيص من توسعة المطاف، وإن أضيق موضع من المطاف هو ما بين المقام والبيت وإن صحّ الطواف فى غير هـذا الموضع– لكون شرطه المسجد لا هذا الحدّ– فإذا كانت توسعة المطاف مشروعة فتوسعة ذلك الموضع– يعنى ما بين البيت والمقام– مشروعة؛ و ما لا يتمّ المشروع إلّابه– ولا مانع منه– فهو مشروع، يعنى بما لا ـ يتم إلّابه تأخير المقام؛ لأن ما عدا ذلك من وجوه توسعة المقام مبتلاة بمحاذير، ومن جملة تلك الوجوه تحديد موضع للمصلّين خلف المقام فى الموضع الفعلى، وتوسعة المطاف وراء ذلك، فإن مثل هذا مختل من وجوه:

منها: أنها مخالفة لعمر الذى عمله حجّة؛ فإن موضع المقام فى الأصل كان بلصق الكعبة– وقد أثبت ذلك كما أثبتناه– وأقرّه الصحابة فكان إجماعاً وهو حجّة. ولو كان النبى صلى الله عليه و آله هو الذى أخّر المقام إلى موضعه الفعلى لعلّة الزحام المذكورة فى فعل عمر فهو أيضاً حجّة.

ص: ۶۰

وكان ممكناً أن يبقى المقام بجنب الكعبة ويحجّر موضع للصلاة خلفه. فإذا ساغ لعلّة الزحام تأخير المقام من موضعه الأصلى فتأخيره عن موضعه الثانى أولى. ثم أشار إلى وجوه اخرى من المحاذير.

ثم تعرّض بالتفصيل فى مجال أنه لا مانع من تحويل المقام بعد وجود المقتضى له؛ فما تقدم كان بيان المقتضى. وأمّا عدم المانع فلأن ما يتصوّر مانعاً امور لا تصلح مانعاً.

منها: ما ذكره جمع من المفسّرين من أن المقام ليس هو الحجر فقط بل المقام هو الحجر والبقعة التى هو فيها الآن؛ وتأخير البقعة غير ممكن.

ثم ذكر أن تحقيق هذا الأمر يستدعى تفصيلًا من المقال فى فصول:

الفصل الأوّل: تعرّض فيه لمعنى المقام وأنه الحجر أو المشاعر كالحرم أو غير ذلك. واختار أنه الحجر. وذكر خلافه عن الزمخشرى وقال: الزمخشرى- على حسن معرفته بالعربيّة- قليل الحظّ من السنّة، ورأى أنه لا يكون الحجر مصلى على الحقيقة إلّاإذا كانت الصلاة عليه، وذلك غير مشروع ولا ممكن؛ لصغره؛ ولو وفق الزمخشرى للصواب لجعل هذا قرينة على أن المراد بكلمة (مصلّى) قبلة كما قاله السلف؛ أى يصلّى إليه لا عليه، إمّا بعلاقة المجاورة أو أنه اسم مفعول. فقول الزمخشرى مقام إبراهيم الحجر والموضع الذى كان فيه الحجر... يردّه أيضاً أن المذكور فى الآية مقام واحد لا مقامان.

الفصل الثانى: نكتة إطلاق مقام إبراهيم على الحجر حسبما ذُكر امور، واختار أن الثابت فى وجه تسمية الحجر بالمقام هو القيام الحقيقى لإبراهيم على الحجر الذى يناسب مزيّة له؛ وهو ما وقع من إبراهيم من قيامه عليه لبناء الكعبة، ثم للأذان بالحج؛ لا ما يحكى- ولو ثبت- من وضعه رجله على الحجر وهو على دابّته.

الفصل الثالث: وضع إبراهيم عليه السلام الحجر أخيراً لاصقاً بالبيت عند جدار الكعبة فى الموضع المسامت له الآن؛ وإقرار النبى صلى الله عليه و آله له هناك وصلاته هو وأصحابه

ص: ٦١

خلفه هناك. قال: ولم أجد ما يخالف هذا من السنّة والآثار الثابتة عن الصحابة، ولا ما هو صريح فى خلافه من أقوال التابعين.

الفصل الرابع: حقّق فيه أن موضع حجر المقام فى عهد النبى صلى الله عليه و آله لم يكن هو موضعه الفعلى؛ وذكر فيه أقوالًا ثلاثة:

القول الأوّل: أن موضعه فى عهد النبى صلى الله عليه و آله هو موضعه الفعلى قال: والأدلة الصحيحة الواضحة تردّ هذا القول؛ وقد ذكر فى وجه هذا القول روايات عن الأزرقى فى تاريخ مكّة.

وأورد على ذلك بأمور: منها: أن الأزرقى لم يوثقه أحد من أئمة الجرح والتعديل لا البخارى ولا ابن أبى حاتم؛ بل قال الفاسى فى العقد الثمين: لم أر من ترجمه فهو مجهول الحال، وقد تفرّد ببعض الحكايات. ثم ذكر ضعف عدة من وسائط روايات الأزرقى بالتدليس وغيره (١).

ثم ذكر عن الفاسى أن الفاكهى روى بعض الروايات التى رواها الأزرقى ثم قال: ليته ساق خبر الفاكهى؛ فإن الفاكهى وإن كان كالأزرقى فى أنه لم يوثقه أحد من المتقدمين ولا ذكره ولكنه أثنى عليه الفاسى فى العقد الثمين ونزّهه عن الجرح، وفضل كتابه على الأزرقى تفضيلًا بالغاً ثم قال:

١- قال آل الشيخ فى رسالة الجواب المستقيم: أبو الوليد الأزرقى مؤرخ مكّة لم نر شهادة أى‌معاصر له، ولم يرها قبلنا الفاسى على سعة اطلاعه. وأمّا الذين لم يعاصروه فأقدم من رأيناه تعرض له منهم ابن النديم صاحب الفهرست، قال فيه بعد ذكر نسبه: أحد الأخباريين وأصحاب السير؛ وله من الكتب كتاب مكّة وأخبارها وجبالها وأوديتها كتاب كبير... إلى أن قال: ثم بعد ابن النديم الحافظ عبد الكريم السمعانى صاحب الأنساب ذكر فيه: الأزرقى صاحب كتاب أخبار مكّة أحسن فى تصنيف ذلك الكتاب غاية الإحسان، ثم بعد السمعانى الإمام النووى. وقد بحثنا عن قول النووى فى الأزرقى فوجدناه يعتقد فى مؤرخ مكّة أنه هو جدّه أحمد بن محمد بن الوليد الأزرقى حيث عدّة فى المجموع ٧: ۴١٢ من أصحاب الشافعى، ونبّه الفاسى فى العقد الثمين على وهمه والدليل عليه، وأن السبب للوهم أن أحمد الأزرقى جد أبى الوليد صاحب التاريخ أيضاً يكنى بأبى الوليد فظنّه النووى هو.

أقول: هذه الشهادات التى نقلها آل الشيخ فى شأن الأزرقى لا تدلّ على وثاقته فضلًا من أن تدل على جلالته بما يعادل أو يكون أدنى من جلالة عبد الرزاق وابن أبى حاتم وأمثالهما.

ص: ۶۲

أحسب أن الذى يحمل الفاسى ومن قبله المحبّ الطبرى على نقل رواية الأزرقى دون الفاكهى- إلا بإشارة- هو حسن سياق الأزرقى قال: ويريبنى من الأزرقى حسن سياقه للحكايات وإشباعه القول فيها ومثل ذلك قليل فيما يصح عن الصحابة والتابعين. ويريبنى أيضاً منه تحمّسه لهذا القول- يعنى للقول بأن الموضع الفعلى للمقام هو الموضع الأصلى. حتّى أنه أبدل بعض التعابير فى الأحاديث بما يناسب مقالته.

القول الثانى: ما قاله بعضهم: كان المقام لاصقاً بالكعبة فى عهد النبى صلى الله عليه و آله حتّى أخّره هو صلى الله عليه و آله إلى موضعه الآن، واستشهد له ببعض الروايات وردّ عليها بضعف السند.

القول الثالث: كان المقام فى عهد النبى صلى الله عليه و آله وبعده لاصقاً بالكعبة حتى حوّله عمر واستشهد له بنصوص.

ثم قال: وقد ينتصر للقول الأوّل بأن عمر لم يكن ليخالف النبى صلى الله عليه و آله؛ وما معنى تقدير المطلب لموضع المقام وتحرّى عمر؟

وينتصر للقول الثانى بأن أولئك الأئمّة لم يكونوا ليتوهموا بدون أصل؛ فلعلّ النبى صلى الله عليه و آله حوّل المقام أخيراً ولم يبلغهم ذلك.

وينتصر للثالث بأنه قد يقع من عمر ما هو فى الصورة مخالفة للنبى صلى الله عليه و آله وهو فى الحقيقة موافقه بالنظر إلى مقاصد الشرع واختلاف الأحوال؛ وقد يخفى علينا وجه ذلك، ولكن الصحابة لا يجمعون إلّاعلى الحق.

ثم قال: قد أغنانا اللَّه عن هذا الضرب من الاحتجاج بثبوت النقل عمّن لا يمكن أن يظنّ به التوهم. ثم ذكر الروايات التى تدل على القول الثالث وقال: فقد ثبت بما تقدم- لاسيما حديث عائشة- صحة القول الثالث الذى عليه أئمة مكّة؛ عطاء ومجاهد وابن عيينة.

مع أن الإنصاف يقضى بأن قولهم مجتمعين يكفى وحده للحجّة فى هذا المطلب.

ص: ۶۳

الفصل الخامس: علّة تحويل عمر المقام من موضعه الأصلى هو علم عمر بأن أئمة المسلمين مأمورون بتهيئة ما حول البيت للطائفين والعاكفين والمصلّين، ليتمكّنوا من أداء عبادتهم على الوجه المطلوب بدون خلل ولا ـ حرج؛ وعلم أن المسلمين كثروا وينتظر أن يزدادوا كثرةً فلم تبق التهيئة التى كانت كافية قبل ذلك كافية فى عهده؛ ورأى عمر أن عليه أن يجعلها كافية؛ فإن كان ذلك لا يتمّ إلّابتغيير يتم به المقصود الشرعى ولا يفوت به مقصود شرعى آخر فقد علم أن الشريعة تقتضى مثل هذا التغيير؛ فليس ذلك بمخالفة للنبى صلى الله عليه و آله بل هو عين الموافقة؛ وشواهد هذا كثيرة وأمثلته من عمل عمر وغيره من أئمة الصحابة معروفة (۱).

ثم ذكر من جملة الموانع لتغيير المقام فعلًا أن ذلك مما تنكره قلوب الناس فينبغى اجتنابه؛ كما روى أن النبى صلى الله عليه و آله قال لعائشة أن قومها أو قريشاً اقتصروا فى بناء الكعبة عن قواعدها التى بنى عليها إبراهيم- يعنى أن الكعبة قواعدها أوسع ممّا بنتها قريش- فقالت له: «ألا تردّها على قواعد إبراهيم؟ قال: لولا حدثان قومك بالكفر لفعلت. وفى أخرى: لولا أن قومك حديث عهدهم بجاهلية فأخاف أن تنكر قلوبهم».

ثم ردّ على هذا المانع بأنه لم يكن على عهد النبى صلى الله عليه و آله حاجة فى تأخير المقام، كما لم يكن ضرورة فى ردّ بناء الكعبة إلى قواعدها الأصلية، بخلاف وضع المقام فى هذا اليوم.

مضافاً إلى أنه إذا ظهرت مصلحة تغيير المقام انقلب الإنكار رضا وشكراً.

مع أن المقام نفسه اخّر فى صدر الإسلام عن موضعه الأصلى- يعنى بفعل عمر كما اختاره أو بفعل غيره- ولم يلتفت إلى احتمال إنكار القلوب له.

۱- أقول: يظهر من بعض النصوص التى تقدّمت من طرق الشيعة أن علة تأخير عمر للمقام من موضعه الأصلى كان هو تشاغل الطائفين به عن الطواف وازدحامهم عليه الموجب للزحمة على ساير الناس، ولصلاة المصلّين، وكأنه كان نظير تشاغل الطائفين بالحجر الأسود- استلاماً أو تقبيلًا- أثناء الطواف، وكذا تشاغل ساير الناس، وهذا أمر غير بعيد.

ص: ۶۴

ثم ذكر من جملة الموانع لتغيير المقام أنه استقرّ المقام فى هذا الموضع قرابة أربعة عشر قرناً، ولا شك أن الحجاج كثروا فى بعض السنين وازدحموا فى المطاف، ومع ذلك لم يخطر ببال أحد تأخير المقام، ولو كان جائزاً لما غفل عنه الناس طول هذه المدّة مع وجود الكثرة والزحام فى كثير من الأعوام. ولا أقل من استحباب اختصاص المقام بموضعه الفعلى.

وردّ عليه بأنّه بعد تحقق علة تأخير الصحابة للمقام عن موضعه الأصلى وأنه تهيئة المسجد للطائفين والمصلين خلف المقام الذى هو مأمور به فإعراض مَنْ بيننا وبين الصحابة عن تأخير المقام مرّة ثانية محمول على أنه لعدم تحقق العلّة؛ كما أن إعراض النبىّ صلى الله عليه و آله عن تأخير المقام فى زمانه لعدم تحقق العلّة فى عهده، لم يمنع الصحابة من التأخير عند تحقق العلّة بعده؛ فكذلك هذا.

مع أنه لم يكن عدم تأخير المقام بعد الصحابة على مرّ القرون إجماعاً صحيحاً يمنع من العمل بما يأمر به القرآن أو أجمع عليه الصحابة.

ثم لخّص رسالته بأن: الآيتين المصدّرتين فى رسالته- وغيرهما من الأدلة- تأمر بتهيئة ما حول البيت للطائفين- مبدوءاً بهم- وللعاكفين والمصلّين؛ وأن المراد من التهيئة لهذه الفرق تمكينها من أداء تلك العبادات على وجهها بدون خلل ولا حرج؛ وأن هذه التهيئة تختلف باختلاف قلّة تلك الفرق وكثرتها، وقد كثر الحجاج والعمّار فى عصرنا كثرةً لا عهد بها وينتظر استمرارها وأصبح المطاف- يعنى ما بين البيت والمقام بموضعه الفعلى- يضيق بالطائفين فى موسم الحج ضيقاً شديداً، يؤدى إلى الحرج والخلل، إذن لا تتم التهيئة المأمور بها إلا بتأخير المقام. وإن الحكم المتعلق بالمقام- وهو الصلاة إليه- لو كان يختص بموضع لكان هو موضعه الأصلى الذى انتهى إليه إبراهيم فى قيامه عليه لبناء الكعبة وقام عليه فيه للأذان بالحج ونزلت الآية: «واتخذوا من مقام إبراهيم مصلّى» وهو فيه وصلّى عليه النبى صلى الله عليه و آله مراراً تلا فى بعضها الآية وهو فيه؛ ومع ذلك فلمّا أجمع الصحابة على تأخيره

ص: ۶۵

وانتقال الحكم- وهو الصلاة إليه- معه ثبت قطعاً أن الحكم يتعلق به لا بالموضع، هذا بالنسبة إلى الموضع الأصلى فكيف بالموضع الفعلى؟!

فتأخير المقام هذا اليوم أيضاً قطعاً عمل بكتاب اللّه تعالى الآمر بالتهيئة للطائفين أوّلًا وللعاكفين والمصلّين بعدهم، واتّباع لسنّة رسول اللّه صلى الله عليه و آله حق الاتّباع بالنظر إلى المقصود الشرعى الحقيقى؛ وإنه لا يخدش فى ذلك أن فيه مخالفة صوريّة؛ وكذلك هو اتّباع لسنّة الخلفاء الرّاشدين المهديين وإجماع المسلمين؛ لأن الحكم يدور مع علّته، ولكن لابدّ أن يكون تأخير المقام بمثل عمل الصحابة مع ما راعوه، يعنى بالشروط الثلاثة: عدم إخراجه عن المسجد، وعن المحاذاة للموضع الأصلى، وعدم البعد المفرط عن البيت إلّابمقدار الحاجة.

هذا آخر ما لخصناه من رسالة المحدّث العلّامة عبدالرحمن بن يحيى المعلّمى اليمانى المتوفى سنة ۱۳۸۶ ه، والتى قرّظها واستحسنها ووافق على مضامينها العلّامة الشيخ محمّد بن إبراهيم آل الشيخ مفتى الديار السعوديّة.

أقول: بالرغم من أن النتيجة التى انتهى إليها المعلّمى فى رسالته لا نرتضيها حسبما تقدم منّا أيضاً، ولكن الرسالة هذه حاكية عن فضل مؤلّفها وقوّة قريحته وحسن فهمه؛ فهو على مبانى أهل السنّة جيّد المشى قوىّ الاستدلال، فلذا كانت رسالته أهلًا للإيراد؛ ونحن إنما لا نقول بالنتيجة التى توصل إليها من جواز نقل المقام إلى موضع ثالث غير الموضع الأصلى والموضع الفعلى؛ لأن جواز كون المقام فى الموضع الفعلى أيضاً لا- نقول به حسب مبانينا ونصوصنا. ولو كان الموضع الفعلى أمراً جائزاً فالنقل الثانى بما ذكر له من الشروط لم يكن أمراً بعيداً.

فعمدة الخلاف بيننا وبين المعلّمى ومن هو على مذهبه هو هذه النقطة وهو أن كون المقام فى الموضع الفعلى الذى كان بفعل عمر حسبما اعترف به هو وغيره من منصفى أهل السنّة هل كان جايزاً ويجوز إبقاؤه الآن أيضاً أو لا؟

وقد سبق أن نصوصنا صرّحت بأن نقل المقام كان بدعةً فى لغة رسولاللّه صلى الله عليه و آله،

ص: ۶۶

حسبما تقدمت الروایة عن أمیرالمؤمنین علی علیه السلام، وأنه لولا العجز لردّ المقام إلی الموضع الأصلی؛ وأن المهدی إذا ظهر وكان المقام یومذاک فی الموضع الفعلی لردّه؛ لتمكّنه وزوال التقیّة.

والمعلّمی لما کان فعل عمر حجّة عنده فمشیه علی أساس ذلک المبنی فی الحکم بجواز النقل مجدداً فی محلّه؛ ولکن نحن لا نری حجّة فی ذلک الفعل لوجوه:

الأوّل: أن شأن الصحابة- علی جلالتهم وفضلهم لصحبتهم لرسول اللّه صلی الله علیه و آله- شأن سایر الناس فی حجیّة اجتهادهم؛ وربما کان اجتهاد غیر الصحابی أقوی وأکثر اعتباراً من اجتهاد صحابی.

وأمّا حکمنا فی شأن علی علیه السلام وسایر أهل بیت رسول اللّه صلی الله علیه و آله فلیس بملاک الصحبة؛ لیکون الأمر فی قضائهم کسایر الناس، وإنما نقول باعتبار حدیثهم وحکمهم لحدیث الثقلین وغیره مما تضمن حجیّة قولهم علی المسلمین قاطبة، وأن الحق معهم کما أنهم مع الحق، وأنهم باب علم رسول اللّه صلی الله علیه و آله إلی غیر ذلک من المضامین التی تواترت فی کتب أهل السنة فضلًا عن کتب الشیعة، واعترف بها أفاضل علماء السنّة فضلًا عن علماء الشیعة.

الثانی: أن اجتهاد الصحابی لو کان حجّة فإنما هو حیث لا یکون هناک نص بخلافه، فالاجتهاد فی قبال النصّ لا عبرة به من صحابیٍّ کغیره. هذا من جهة.

ومن جهة اخری، إن النص الذی یرویه أئمة أهل البیت لا یقلّ اعتباراً عن ما یرویه غیرهم فی الصحابة لو ثبت وثاقة الصحابی، فإن شأن أهل البیت فی روایتهم لا ینبغی أن یقلّ عن شأن سایر المسلمین بل أدناهم؛ فکیف یکون خبر أدنی المسلمین- إذا کان ثقة- حجّة ولا یکون خبر آل محمد صلی الله علیه و آله حجّة وهم سادات المسلمین وأئمتهم وعدل القرآن وأهل بیت الوحی؛ فأیّ ظلم أفحش من أن لا یری لآل محمّد صلی الله علیه و آله ما یری لأدنی المسلمین من حق وحکم، أعنی حجیّة الخبر؟!

ومن جهة ثالثة، إن أهل البیت صرّحوا بأن کل ما لهم من حدیث وحکم فهو

ص: ۶۷

رواية عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بسند متصل ينتهى إلى على أميرالمؤمنين عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله.

فيا ترى أن وسائط النقل بين النبى صلى الله عليه و آله وبيننا لو كان أمثال أبى هريرة كان الخبر حجّة، وأمّا إذا كان واسطة النقل علىّ وبنوه فلا يكون الخبر حجّة. إنّ هذا الأمر لعجيب!

وعلى هذا الأساس نقول: روى عن على أمير المؤمنين عليه السلام أن نقل المقام بدعة مخالفة لسنّة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله.

الثالث: هب أن اجتهاد الصحابة حجّة كما عليه أهل السنّة، ولكن اجتهاد على وساير أهل بيت النّبى صلى الله عليه و آله- من الصحابة على الأقلّ- لا ينبغى أن يقلّ عن اجتهاد ساير الصحابة؛ فما بال اجتهاد ساير الصحابة يكون حجّة مقدّماً على اجتهاد الصحابى من أهل بيت رسول اللَّه صلى الله عليه و آله؟!

ثم ما أراده المعلّمى من تجويز نقل المقام إلى موضعٍ أبعد، إن كان لقضيّة صلاة الطواف- كما هو مقصوده- فهو مبنى على اشتراط صلاة الطواف بالمقام على الإطلاق؛ لِمَ لا تكون الشرطيّة مخصوصة بفرض التمكن وعدم الحرج والزحمة؛ وأمّا مع الحرج فتسقط الشرطيّة وتجب الصلاة فى محاذى المقام ولو بعيداً عنه، كما روى عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام أنهم صلّوا صلاة طواف الفريضة فى الزحام بحذاء المقام قريباً من الظلال.

وبالجملة: إذا كان اشتراط مجاورة الصلاة للمقام باقياً فى تمام الظروف والحالات، فحيث لا يمكن عادةً التحفظ على الشرط إلّابنقل المقام كان النقل جايزاً بل واجباً، كوجوب تحصيل ساير شروط الواجب كالوضوء وغيره من شروط الصلاة.

ولكن لِمَ لا- يكون اشتراط مجاورة الصلاة للمقام فى الزحام من قبيل شرط الوجوب؛ بمعنى أنه تجب المجاورة مع التمكن لعدم الزحام؛ وأمّا إذا كانت المجاورة لا

ص: ۶۸

تتحقق إلّابنقل المقام فهذا الشرط لیس مما یجب؛ بل الشرط هو ما یتیسّر للناس من محاذاة المقام بدل المجاورة.

هذا، وکان علی المعلّمی- علی أساس استدلاله لجواز نقل المقام بآیتی الأمر بتهیئة ما حول البیت للطائفین والمصلّین- أن یقول بجواز نقل الحجرالأسود من موضعه لنفس النکتة التی علی أساسها حوّل المقام فی عهد عمر وأراد المعلّمی تحویله ثانیاً إلی أبعد؛ ویجری الکلام فی ذلک طابق النعل بالنعل والقذة بالقذّة.

وإذا رجع المعلّمی فقال: إن الحجر لم ینقل فی عهد الصحابة ولکن المقام نقل؛

قلنا له: أوّلًا: ربما کان عدم نقل الحجر فی عصر الصحابة کعدم نقل المقام فی عصر الرسالة وحیاة النبی صلی الله علیه و آله؛ فکما أن الثانی لم یمنع الصحابة من نقل المقام بعد النبی صلی الله علیه و آله، فما المانع من نقلنا نحن الحجر بعد عصر الصحابة؟!

وثانیاً: ربما کانت العلّة فی عدم نقل الصحابة للحجر عدم الحاجة والضرورة آنذاک وکانت ضرورتهم تتأدّی بنقل المقام خاصّة؛ بخلاف هذا العصر؛ وبالجملة:

لا مناص للمعلّمی وغیره من أهل السنّة إذا جوّزوا نقل المقام الذی صنعه عمر، وجوّزوا أیضاً نقله ثانیاً فعلًا أن یرخصوا فی نقل الحجر الأسود. ولو کان رسول اللَّه صلی الله علیه و آله واضعاً الحجر الأسود فی موضعه الفعلی، فقد وضع رسول اللَّه صلی الله علیه و آله

ص: ۶۹

المقام فی موضعه الأصلی غیر الفعلی فما بال مخالفة رسول اللَّه صلی الله علیه و آله فی الأوّل ممنوعة وفی الثانی جائزة؟!

ثم إن ما ذکره من أن الأمر فی الآیتین مردّه إلی الأمر بتهیئة البیت للطائفین والمصلّین، فالأمر کما ذکره، ولذا یستفاد من الآیتین عدم جواز فعل ما ینافی ذلک کبناء منابر فی المسجد الحرام، وکذا بناء مقصورات حسبما ینقل أنه کان سابقاً؛ وکذا التکلّم علی المنابر بما ینافی تمکّن الطائف والمصلی من العبادتین بحضور قلب؛ ولذا ورد فی روایات الشیعة أن المهدی إذا ظهر یهدم المنابر فی المسجد الحرام، وقلنا: إن المراد هو هدمه لها لو کانت موجودة کل هذا صحیح؛ ولکن لا ینبغی أن یفهم من ذلک تقدیم الطواف علی الصلاة حسبما رامه المعلّمی؛ سیما صلاة الطواف التی هی من تبعات الطواف؛ فإنه لیس فی تقدیم الطائفین فی الآیة دلالة- لو کان فیها إشعار- علی کون الطائف أحقّ بالبیت من المصلّی.

بل لم یعلم کون الطائف أحقّ من المصلّی لغیر الطواف کالمشتغل بصلاة یومیّة بل حتّی من المشتغل بالنافلة. فإنه لیس فی ذکر الطائف أوّلًا دلالة علی أحقیته من المصلی المذکورثانیاً؛ فإنه لو کانا فی عرض واحد لم یکن مناص من ذکرهما متعاقبین.

لا أقول: إن الصلاة والطواف متساویان فی الحق؛ بل أقول: إن تقدیم الطائف لا ینافی تساویه مع المصلی فی الحق؛ وإطلاق المصلی فی الآیة یشمل المصلی نافلة فضلًا عن مصلی الفریضة لغیر الطواف أو للطواف.

کما أن إطلاق الطواف فی الآیة یشمل الطائف ندباً وغیره ولم یفرض فی الآیة أن المشتغل بطواف الواجب أحقّ من غیره.

نعم، یستفاد من النصوص- غیر الآیتین- أن المشتغل بطواف الفریضة فی الموسم أحق من غیره بالمطاف؛ وذلک أن المهدی علیه السلام إذا ظهر یخصّ المطاف بالطائف للفریضة فی الموسم- علی ما ببالی-.

ص: ٧٠

وكان على المعلّمى- إذ كان تقديم الطائفين عنده دليلًا على تقدمهم على المصلّين فى الحق- أن يعتبر ذكر الطّواف من دون ذكر الحجر الأسود فى الآيتين أوضح دلالة على تقدّم الطواف على استلام الحجر وتقبيله؛ وعلى أساسه فتدل الآية على وجوب تهيئة البيت للطائفين بتحويل الحجر للاستلام والتقبيل إلى خارج المطاف؛ ليتمحّض البيت للطائفين ويسهل الطواف لهم؛ كما دلت الآية- حسب فهم المعلّمى- على جواز بل وجوب نقل المقام إلى موضعٍ أبعد من البيت.

وأمّا نحن، فلا نقول بذا ولا بذاك؛ فلا أن الآية- بسبب تقديم الطائف على المصلّى- تدلّ على جواز تأخير المقام إلى موضع بعيد من البيت فضلًا عن دلالتها على الوجوب؛ ولا أن الآية تدل- بسبب ذكر الطواف والصلاة دون استلام الحجر وتقبيله- على جواز تأخير الحجر الأسود من موضعه إلى مكان منفصل عن الكعبة المشرفة.

بل مكان الحجر الأسود والمقام هو لصق البيت حسبما تضمّنته روايات أهل‌البيت عليهم السلام. هذا ما يخطر ببالى القاصر على ما دوّنه المعلّمى وأقرّه عليه مفتى الديار السعوديّة الشيخ محمد إبراهيم آل الشيخ.

وقد عثرت على رسالة لآل الشيخ تضمّنت الردّ على رسالة لمن يسمى بابن حمدان، وقد تضمّنت رسالة ابن حمدان تحاملًا على المعلّمى، ورداً عليه بامور تُنبىءُ عن قصور الفهم وتعصب فى الاعتقاد وحمية لرأى؛ حتى بلغ حدّاً جاوز الأدب مرّات وتجاسر على عدة من العظماء والعلماء من أهل مذهبه، بل من هو من ساداتهم أمثال عطاء وغيره من سادات التابعين وغيرهم، فاتّهم جمعاً منهم كعطاء بالكذب، واتّهم مالك بن أنس بأن ما تكلّم به على سبيل الظن، وقد أخطأ فيه، وصرّح بأن عبدالرزّاق- صاحب المصنّف- تصرف تصرفاً محرّماً محيلًا للمعنى فى بعض نصوص المقام، وبأن النسائى متساهل، وطعن فى ابن كثير بأنه مقلّد

ص: ۷۱

للمؤرخين الذين لا يعرفون الصحيح من السقيم، وفی ابن حجر صاحب الفتح بأنه مقلّد لابن كثير تقليداً أعمی، وغير ذلک من القدح والتحامل علی أجلّة أرباب السير.

وقد ردّ عليه آل الشيخ فی رسالة مستقلّة باسلوب متين ودافع عن المعلّمی ومن قبله كعطاء ومالک وعبدالرزاق بطريقة علميّة.

وقد غاب عن ابن حمدان أنه لو صحّ القدح فيمن قدح فيهم- وغيرُهم أمثالهم- لم يبق لمذهبه عماد؛ ولا سَلِم له حديث فی باب؛ ولعل الذی حمله علی هذا التطرّف والإفراط هو تعصّبه لإمام مذهبه عمر، فأراد بذلک أن يزيل الشين عنه، حيث إن مخالفة رسول اللَّه صلی الله عليه و آله فی صنعه وفعله ليس مما يهون والجرأة علی نقض ما عمله صلی الله عليه و آله ليس بسهل ولا يسير؛ وقد رأی أن ما ذكره المعلّمی فی توجيه عمل عمر فی مخالفته لما فعله رسول اللَّه ليس أمراً مقبولًا، فاضطرّ إلی أن يحفظ كرامة سيده عمر بالقدح فی ساير ساداته ممن هم دونه فی الفضل عند أهل السنّة.

ولكنه غفل عن أن فتح هذا الباب من القدح، والموافقة علی هذا النمط من الجرح لا يبقی للمذهب من باقية، ولا يذر للأحاديث والنصوص المروية فی كتب أهل السنّة من سالمة.

فكان توجيه فعل عمر بعد مخالفته لرسول اللَّه صلی الله عليه و آله- ولو كان التوجيه بعيداً- ضرورةً لا مناص منها، وهو أولی من القضاء علی اصول المذهب وأساسه.

فإنه لا مناص من ارتكاب أحد المحذورين: إمّا القضاء علی تمام المذهب وأصله؛ أو الإلتزام بتوجيه- ولو بعيد مردود- حفاظاً علی أصل المذهب، ولا ريب أن الثانی أهون.

ويا ليت ابن حمدان حيث تعصّب لما فعله عمر علم أن ما ثبت عن عمر فی مخالفة رسول اللَّه صلی الله عليه و آله- ولو فی الصورة كما ذكره المعلّمی وغيره- ليس محصوراً فی هذا المورد؛ ليردّ عليه بالإنكار، فلا محيص من قبول وقوع المخالفة لرسول اللَّه صلی الله عليه و آله

ص: ۷۲

من عمر، ثم التكلّم فى توجيه ذلك وكونه مخالفة فى الصورة أو فى الباطن والحقيقة؛ وإلّا فلو فتح لابن حمدان وأمثاله المجال فى قدح من نقل عن عمر مخالفاته لرسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله وسيرته وأقواله- أمثال تحريم المتعتين خلافاً لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله وغير ذلك- لقضوا على كل سادات أهل السنّة وعظمائهم ولأتوا على جذور المذهب وأصوله وأساسه؛ والحكم إليك!

إن قلت: ألم يقدح المعلّمى فى الأزرقى بل الفاكهى ممن رووا روايات تنافى مقالته؛ فابن حمدان أيضاً إنما قدح فى رواة ما ينافى مقالته فهذه واحدة بواحدة.

قلت: فرق بين القدحين، فإن القدح فى مثل الأزرقى لا يبطل أصل المذهب وأساسه، وهذا بخلاف القدح فيمن قدح فيه ابن حمدان.

ثم إنّى لا أظن أن المعلّمى وآل الشيخ وغيرهما من علماء السنّة لا يهمهم الحفاظ على كرامة الخليفة عمر وصونه من أن يناله شبهة مخالفة الرسول؛ ولكن الذى حدا بهم إلى الالتزام بأن عمر هو الذى حوّل المقام إلى موضعه الفعلى خلافاً لما فعله رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أمران؛ والعمدة منهما واحد.

والأمران هما:

الأمر الأول: ثبوت الشواهد القطعيّة من التاريخ والنصوص على ذلك بحيث لا يبقى للمنصف شك فى هذا المجال. وهذا الأمر وإن كان ثابتاً؛ ولكنه لا يستدعى الاعتراف؛ فكم له من نظير لا يعترف به.

والأمر الثانى- وهو الّذى حمل المعلّمى وآل الشيخ ويحمل غيرهما أيضاً على الاعتراف بأن تحويل المقام هو فعل عمر خلافاً لما كان المقام عليه فى عهد النبى صلى الله عليه و آله- هو: ما يبتغونه من وراء ذلك وهو تجويز التحويل فى المقام مرّة اخرى، تسهيلًا للأمر على الحكّام المتولّين لأمر بيت اللَّه وتعبيداً للطريق لهم، وأنه ليس تحويل المقام أمراً بدعاً، بعدما فعله عمر، ولا شيئاً جديداً بعد ما باشره الخليفة.

ولمّا لم يكن الأمر فى ذلك يتم إلّابالاعتراف بكون المقام فى عهد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله

ص: ٧٣

على غير موضعه الحالى الـذى صار بفعل عمر لم يكن لهم مناص من الاعتراف بكلا الأمرين؛ فإنه لو كان المقام فى عهـد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فى موضـعه الفعلى وكـان عمر ردّ المقام إلى ذاك الموضع لم يكن فى فعل عمر تأييـد لجواز نقل المقام فعلًا إلى مكان أبعد من البيت عما عليه فعلًا.

فليس اعتراف المعلّمى وأضرابه فى هذا العصر بمخالفة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله من عمر ثم توجيه ذلك بأنه مخالفة فى الصورة لا ـ فى اللبّ والحقيقـة بـل ما فعله عمر فى الحقيقـة عين الموافقـة لرسول اللَّه باعتبار الغرض، ليس لأجل الاعتراف بالحقيقـة؛ وإنما هو لأجل التوصّل به إلى غرض آخر كما ألمحنا إليه. واللَّه العالم بحقيقة الحال.

ص: ۷۴

فقه الجدال فی الحج

دراسة فقهیة استدلالیة حول مفهوم الجدال وأحکامه

(القسم الثانی)

حیدر حبّ اللّه

المبحث الثالث: اختصاص الحکم بالصیغتین أو الشمول لمطلق الحلف

وقع خلاف فی أنّه بناءً علی التقیّد بالصیغة فی مفهوم الجدال، فهل الحرام هو مطلق الحلف، أم خصوص الصیغتین المذکورتین فی النصوص، وهما: لا واللّه، وبلی واللّه؟

ظاهر عبارات الفقهاء (۱) ذکر الصیغتین ممّا یفید الاختصاص، بل قیل: هو المشهور (۲)، إلا أنّ بعضهم کالمحقّق الکرکی والشهید الأوّل وغیرهما (۳) صرّحوا بأنّ موضوع الحکم فی المسألة هو مطلق الحلف.

۱- من العبارات المصرّحة کلام فخر المحقّقین، إیضاح الفوائد ۱: ۲۹۵؛ والأردبیلی، مجمع الفائدة والبرهان ۶: ۲۹۵، وهو ظاهر السبزواری فی کفایة الأحکام ۱: ۲۹۹؛ وصریح الفاضل الهندی فی کشف اللثام ۵: ۳۷۰؛ والنجفی، جواهر الکلام ۱۸: ۳۶۲.

۲- المدنی الکاشانی، براهین الحج ۳: ۱۳۱؛ والسید محمود الشاهرودی، کتاب الحج ۳: ۱۸۲.

۳- الصدوق، المقنع ۳۳۲؛ والکرکی، جامع المقاصد ۳: ۱۸۴؛ والشهید الأوّل، الدروس ۱: ۳۸۶- ۳۸۷؛ والشهید الثانی، مسالک الأفهام ۲: ۲۵۸؛ والطباطبائی، ریاض المسائل ۶: ۳۱۴.

ص: ۷۵

أدلّة القول بالاختصاص:

وقد ذکرت للاختصاص وجوه أبرزها:

الوجه الأوّل: ما ذکره السیّد الخوئی وغیره من التمسّک بصحیحة معاویة بن عمّار (الروایة الثالثة)، حیث یستفاد منها ترتّب الحکم علی القول المـذکور خاصّة، لا علی معناه أو مضـمونه، ولا حتّی علی مطلق الیمین أو الحلف، فیلتزم بظاهر الصـحیحة (۱)، بل عمّم بعضهم الاسـتدلال عبر القول بـأنّ ظاهر النصوص تفسـیر الجـدال بهما دون غیرهما، ولا دلیل علی الشـمول لغیرهما (۲)، والأصل فی العناوین الواردة فی ألسـنة النصوص هو الموضوعیّـة لا الطریقیة، إلّابقرینة (۳)، ومن ثمّ فلا دلیـل تعـدی علی التعمیم کما لا إحراز للمناط فی المقام (۴).

وقد أورد المحّقق الکرکی علی الاستدلال بهذه الصـحیحة بأنّ الحصر الوارد فیها عبر کلمة «إنّما» هو حصر إضافی لا حقیقی، إذ ورد قبله الحـدیث عن عدم صدق الجدال علی مثل «لا لعمری»، فلا یکون مفیداً للاختصاص التام الذی یمنع التعدی إلی مطلق الیمین (۵)، وکلامه وجیه.

الوجه الثانی: الأصل، کما ذکره المحقّق الأردبیلی وغیره (۶).

ومن الطبیعی کونه موقوفاً علی عدم وجود دلیل علی التعمیم، وإلّا فلا یصمد أمام الأمارات.

۱- الخوئی، المعتمـد ۴: ۱۶۴؛ وانظر: فخر المحقّقین، إیضـاح الفوائـد ۱: ۲۹۵، والأردبیلی، مجمع الفائـدةوالبرهان ۶: ۲۹۵؛ والفاضل الهندی، کشف اللثام ۵: ۳۷۰.

۲- المدنی الکاشانی، براهین الحج ۳: ۱۳۱؛ واللنکرانی، تفصیل الشریعة ۴: ۱۱۴.

۳- الفیاض، تعالیق مبسوطة ۱: ۲۲۱.

۴- الشاهرودی، کتاب الحج ۳: ۱۸۳.

۵- الکرکی، جامع المقاصد ۳: ۱۸۳- ۱۸۴.

۶- الأردبیلی، مجمع الفائدة والبرهان ۶: ۲۹۵؛ وانظر: الفاضل الهندی، کشف اللثام ۵: ۳۷۰؛ والنجفی، جواهر الکلام ۱۸: ۳۶۲.

ص: ۷۶

أدلّة القول بالتعمیم:

أمّا القول بالتعمیم، فقد یستدلّ له بعدّة وجوه أیضاً أهمّها:

الوجه الأوّل: التمسّک بصحیحة معاویة بن عمّار نفسه، إذ جاء فیها بعد بیان حقیقة الجدال أنّه إذا حلف الرجل بثلاثة أیمان ولاء فی مقام واحد وهو محرم فقد جادل و.. وهذا ما یشهد علی أنّ المراد بالصیغتین الإشارة بنحو المثالیة إلی مطلق الحلف، لأنّه رتب الحکم فیما بعد علی عنوانه.

وقد أورد علی هذا الوجه:

أوّلًا: بأنّه وإن ذکرت هذه المسألة فی الروایة علی نحو الاستقلال إلّاأنّها جاءت عقیب الصدر الذی حدّد الجدال بالصیغتین، ممّا یعلم منه أنّ المراد بالحلف فی الذیل هو الحلف الخاص لا ـ مطلق الحلف، فالذیل لیس فی مقام بیان الجدال ومعناه، بل فی مقام بیان التفصیل بین الکاذب والصادق (۱).

إلّا أنّ هذا الکلام قابلٌ للمناقشة، فإذا کان الذیل فی غیر مقام بیان الحلف من حیث طبیعة صیغه وأیّها الجدال، فإنّ الصدر أیضاً لیس فی هذا المقام؛ لأنّ المفروض أنّ المنصرف من الجدال لغةً بإقرار الجمیع هو المخاصمة، فحدیث الصدر فی مقام بیان الجدال بمعنی الحلف مقابل المعنی اللغوی، ومن غیر المعلوم أن یکون فی مقام بیان نوع الحلف، وکأنّ أصل کون معناه هو الحلف واضحاً، ولا أقلّ من الشک فی کونه فی هذا المقام فلا یتمّ الاستظهار المذکور من الروایة، ومعه فکما یحتمل قرینیة الصدر للذیل یحتمل العکس أیضاً، فلا یتم القول المذکور، وإن لم تتمّ مناقشته.

ثانیاً: لو سلّمنا انعقاد الإطلاق، إلّاأنّه لابد من حملها علی الروایات التی فسّرت الجدال بالصیغتین علی وجه الخصوص، لتقییدها بها، وبعد حمل المطلق

۱- الطباطبائی، ریاض المسائل ۶: ۳۱۴؛ والنجفی، جواهر الکلام ۱۸: ۳۶۲؛ والخوئی، المعتمد ۴: ۱۶۵؛ والشاهرودی، کتاب الحج ۳: ۱۸۳- ۱۸۴؛ واللنکرانی، تفصیل الشریعة ۴: ۱۱۵.

ص: ۷۷

علی المقید یکون القول بالتعمیم لمطلق الحلف من الاجتهاد فی مقابل النص (۱).

ویجاب عنه: إنّه بعد أن کانت صحیحة معاویة بن عمار معمّمة، فکما یحتمل التقیید، مع أنّهما مثبتین، یحتمل کذلک- وبقوّة- أخذ الصیغتین علی نحو المثالیة، فما هو المرجّح- علی تقدیر الأخذ بإطلاق صحیح معاویة- لتقدیم قرینیّة غیره فی التقیید علی قرینیّة هذا الصحیح فی المثالیة؟!

نعم، طرح بعض الفقهاء التعارض بطریقةٍ أخری، حیث جعل النسبة بین المطلق وبین مثل صحیحة معاویة بن عمار هی العموم والخصوص من وجه؛ لأنّ الصحیحة تدلّ بدلالة الحصر التی فیها علی عدم مؤثریة غیر الصیغتین، سواء کان حلفاً أو غیره، فیما المطلقات تدلّ علی المنع عن الحلف سواء کان بالصیغتین أو غیره، فیقع التعارض فی الحلف باللَّه غیر الصیغتین ویقع التساقط بمقتضی قواعد التعارض بین العامّین من وجه، فیرجع إلی أصالة البراءة فی مورد الاجتماع (۲).

الوجه الثانی: الاستناد إلی موثقة أبی بصیر (الروایة الثامنة) المقاربة فی مضمونها لذیل خبر معاویة، بتقریب أنّها ترتب الحکم علی مطلق الحلف دون تقییده بصیغةٍ خاصّة (۳).

ونوقشت بأن الروایة لیست بصدد بیان الجدال، بل فی مقام التفصیل بین الکاذب والصادق فی التعدّد وعدمه، ومعه یصعب التمسک بها فی المقام (۴).

الوجه الثالث: ما ذکره النراقی من أنّ الأصل فی الألفاظ إرادة معانیها، دون خصوص اللفظ، ومعه فیشمل الحکم تمام أوصاف الباری تعالی غیر کلمة «واللَّه»

۱- السبزواری، ذخیرة المعاد ۱، ق ۳: ۵۹۳؛ والنجفی، جواهر الکلام ۱۸: ۳۶۲؛ والشاهرودی، کتاب الحج ۳: ۱۸۴؛ وانظر: العاملی، مدارک الأحکام ۷: ۳۴۲؛ والبحرانی، الحدائق الناضرة ۱۵: ۴۶۳؛ والطباطبائی، ریاض المسائل ۶: ۳۱۴.

۲- الخوئی، المعتمد ۴: ۱۶۵- ۱۶۶.

۳- المصدر نفسه: ۱۶۵.

۴- اللنکرانی، تفصیل الشریعة ۴: ۱۱۵.

ص: ۷۸

مثل الرحمن والخالق (۱).

إلّا أنّ هـذا الوجه تام على غير مبنى التعبديـة والموقوفية فی المقام، وإلّا فلا ريب فی دخالة بعض الألفاظ الخاصّة فی العبادات، كما لا يخفى، ومعه لا يُحرز إرادة المعنى وحده، إذ لعلّ فی اللفظ خصوصية.

وبهـذا ظهر، أنّ أدلّـة الاختصـاص والتعميم منـاقش فيهـا، عـدا الأصـل، والقول بـأنّه على التعبديـة فی المقام بالمعنى الشـرعی الخاص لمصطلح الجدال، لا دليل على التعميم، فيقتصر على ما جاء فی النص وهو الاختصاص.

هـذا كلّه مبنی على المعروف من فتوى الأصـحاب، من أنّ المراد بالجدال معنى شـرعی خاص، أمّا على ما تقدّم سابقاً من أنّ المراد به مطلق الخصومة والخصام والتنازع، فلا فرق فيه بين الحلف وغيره، ولا بين هذه الصيغ وغيرها.

نعم، لو التزمنا بالحلف فالخروج إلى غيره ممّا يسمّى حلفاً تسامحاً لا حقيقةً مثل «لا لعمری» غير واضح، لعدم الدليل عليه، حينئذٍ.

المبحث الرابع: اشتراط العربية وعدمه

هل يختصّ موضوع الحلف- مطلقاً أو بالصيغتين- باللغة العربية أو يشمل غيرها؟

استشـكل بعض الفقهاء فی الأمر محتاطاً (۲)، بل جزم به آخرون (۳)، ومنطلق الأـمر هو الوقوف على النص حيث الظاهر منه خصوص الصـيغتين، وقد ورد باللغة العربية، ولا أقلّ من الشک فی الشمول، فتجری أصالة البراءة عن غير العربية، سواء كان لفظ الجلالة بالعربية دون غيره أو العكس أو كان كلّه عربياً مطلقاً (۴).

۱- النراقی، مستند الشيعة ۱۱: ۳۸۷.

۲- المدنی الكاشانی، براهين الحج ۳: ۱۳۲- ۱۳۳.

۳- النجفی، جواهرالكلام ۱۸: ۳۶۳، مخصّصاً ذلک بلفظ الجلالة، وانظر: الفاضل اللنكرانی، تفصيل الشريعة ۴: ۱۱۹.

۴- اللنكرانی، تفصيل الشريعة ۴: ۱۱۹.

ص: ۷۹

إلّا أنّ الصحیح– وفاقاً لمثل المحقّق النراقی (۱)– أنّ مثل هذه الشکوک لا ینبغی الوقوف عندها؛ إذ من الطبیعی أن یبیّن أهل البیت علیهم السلام الحکم باللغة العربیة، وکلّ الأحکام علی هذا المنوال، فالمفترض أنّه لو کان الحکم مختصّاً بالعربیة أن یُبرزه الإمام علیه السلام، والحال أنّنا لم نجد مثل ذلک فی أیّ نصّ ولا حتّی فی سؤال السائلین، فالعربیة هنا لا تؤخذ علی نحو الموضوعیّة بل علی نحو الطریقیّة، سیّما بناءً علی القول بمطلق الحلف.

نعم، بناءً علی التعبّدیة الشدیدة فی هاتین الصیغتین قد یحصل شک حقیقی فی شمول هذه التعبّدیة حتّی لتلک اللغة التی تنطق بها الصیغتان، فمن یذهب إلی مزید توقیفٍ فی التعامل مع هذا الموضوع من الطبیعی حصول الشک عنده، دون غیره.

من هنا، وبناءً علی ما تقدّم من أنّ المراد بالجدل مطلق التنازع، لا معنی لهذا

۱– النراقی، مستند الشیعة ۱۱: ۳۸۷.

ص: ۸۰

البحث، حیث لا یختصّ الأمر بلغةٍ دون أخری، بل یتمسّک بإطلاقات دلیل تحریم الجدال للشمول لمطلق اللغات.

المبحث الخامس: شرطیة «لا» و «بلی» فی الصیغتین

هل یتحقّق الجدال بقول: «واللَّه»، دون إضافة: «لا» أو «بلی» أو استبدالها بغیرها مثل ما فعلت، أم لابدّ من إضافة إحدی اللفظتین؟

أ- أمّا إذا بنینا علی القول بأنّ المراد بالجدال مطلق المنازعة والخصومة، فلا إشکال فی عدم أخذ هذه القیود کما تقدّم، وإنّما تحمل برمّتها علی المثالیة.

ب- وأمّا إذا قلنا بأنّ المراد به المنازعة المقرونة بهذا اللفظ أو الموقوفیّة علی هذا اللفظ، فقد یقال بعدم کفایة «واللَّه»، انطلاقاً من الاقتصار علی مفاد الدلیل، سیّما وأن النصوص بصدد بیانه، فیکون غیره مورداً للبراءة (۱).

وفی مقابل هذا القول، قد یتمسّک بوجوه:

أوّلًا: صحیحة أبی بصیر (الروایة السابعة)؛ حیث إنّ تعلیلها نفی الجدال فی صورة قول أحد الطرفین لصاحبه: «واللَّه لا تعمله»، بغیر فقدان جزء من الصیغة، دلیل واضح علی أنّه لولا إرادة الإکرام لثبت الجدال بمطلق «واللَّه»، وإلّا لعلّل الأمر بفقدان الصیغة بشکلها التام (۲).

لکن هذا الکلام أورد علیه:

أ- بأنّه یمکن أن یکون فی هذا الفرض مانعان: أحدهما عدم توفّر الصیغة بصورةٍ صحیحة، وثانیهما صورة الإکرام، فأراد الإمام علیه السلام بیان أحد المانعین؛ لکفایته فی هذا المورد، ولیس من الواجب بیان الخلل الثانی الموجود فی الصورة المفروضة (۳).

ب- إن الصحیحة لیست فی مقام بیان الحلف بأیّ صیغة، وإنّما هی فی مقام بیان نفی البأس عن الحلف التکریمی، فلا یصحّ التمسّک بإطلاقها من تلک الجهة.

۱- الخوئی، المعتمد ۴: ۱۶۷- ۱۶۹؛ والمدنی الکاشانی، براهین الحج ۳: ۱۳۲؛ والفیاض، تعالیق مبسوطة ۱۰: ۲۲۳؛ واللنکرانی، تفصیل الشریعة ۴: ۱۱۴، ۱۱۷- ۱۱۹.

۲- أنظر: النجفی، جواهر الکلام ۱۸: ۳۶۳.

۳- المدنی الکاشانی، براهین الحج ۳: ۱۳۲؛ وانظر: الشاهرودی، کتاب الحج ۳: ۱۸۵، ۱۸۶.

ص: ۸۱

ثانیاً: ما ذکره صاحب الجواهر من أنّ صیغة القسم فی هذه الجملة هی لفظ الجلالة، أما ما یسبقها فهو المقسوم علیه، فلا دخل له بحقیقة القسم، فیجوز وجوده وعدمه، ویجوز أن یکون بغیر العربیة أیضاً (۱).

لکن هذا الکلام یجری علی غیر مبنی خصوصیة الصیغتین، مع رفض مطلق الحلف أو مطلق المخاصمة، أمّا علی هذا المبنی، فیصعب الخروج من حرفیة الصیغة؛ لأنّه من غیرالمعلوم أن یکون الحلف هو المقصود حتّی نجعل المعیار علیه دون علی ما قبله من المقسوم علیه، فلعلّ المقصود ترکیب الجملتین، وفق هذا المبنی.

المبحث السادس: الحلف الصادق والکاذب

هل یشترط فی ترتیب آثار الجدال أن یکون الحلف (مطلقاً أو المخصوص بالصیغتین) کاذباً أم یشمل الحلف الصادق أیضاً؟

ذهب بعضهم إلی الشمول (۲)، وبعضهم إلی الاختصاص.

ظاهر بعض النصوص الشمول لصورتی الکذب والصدق غایته التفریق بینهما فی الکفارة، مثل خبر أبی بصیر وابن عمار وأبان بن عثمان عن أحدهما (الروایة الثامنة والتاسعة والعاشرة)، بل فی صحیحة محمّد بن مسلم (الروایة الحادیة عشرة) ثبوت الکفارة علی المجادل صادقاً أیضاً، غایته أنّ کفارة الکاذب بقرة، فیما کفّارة الصادق شاة، الّا إذا قیل بعدم الملازمة بین الکفارة والحرمة.

نعم، فی صحیحة یونس بن یعقوب (الروایة الثانیة عشرة) ورد أنّه لیس علی من جادل صادقاً شیء، إلّاأنّ الظاهر منها أنّها فی مقام الحدیث عن الکفارة، لا عن أصل الجدال.

من هنا، فالظاهر شمول الحکم للصادق والکاذب، بل هو مقتضی إطلاق بقیة

۱- النجفی، جواهر الکلام ۱۸: ۳۶۳.

۲- الصدوق، المقنع: ۳۲۲؛ وابن سعید الحلّی، الجامع للشرائع: ۱۸۴؛ والگلپایگانی، تقریرات الحج ۱: ۱۹۶.

ص: ۸۲

النصوص سیما التی فی مقام البیان من هـذه الجهات، کما أنّ مقتضـی القول بأنّ المراد بالجدال مطلق المخاصـمة لا فرق بین الصدق والکذب، حیث یستفاد من اللغة ومن إطلاق الآیة ذلک أیضاً.

لکن علی القول بخصوصیة الصیغة، قد یمکن تخصیص الحکم بالکاذب لوجوه:

أوّلًا: التمسک بأصالة البراءة فی الصادق.

وجوابه واضح، فإنّه بعد وجود الدلیل المحرز لا مجال للأخذ بالأصل العملی (۱).

ثانیاً: التمسک بقاعدتی نفی الحرج والضرر.

وهـذا واضـح الدفع، إذ لا یحرز وجود حرج نوعی فی هذا المجال، فی مدّة بسـیطة هی فترة الإحرام، کیف وسائر المحرمات الإحرامیة یلزم منها ذلک إذا قیل به هنا، وخروج حالة الحرج والضـرر الشخصـی لاتسـتلزم تغییر الحکم أساساً، کما هی الحال فی سائر الأحکام الشرعیة.

فالصحیح الشمول للصادق والکاذب مطلقاً.

المبحث السابع: إختصاص الحکم بوجود مخاطَب وعدمه

هل قول: لا واللّه، وبلی واللّه من غیر أن یوجّه إلی أحـد محقّق للجـدال المحرم فی الحـج أم لا بدّ من فرض حوار أو حدیث جری فیه التلفظ بالکلمة المذکورة؟

صریح بعض الکلمات الاختصاص بمخاطبة الغیر (۲).

أ- أمّا علی الاحتمال الأوّل من الاحتمالات الخمسـة المتقدّمـة، وهو حصـر الجدال بهذه الصـیغة دون علاقة للخصومة، فإن ظاهر جملة من الروایات المحدّدة لمفهوم الجدال علی هذا المبنی، الإطلاق من هذه الجهة، کصحیحة معاویة بن عمار،

۱- الشاهرودی، کتاب الحج ۳: ۱۸۷.

۲- راجع: العلّامة الحلّی، تحریر الأحکام الشرعیّة ۲: ۳۵؛ وتذکرة الفقهاء ۷: ۳۹۳.

ص: ۸۳

وصحيحة على بن جعفر وغيرهما، حيث لم تقيّد بوجود حوار بين طرفين.

إلّا أنّ مقتضى الجمع والضمّ للنصوص ظهورها فى أنّ هذه الجملة قد قيلت لطرفٍ آخر لا بين الإنسان ونفسه، فإنّ مناسبات الحكم والموضوع، وطبيعة مثل هاتين اللفظتين هو كونهما فى سياق حوار لا مطلقاً، ومجرّد السكوت عن هذه المسألة وعدم ذكر قيد لا يدلّ على انعقاد إطلاق، ما دامت هذه القضيّة بنفسها تصرف الذهن إلى صورة حوار أو كلام بين طرفين، ولا أقلّ من عدم الظهور فى غير ذلك.

والغريب ما ذهب إليه بعضهم من أخذ الخصومة فى الجدال، ثمّ القول: إنّ مطلقات النصوص لا تستدعى كونه موجهاً إلى أحد، مستدركاً ذلك بفرضية الانصراف (۱)، مع أنّه كيف يتحقّق مصداق الخصومة ثمّ يكون الحلف غير موجّه إلى أحد، إلّاعلى افتراض عقلى غير عرفى أبداً.

ب- وأما على الاحتمال الثانى، وهو صيرورة الجدال ذا فردين: أحدهما واقعى هو النزاع والآخر تعبّدى هو الحلف، فيرجع فيه الكلام إلى ما تقدّم فى الاحتمال الأوّل؛ لوحدة المورد والمناط.

ج- وأمّا على الاحتمال الثالث، وهو كون هاتين الصيغتين تعبيراً عن اشتداد الخصام، أو الاحتمال الرابع وهو كونهما كناية عن أبسط أنواع الجدال والخصام، أو الاحتمال الخامس وهو الخصومة المرفقة باليمين، فمن الواضح اشتراط صدق الجدال بوجود طرف ثانٍ، لأخذ الخصومة فى هذه الاحتمالات الثلاثة جميعها.

د- وأمّا على القول بالمفهوم اللغوى البحت فالأمر واضح جدّاً، إذ يتقوّم هذا التفسير للجدال المحرم بوجود طرفٍ ثانٍ كما صار واضحاً.

فالأقرب اشتراط توجه الخطاب والجدال إلى طرف ثانٍ على تمام المبانى فى المسألة.

۱- الشاهرودى، كتاب الحج ۳: ۱۸۲، ۱۸۶.

ص: ۸۴

المبحث الثامن: اشتراط المعصیة فی الجدال المحرّم وعدمه

هل یشترط فی تحقّق الجدال المحرّم کونه وقع فی معصیة أم مطلقاً؟

ظاهر النصوص والآیة علی تمام التفاسیر المحتملة هو الشمول لصورة المعصیة وعدمها؛ إذ هی مطلقة غیر مقیّدة بقید رغم تعدّدها.

نعم، ورد فی خبر زید الشحام (الروایة الرابعة) تفسیر الجدال بالصیغتین وبسباب الرجل للرجل، ممّا یعنی أنّ أحد فردیه معصیة حیث یُبنی علی حرمة السباب، لکن هذه الروایة لا تقیّد الشکل الأوّل للجدال وهو الصیغتین- مهما فسّرناهما- بصورة المعصیة، کما هو واضح، فیبقی التمسک بالإطلاق ساریاً، ونحو هذا الخبر- بل أخف منه دلالةً- خبر إبراهیم بن عبدالحمید (الروایة الثالثة عشرة)، مع أنّ هذین الخبرین ضعیفا السند، کما مرّ.

والمقیّد الوحید فی المقام هو صحیحة أبی‌بصیر (الروایة السابعة) حیث حصرت- بصیغة الحصر (إنّما)- مسألة الجدال بما إذا کان للّهفیه معصیة، أمّا غیره کصورة إکرام الأخ فیجوز.

وقد ذهب بعض الفقهاء (۱) إلی إخراج بعض أنواع الجدال بطریقة أخری، حاصلها أنّ الجدال المحرّم یخرج عنه موردان:

المورد الأوّل: أن یکون لإثبات حقّ أو إبطال باطل أو لحفظ النفس أو حفظ المؤمن، ویلوح منه أن مدرک هذا الاستثناء هو الضرورة، ومن ثمّ فلا ینبغی إفراده هنا بهذه الطریقة بل ینبغی القول- کما فی أیّ حکم شرعی آخر-: إنّ هذا الحکم ساری المفعول إلّاإذا طرأ عنوان ثانوی حاکم مثل الضرورة، أو الحرج، أو الضرر، أو نحو ذلک، فلا خصوصیّة لإحقاق الحقّ و...

۱- الفیاض، تعالیق مبسوطة ۱۰: ۲۲۲؛ والشاهرودی، کتاب الحج ۳: ۱۸۸؛ وانظر: مدارک الأحکام ۷: ۳۴۲؛ والشهید الأوّل، الدروس الشرعیّة ۱: ۳۸۷؛ والشهید الثانی، الروضة البهیّة ۲: ۲۴۰؛ ومسالک الأفهام ۲: ۲۵۸؛ والبهائی، جامع عباسی: ۱۱۷؛ والفاضل الهندی، کشف اللثام ۵: ۳۷۱؛ والبحرانی، الحدائق الناضرة ۱۵: ۴۶۹؛ والطباطبائی، ریاض المسائل ۶: ۳۱۴؛ والنراقی، مستند الشیعة ۱۱: ۳۸۶.

ص: ۸۵

وقد استدلّ بعض الفقهاء علی إخراج صورة الجدال لإحقاق الحقّ فی القضایا العقائدیّة ونحوها ممّا یرجع إلی الدین، لا القضایا الشخصیة و.. بانصراف الأدلّة عن مثل ذلک (۱).

إلّا أنّه لم یظهر الوجه فی هذا الانصراف ما دامت النصوص مطلقة فی حدّ نفسها، ولا شاهد علی إخراج الجدال فی قضایا الدین، ولم نفهم مبرّر الانصراف، ولیس هناک کثرة استعمال أو کثرة وجود و...، فالصحیح إطلاق النصوص الشامل لمطلق الجدال فی الدین وغیره، سواء فسّرناه بالمعنی اللغوی أو غیره.

المورد الثانی: أن یکون الحلف لإکرام المؤمن واحترامه وتعظیمه.

والمدرک الذی ذکر هنا لهذا الاستثناء هو:

أ- صحیحة أبی‌بصیر (الروایة السابعة)، حیث جاء فیها: إنّما أراد بهذا إکرام أخیه، وهذا ما یستفاد منه أنّ إکرام الأخ یجوز فی مورده الحلف.

والأصحّ فی التعامل مع صحیحة أبی‌بصیر عدم الاقتصار علی إکرام الأخ، ذلک أنّ الروایة إنّما ذکرت ذلک بمناسبة طبیعة سؤال السائل، وإلّا فهی صرّحت فی خاتمتها بحصر الحکم بالحرمة بما کان للّهفیه معصیة، ممّا یعنی أنّ الحلف الذی لا یقع فی سیاق معصیة جائز، ولا یکون مشمولًا لحکم الحلف أو الجدال فی الحج، فلا ینبغی الاقتصار فی الاستثناء.

وقد حاول بعض الفقهاء تفسیر المعصیة هنا بالجدال نفسه أی‌الصیغتین بشروطهما، لا وقوع الجدال فی سیاق معصیة کالکذب والغیبة ونحوهما (۲)، لکنّه غیر واضح، فإن الظاهر أنّ الحدیث عن وقوع الکلام فی سیاق الإکرام الذی قابلته الروایة بسیاق المعصیة، لا أنّ هذه العبارة هی معصیة وتلک إکرام کما هو واضح.

ب- اقتران مفهوم الخصومة بالجدال الشرعی، فإذا بُنی علی هذا الاقتران، لم

۱- اللنکرانی، تفصیل الشریعة ۳: ۱۳۱- ۱۳۲.

۲- اللنکرانی، تفصیل الشریعة ۴: ۱۳۲.

ص: ۸۶

یعد یمکن شمول الحکم لغیر مورد الخصومة (۱).

وهـذا المـدرک یختلف فی طبیعته عن غیره، فإن نتیجته- لو بقی لوحـده- اسـتثناء ما لم یکن فیه خصومـة سواء کان فیه معصـیة أم لم یکن، علی خلاف النتیجة التی خرجنا بها من صـحیحة أبیبصیر، حیث صار الاستثناء لکلّ ما لیس فیه معصیة سواء کانت فیه الخصومة أم لم تکن؛ فالنسبة بین النتیجتین هی العموم والخصوص من وجه.

من هنا، فمن تمسّک بهما معاً فی مسألـة الإکرام- کالسـیّد الشاهرودی- یلزمه أخـذ القدر المتیقّن الجامع بینهما، وهو الجدال بالصـیغة مع خصومـةٍ فی غیر معصـیة، وهـذا هو الصـحیح بناءً علی ما ذکرناه سابقاً، نعم، لو بنینا علی محض المعنی اللغوی للجدال، کان حراماً فی غیر معصیة، سواء حصلت الصیغة الخاصّة أم لا، أمّا الخصومة فتدخل فی المعنی اللغوی حینئذٍ.

المبحث التاسع: الاکتفاء بإحدی الصیغتین

هل یتوقّف تحقّق الجدال علی التلفظ بالصیغتین معاً أم تکفی واحدة منهما؟

قد یلتزم بکفایة إحدی الصیغتین- کما ذهب إلیه مثل النجفی والمدارک وکشف اللثام (۲) و...- وذلک لوجوه:

الأوّل: ذهب بعض الفقهاء إلی أنّ الظاهر من الروایات کفایة تحقّق إحدی الصـیغتین، سیّما وأنّه لا إشارة فی أیروایة إلی عدم تحقّقه بواحدة من الصیغتین،

۱- الشاهرودی، کتاب الحج ۳: ۱۸۶.

۲- انظر: الخوئی، المعتمـد ۴: ۱۶۷؛ والنجفی، جواهر الکلام ۱۸: ۳۶۴؛ والعاملی، مـدارک الأحکام ۷: ۳۴۲؛ والعلّامـة الحلّی، تحریر الأحکام الشـرعیة ۲ : ۶۹؛ وتـذکرة الفقهـاء ۸: ۲۷؛ والأـردبیلی، مجمع الفائـدة والبرهـان ۶: ۲۹۶؛ والسـبزواری، ذخیرة المعـاد: ۵۹۳؛ والجزائری، التحفة السـنیة: ۱۸۲؛ والبحرانی، الحدائق الناضـرة ۱۵: ۴۶۲- ۴۶۳؛ والخوانساری، جامع المـدارک ۲: ۴۰۶؛ والگلپایگانی، تقریرات الحج ۱: ۱۹۵- ۱۹۶؛ والنراقی، مستند الشیعة ۱۱: ۳۸۷.

ص: ۸۷

فیتمسّک بهذا الظهور (الإطلاقی) لإثبات الحرمة لهما (۱).

إلّا أنّ هذا الکلام غیر واضح علی مسلک من یری التوقّف والتعبدیّة بالصیغتین، إذ مع ضمّهما إلی بعضهما فی أکثر من روایة کیف یمکن التأکّد من کفایة واحدةٍ منهما، نعم علی مسلک من یری الجدال مطلق المخاصمة أو ما شابه ذلک مثل تعمیمه إلی مطلق الیمین لاضیر علیه فی الالتزام بذلک؛ لا لأنّ الروایات ظاهرة فی التفکیک بل لعدم البناء علی التعبّدیة والتوقّف فیما جاء فی ألسنتها.

الثانی: إنّ التأمّل فی الصیغتین کفیلٌ لوحده فی الجزم بعدم أخذهما معاً، فإن المتکلّم لا یتلفظ بهما، إذ أخذهما معاً أخذ للمتناقضین، «فبلی واللّه» جملة مثبتة موجبة، فیما «لا واللّه» جملة نافیة، ولا یمکن للإنسان الحلف لإثبات شیء ونفیه معاً، وهذا خیر دلیل علی أنّ الصیغتین مأخوذتان علی نحو الانفصال لا الاتصال (۲).

وهذا کلام وجیه ودقیق، إلّاإذا قیل بأنّ النفی یتوجّه لما قاله الخصم والإثبات لما قاله هو نفسه (۳)، وهو غیر ظاهر عرفاً.

الثالث: إنّ الروایات المفصِّلة بین الحلف الصادق والکاذب یستفاد منها أنّ موضوع الحکم هو الحلف، ولو بصیغةٍ خاصة، ولا شک فی أنّ الحلف یصدق علی کلّ منهما حتّی لو لم ینضمّ إلیه الآخر، فیکفی أحدهما (۴).

إلّا أنّ هذا الوجه قابلٌ للمناقشة؛ فإن أخذ الحلف موضوعاً للحکم، ولو بصیغةٍ خاصة، یستبطن احتمال کون هذه الصیغة هی مجموع الجملتین، فکیف تمّ

۱- الفیاض، تعالیق مبسوطة ۱۰: ۲۲۳؛ والخوانساری، جامع المدارک ۲: ۴۰۶.

۲- الشاهرودی، کتاب الحج ۳: ۱۸۷؛ والخوئی، المعتمد ۴: ۱۶۷؛ والفیاض، تعالیق مبسوطة ۱۰: ۲۲۳؛ والبحرانی، الحدائق الناضرة ۱۵: ۴۶۳؛ والنراقی، مستند الشیعة ۱۱: ۳۸۷.

۳- الگلپایگانی، تقریرات الحج ۱: ۱۹۶.

۴- الخوئی، المعتمد ۴: ۱۶۷.

ص: ۸۸

القفز من هذاالاستبطان إلی الاکتفاء بإحداهما؟! وکیف عرفنا أنّ الصیغة الخاصّة لیست مجموع العبارتین وإنّما إحداهما؟!

المبحث العاشر: إختصاص الحکم بالجملة الخبریة أو الشمول للإنشائیة

هل یختصّ الحکم بالجملة الخبریّة أو یعم الجملة الإنشائیّة؟

ذکر السید الخوئی أنّه لم یرَ من تعرّض لهذا الموضوع قبله، ذاهباً إلی أنّ الظاهر من الروایات عدم شمول الحکم للحلف فی الجملة الإنشائیّة، والوجه فی هذا الأمر أنّ مثل صحیحة معاویة فصّلت بین الصادق من الجدال والکاذب، ومعنی ذلک أنّ الحلف الممنوع یجری فی حالةٍ یصدق فیها عنوانا: الصدق والکذب، وبما أنّ مفهومی الصدق والکذب من شؤون الجملة الخبریة لا الإنشائیّة، نستفید من ذلک اختصاص الحکم بمورد الإخبار دون غیره.

وبهذا السبیل فسّر السیّد الخوئی معتبرة أبیبصیر الواردة فی إکرام الأخ، إذ فهم منه مجرّد وعدٍ للمؤمن، فلا تکون فیه معصیة.

وعبر ذلک، ذهب المحقّق الخوئی إلی عدم شمول الحکم للحلف الوارد فی التعارفات الدارجة بین الناس؛ لعدم صدق الإخبار علیها، وبهذا یکون إخراجها علی نحو التخصّص لا التخصیص (۱).

وقد تابع السیّد الخوئی فی أصل فکرته هنا بعض تلامذته (۲).

ویعلّق علی هذا الکلام:

أوّلًا: إنّ الروایات- غیر معتبرة أبیبصیر الواردة فی إکرام الأخ- تتحدّث عن تحقّق الجدال والکفارة فی مورد الصدق والکذب، لکنّها لا تنفی الجدال فی موردٍ لا یکون فیه صدقٌ وکذب، ومبرّر الترکیز علی حالتی الصدق والکذب موجود، وهو أنّ الجدال بالمعنی اللغوی- وکذا بالمعنی الشرعی الخاصّ الذی اختاره بعض

۱- الخوئی، المعتمد ۴: ۱۶۶- ۱۶۷.

۲- الفیاض، تعالیق مبسوطة ۱۰: ۲۲۲.

ص: ۸۹

الفقهاء- یقع فی الأغلبیة الساحقة من مصادیقه فی سیاق الإخبار لا الإنشاء، فإنّ سیاقات الإنشاء قلیلة جدّاً نسبةً للإخبارات فی هذا المجال، لذا کان من الطبیعی أن یترکّز الحدیث علیها، دون نفی لغیرها، وسیأتی تعلیق ختامی.

ثانیاً: إنّ معتبرة أبی‌بصیر بیّنت أنّ العلّة فی سقوط الحکم هو الإکرام، وهذا کما یحتمل أن یکون بملاک کون الإکرام منفصلًا عن الإخبار، کذا یمکن أن یکون بنفسه ملاکاً بقطع النظر عن مسألة الخبریة والإنشائیة، فلو فرضنا أنّ الحکم شامل لصورتی: الإخبار والإنشاء، لکن مسألة الإکرام أو عدم المعصیة دخیلة فی سقوط الحکم لکان یصحّ هذا القول الموجود فی صحیحة أبی‌بصیر، إذاً فلا تمثل الصحیحة دلیلًا لصالح مسألة الإخبار والإنشاء، سیّما وأنّ المأخوذ فی لسانها مسألة المعصیة والإکرام، فإدّعاء الاستطراق منهما إلی غیرهما مع کونهما ممّا من شأنهما دوران الحکم مدارهما یحتاج إلی قرینة إضافیة، وهی غیر موجودة.

فالصحیح أنّ الحکم شاملٌ لصورتی الإخبار والإنشاء، إلّاأنّه إذا بنینا علی المعنی اللغوی للکلمة طبقاً لنصّ الکتاب العزیز یمکن أن یدّعی أنّ کلمة الجدال التی تستبطن الخصومة یفهم منها عرفاً صورة الخلاف علی قضیة، ممّا یغلب جدّاً فیه حالة الإخبار، بحیث یلحق غیره بالعدم لشدّة ندرته، فلا یبعد حینئذٍ تخصیص الحکم بذلک، تبعاً لما تنصرف إلیه الکلمة بین الناس.

ص: ۹۰

هـذا تمام الکلام فی مباحث فقه الجـدال فی الحج، أمّا الکفّارة فتدرس فی مباحث کفّارات تروک الإحرام علی حدة، فلا نتعّرض لها هنا، ویجب أن یعرف نهایـةً أنّ الجـدال کما فسّرناه بمعنی النزاع والخصومة لا یشـمل الحوار والحوارات العلمیّة والفکریّة و... الهادئة حتّی لو لم نأخذ الصـیغتین بعین الاعتبار، فلا ینبغی الخلط بین مفهوم الجدال فی اللغة العربیة وبین مفهوم الحوار الهادئ الذی یضارعه فی المصطلح القرآنی الجدال بالتی هی أحسن من بعض الوجوه.

وطبقـاً لمجمـل مـا توصّـلنا إلیـه، نجـد أن القرآن الکریم طلب فی الحـج تجنّب تمـام الصـراعات والمجادلات والمنازعـات الصـاخبة بمختلف أشـکالها سواء جاء معها حلف أم لا، علی بعض المبانی، وسواء جاءت الصیغة الخاصّة أم لا، علی مبانی أخری؛ فالحجّ مظهر التآلف والتوادد وترک الخصومات والمنازعات.

هذا ما فهمناه من هذا البحث، واللَّه العالم بحقیقة أحکامه.

ص: ۹۱

حکایات من مکّهٔ المکرّمهٔ

الشیخ رضا أستادی

قـد وفّقت فی المدینـهٔ المنوّرهٔ لمطالعهٔ قسم من کتاب «إتحاف الوری بأخبار امّ القری»، لمحمّد بن محمّد بن محمّد بن فهد القرشـی الهاشـمی المکّی المشتهر بعمر بن فهد (۸۸۵– ۹۱۲ ه) المطبوع بمصـر فی خمسـهٔ مجلدات فی سـنهٔ (۱۴۰۵ ه) واختیـار بعض الحکایات والوقائع البدیعهٔ منه، وإلیک مااخترناه بترتیب السنین الهجریّهٔ القمریّهٔ. قال:

مقام إبراهیم:

سنهٔ ۱۷– فیها جاء سـیل عظیم فـدخل المسـجد الحرام، واقتلع مقام إبراهیم وذهب به من موضـعه حتّی وجد بأسـفل مکّهٔ وعفّی مکانه الـذی کان فیه عفّاه السـیل، فأتی به فربط بلصق الکعبهٔ بأسـتارها فی وجهها... فدخل عمر بعمرهٔ فی شـهر رمضان، فقال: انشد اللّه عبداً عنـده علم فی هذا المقام، فقال المطلّب بن أبی وداعهٔ السـهمی: أنا یا أمیر المؤمنین عندی ذلک، فقد کنت أخشـی علیه هذا، فأخذت قدره من موضعه إلی الرکن ومن موضعه إلی باب الحجر ومن موضعه إلی

ص: ۹۲

زمزم بمقاط وهو عندی فی البیت... فأتی بها فمدّها فوجدها مستویة إلی موضعه هذا الیوم وذلک کان فی سنة ثمان عشرة.

وفیها وسّع عمر بن الخطّاب المسجد بدور اشتراها، وهدم علی من أبی البیع، وترک ثمنها لأربابها فی خزانة الکعبة حتّی أخذوها بعد.

توسعة المسجدالحرام:

سنة ۲۶- فیها اعتمر عثمان، وأمر بتوسیع المسجد الحرام، فوسّع بدور اشتراها ودور هدمها علی من أبی البیع وترک ثمنها لأربابها فی خزانة الکعبة، وأمر بهم فحبسوا وقال: قد فعل ذا بکم عمر فلم تصیحوا به، فکلّمه عبد اللّه بن خالد بن أسید فأطلقهم.

أوّل من خطب...:

سنة ۴۴- فیها قدم من الشام منبر صغیر علی ثلاث درجات، فخطب علیه معاویة، وهو أوّل من خطب بمکّة علی منبر، وکانت الخلفاء والولاة یخطبون یوم الجمعة علی أرجلهم قیاماً فی وجه الکعبة وفی الحجر.

سیل عظیم:

سنة ۸۰- أتی سیل عظیم کان یحمل الإبل علیها الأحمال والرجال والنساء مالأحد فیه حیلة ودخل المسجد الحرام وأحاط بالکعبة، وبلغ الرکن، وخرّب دوراً کثیرة شارعة علی الوادی، وقتل الهدم ناساً کثیراً، ورقی الناس الجبال واعتصموا بها...

وفی سنة ۸۴ و ۱۸۴:

وفی سنة ۸۴ وأیضاً ۱۸۴- وقع سیل عظیم دخل المسجد الحرام وأحاط بالکعبة، وأصاب الناس عقبه مرض شدید فی أجسامهم وألسنتهم، أصابهم منه

ص: ۹۳

مثل الخبل...

تفریق الرجال والنساء فی الطواف

سنة ۹۳- کان الرجال والنساء یطوفون معاً مختلطین، حتّی ولّی خالد بن عبداللّه القسری بمکّة، ففرّق بین الرجال والنساء فی الطواف، فأجلس عند کلّ رکن حرساً معهم السیاط، فیفرّقون بین الرجال والنساء، وهو أوّل من فرّق بینهما.

لعن اللّه السیاسة الکاذبة

وکان خالد فی إمرته علی مکّة فی زمن الولید بن عبد الملک یذکر الحجّاج (لأنّه کان سبباً لإمرته علی مکّة) فی خطبة فی کلّ جمعة إذا خطب ویقرّظه، فلما توفّی الولید وبویع لسلیمان بن عبد الملک أقرّ خالداً علی مکّة، وکتب إلی عمّاله فأمرهم بلعن الحجّاج بن یوسف، فلمّا أتاه الکتاب قال: کیف أصنع؟ کیف اکذّب نفسی فی هذه الجمعة بذمّه وقد مدحته فی الجمعة التی قبلها؟ ما أدری کیف أصنع؟

فلمّا کان یوم الجمعة خطب الناس ثم قال فی خطبته:

أمّا بعد أیّها الناس إنّ إبلیس کان من ملائکة اللّه فی السماء وکانت الملائکة تری له فضلًا بمایظهر من طاعة اللّه وعبادته، وکاناللّه عزوجل قداطلع علی سریرته، فلما أراد أن یهتکه أمره بالسجود لآدم علیه السلام فامتنع فلعنه، وإنّ الحجّاج بن یوسف کان یظهر من طاعة الخلفاء ما کنّا نری له فی ذلک فضلًا وکنا نزکّیه وکان اللّه قد أطلع سلیمان أمیر المؤمنین من سریرته وخبث مذهبه علی ما لم یطلعنا علیه، فلمّا أراد اللّه تبارک وتعالی هتک ستر الحجّاج أمرنا أمیر المؤمنین سلیمان بلعنه فالعنوه لعنه اللّه.

اشتراء الدور التی کانت فی المسجد والمسعی

سنة ۱۶۱- فیها اشتری قاضی مکّة بأمر من المهدیّ (العبّاسی) جمیع ما کان فی المسجد والمسعی من الدور، فما کان منها صدقة عزل ثمنه واشتری هو لأهل

ص: ۹۴

الصدقـة بثمن دورهم مساكن فی فجاج مكـة عوضاً من صـدقاتهم، فاشتری كلّ ذراع فی ذراع مكسـراً مما دخل فی المسـجد بخمسـة وعشرین دیناراً، وما فضل من الوادی بخمسة عشر دیناراً....

شهید الفخ

سنة ۱۶۹- فیها قتل الحسـین بن علیّ بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن علیّ ابن أبی طالب الحسنی یوم التروية فی أزید من مائة نفر من أصحابه...

آخر حجّ الخلفاء

سنة ۱۸۸- فیها حـجّ بالناس هارون الرشـید، وهی آخر حجّة حجّها فی قول بعضـهم، وآخر حجّة حجّها خلیفة والی وقتنا هذا. (القرن التاسع).

سیل والمقام والركن

سنة ۲۰۸- فیها فی شوّال جاء سـیل عظیم والناس غافلون... وأحـدق بالكعبة وبلغ الحجر الأسود والباب، وذهب بناس كثیر وهدم دوراً كثیرة مشرفة علی الوادی، أكثر من ألف دار، ومات نحو ألف إنسان، ورفع المقام من موضعه خوفاً علیه من ذهابه...

سنة ۲۴۰- قال محمّد بن جریر الطبری فی سـنة ثلاثمائة: كنت فی مكّة سنة أربعین ومائتین (وهو شابّ) فرأیت خراسانیّاً ینادی: معاشر الحـاجّ من وجـد همیانـاً فیه ألف دینار فردّه علیّ أضـعف اللّه له الثواب، فقام إلیه شـیخ من أهل مكّة كبیر من موالی جعفر بن محمّد (من الشـیعة ظ) فقال: یا خراسانی! بلـدنا فقیر أهله، شدیـد حاله، أیّامه معـدودة ومواسـمه منتظرة، لعلّه یقع بیـد رجل مؤمن یرغب فیما تبـذله له حلالًا یأخـذه ویردّه علیك. قال الخراسانی: بابا (كلمة فارسـیة ظ) وكم یرید؟ قال: العشـر مائة دینار فقال: لا بابا ولكن نحیله علی اللّه عزّوجلّ قال وافترقا.

ص: ۹۵

قـال محمّـد بن جرير: فوقع لي أ نّ الشيخ صاحب القريحة هو الواجد للهميان فاتبعته- وكان كما ظننت- ونزل إلى دار خلقة الباب والمدخل، فسمعته يقول:

يالبابة! قالت له: لبّيك يا أبا غياث قال: وجدت صاحب الهميان ينادى عليه مطلقاً فقلت له: قيّده بأن يجعل لواجده العشر فقال: لا واللَّه ولكنّا نحيله على اللَّه فأىّ شيء نعمل؟ ولابدّ لى من ردّه فقالت له لبابة: نقاسى الفقر معك منذ خمسين سنة ولك أربع بنات واختان وأنا وأمّى وأنت تاسع القوم أشبعنا واكسنا ولعلّ اللَّه يغنيك فتعطيه أو يكافئه عنك ويقضيه. فقال لها: لست أفعل ولا احرق حشاشتى بعد ستّ وثمانين سنة بالنار.

فلمّا كان من الغد على ساعات من نهار، سمعت الخراسانى يقول: معاشر الحاجّ ووفد اللَّه من الحاضر والباد! من وجد همياناً فيه ألف دينار وردّه أضعف اللَّه له الثواب، فقام إليه الشيخ فقال له: يا خراسانى! قد قلت لك بالأمس ونصحتك وبلدنا واللَّه بلد فقير قليل الزرع والضرع، وقد قلت لك أن تدفع إلى واجده مائة دينار فلعلّه أن يقع بيد من يخاف اللَّه فقلت: لا فالآن أقول لك: هل تدفع لواجده عشرة دينار فيردّه عليك ويكون له فى العشرة دنانير ستر وصيانة؟ فقال الخراسانى: بابا لا نفعل، ولكن نحيله على اللَّه عزّوجلّ ثمّ افترقا.

قال محمد بن جرير الطبرى فلمّا كان من الغد سمعت الخراسانى ينادى ذلك النداء بعينه فقام إليه الشيخ فقال له: يا خراسانى! قلت لك أوّل أمس العشر منه وقلت لك أمس عشر عشره فاعطه الآن ديناراً عشر عشر العشر...

قال: بابا لاـ نفعل، ولكن نحيله على اللَّه. قال فجذبه الشيخ وقال له: تعالِ إلى دارى خذ هميانك ودعنى أنام الليل وأرحنا من محاسبتك وظلمك، فمشى الشيخ وتبعه الخراسانى فتبعتهما فدخل الشيخ وقال: ادخل يا خراسانى، فدخل ودخلت، فلمّا أخذ الهميان وأراد الخروج من دار الشيخ فلمّا بلغ باب الدار تأمّل أمر الشيخ الخراسانى فرجع وقال له: يا شيخ مات أبى رحمه اللَّه وترك ثلاثة آلاف دينار وقال

ص: ۹۶

لی: اخرج ثلثها ففرّقه علی من هو أحقّ الناس عندک وتبیع رحلی واجعله نفقة لحجّک ففعلت ذلک، وأخرجت ثلثها ألف دینار وشددتها فی هذا الهمیان، وما رأیت منذ خرجت من خراسان إلی هاهنا رجلًا أحقّ به منک، فخذه بارک اللَّه لک فیه ثم ولّی وترکه...

سنة ۲۵۳- جاء سیل إلی مکّة المشرّفة وأحاط بالکعبة وبلغ قریباً من الرکن الأسود ورمی بالدور بأسفل مکّة وذهب بأمتعة الناس وخرب منازلهم...

ترک الحجّ للخوف من الظالم

سنة ۳۱۲- لم یحجّ فی هذه السنة أحد..

سنة ۳۱۳- لم یحجّ أحد فی هذه السنة، خوفاً من القرمطی...

سنة ۳۱۵- فیها لم یحجّ أحد من العراق ولا من خراسان، للخوف من القرمطی.

سنة ۳۱۶- فیها لم یحجّ أحد من العراق؛ للخوف من القرمطی...

سنة ۳۲۳- فیها بطل الحجّ من بغداد؛ لاعتراض القرمطی لهم فی الطریق فیما بین القادسیّة والکوفة واستیلائه علی أمتعة الناس وأحمالهم...

أخذ المکس (باج) لسفر الحجّ

سنة ۳۲۷- کان الحجّ قد بطل من سنة ۳۱۷ إلی هذه السنة، فکاتب أبو علیّ عمر بن یحیی العلویّ الفاطمی من العراق أبا طاهر القرمطی، وکان یحبّه لشجاعته وکرمه أن یخلّی سبیل الحاجّ علی مکسٍ یأخذه ویعطیه علی کلّ جمل خمسة دنانیر وعن المحمل سبعة دنانیر، فأجابه إلی ذلک فخرج من العراق فرقتان: إحداهما علی طریق الکوفة، والاخری علی طریق البصرة، وأخذ أبو طاهر منهم من کلّ محمل عشرین دیناراً، ومن کلّ جمل خمسة دنانیر، ومن کلّ راحلة عشرین درهماً، وهی أوّل سنة مکس الحاجّ فیها، ولم یعهد ذلک فی الإسلام فنفذ الحاجّ ولیس

ص: ۹۷

معهم أحد من أصحاب السلطان إلّا رجل علویّ من أهل الکوفة، وهو أبو علیّ عمر بن یحیی بن الحسین بن زید بن علیّ بن الحسین بن علیّ بن أبی طالب بکتاب القرمطی إلیه وذمامه، وکان أمیر القافلة یسیرون بسیره وینزلون بنزوله إلی أن عادوا سالمین.

وکان خرج فی هذه السنة مع الرکب القاضی أبو علیّ بن أبی هریرة الشافعی، فلمّا طولب بالخفارة- اسم مکان- لوّی رأس راحلته، ورجع، وقال: لم أرجع شحّاً علی الدراهم، ولکن سقط الحجّ بهذا المکس.

الحجر الأسود

سنة ۳۳۹- فیها أعاد القرمطی الحجر الأسود فی مکانه... وکانت مدة کینونته عند القرامطة اثنین وعشرین سنة إلّا أربعة أیام...

قصّة تخریب الرکن الأسود

سنة ۳۶۳- فیها بینما الناس فی وقت القیلولة وشدّة الحرّ وما یطوف إلّا رجل أو رجلان، فإذا رجل... دنا من الرکن الأسود ولا یعلم ما یرید (ومعه معول عظیم)، فأخذ المعول وضرب الرکن ضربة شدیدة، ثمّ رفع یدیه ثانیاً یرید ضربه، فابتدره رجل من أهل الیمن حین رآه وهو یطوف، فطعنه طعنة عظیمة بالخنجر، حتّی أسقطه، فأقبل الناس من نواحی المسجد فنظروه، فإذا هو رجل رومیّ جاء من أرض روم، وقد جعل له مال کثیر علی ذهاب الرکن، وکفی اللَّه شرّه، فاخرج من المسجد الحرام، فاحرق فی النار...

حجّ یضرب به المثل

سنة ۳۶۶- فیها حجّت جمیلة بنت الملک ناصر الدولة صاحب الموصل، وکانت حجّاً یضرب به المثل فی التجمّل وأفعال الخیر کان معها أربعمائة کجاوة، ولم یدر فی أیّها هی... وأفردت للرجالة والمنقطعین ثلاثمائة جمل- وقیل: خمسمائة-

ص: ۹۸

ونثرت على الكعبة حين شاهدتها أو دخلتها عشرة آلاف دينار من ضرب أبيها وما يناب هـذا، واعتقت ثلاثمائة عبد وثلاثمائة أمة... وأعطت المجاورين عشرين ألف دينار... وخلفت على طبقات الناس خمسين ألف ثوب.

نحر رجلين من الأفرنج

سنة ۵۷۸- فيها نحر بمنى- كما تنحر البدن- رجلان من الإفرنج، وهما من الإفرنج الذين توجّهوا إلى المدينة المنورة.

مزار شهيد الفخّ

سنة ۶۰۵- فيها عمّر السيّد قتادة بن إدريس المشهد الذى به قبر الحسين بن علىّ بن الحسن الحسنى صاحب وقعة فخّ، ظاهر مكّة بطريق العمرة.

ص: ۹۹

کان أبو فراس الحلّی ابن أخی الشیخ ورّام أمیر الحاج

۶۰۷- فیها حجّ بالناس محمّد ولد الأمیر مجاهد الدین یاقوت، وکان أبوه قد ولّاه الخلیفة خوزستان وجعله هو أمیر الحاجّ، ومعه ابن أبی فراس الحلّی؛ لأنّه کان صبیّاً.

سنة ۶۱۰- فیها حجّ بالناس أبو فراس بن جعفرٍ بن أبی فراس الحلّی نیابةً عن أمیر الحاجّ ابن یاقوت.

سنة ۶۱۳- فیها حجّ بالناس حسام الدین أبو فراس بن جعفر بن أبی فراس، نیابةً عن محمد بن یاقوت خادم أمیر المؤمنین. (أی الخلیفة).

سنة ۶۱۸- فیها حجّ بالناس من العراق حسام الدین أبو فراس بن جعفر بن أبی فراس ولم یحجّ فیها أحد من بلاد الأعاجم ولا من همذان ولا إصفهان؛ لخوف الطرق من انتشار التتار الکفرة فی البلاد وما یلیها.

سنة ۶۱۰ و ۶۲۱- فیهما حجّ بالناس ابن أبی فراس.

موت جماعة من الحاجّ من الزحام فی المسعی

سنة ۶۱۹- فیها مات بالمسعی جماعة من الزحام؛ لکثرة الخلق، حجّوا فی هذه السنة من العراق والشام.

فرار أمیر الحاجّ

سنة ۶۲۲- فیها هرب أمیر الحاجّ العراقی حسام الدین أبو فراس الحلّی، وهو ابن أخی الشیخ ورّام، وکان عمّه من الصالحین الأخیار من أهل الحلّة السیفیّة، فارق الحاجّ من مکّة والمدینة وسار إلی مصر، وحمله علی ذلک الضائقة وکثرة الخرج فی الطریق وعدم الدخل، ولما فارق الحاجّ خافوا خوفاً شدیداً فأمّن اللّه تعالی خوفهم ولم یذعرهم ذاعر فی جمیع الطریق، ودخلوا آمنین إلّاأنّ کثیراً من الجمال هلکت وفنیت منهم، ولم یسلم منها إلّا قلیل.

ص: ۱۰۰

مولد جعفر

سنة ۶۲۳- فيها فی صفر عمّر بعض المجاورين مولد (جعفر) الصادق رضی اللَّه عنه.

مولد علی علیه السلام

سنة ۶۲۵- فيها عمّر الخليفة المستنصر العباسی... مولد سيّدنا علیّ بن أبی طالب.

ترک الحج من العراق

سنة ۶۳۴- فيها لم يحجّ العراقيون بسبب أ نّ التتار قصدوا بغداد، فجمع المستنصر العلماء فسألهم فی ترک الحج فأفتوه بذلک، وبطل الحج، وجمع مائة ألف فارس للمرابطة ببغداد إلی أن تمّ أمر اللَّه فی تفرقتهم.

سنة ۶۴۰- فيها حجّ الحاجّ العراقی بعد أن أقام سبع سنين لم يحجّ.

سنة ۶۵۰- فيها حجّ الناس من بغداد بعد عشر سنين بطل الحجّ فيها منذ مات المستنصر إلی هذه السنة (قاله سبط بن الجوزی فی مرآته).

سنة ۶۶۶- توجّه الحاجّ العراقيون من بغداد إلی مكة، وهی أوّل سنة حجّوا فيها بعد غلبة التتار علی بغداد فی سنة خمس وخمسين.

مولد الرسول صلی الله علیه و آله

سنة ۶۶۶- فيها عمّر المظفر مولد الرسول صلی الله علیه و آله.

ألف جنازة

سنة ۶۷۱- فيها كان بمكّة فناء عظيم.. وعدّ أهل مكّة ما بين العمرتين من أوّل الرجب إلی السابع والعشرين منه ألف جنازة.

ص: ۱۰۱

کثرة الحاجّ

سنة ۶۷۷- فیها کان الحاجّ المصری أربعین ألفاً، سوی الشامی والعراقی.

العروة الوثقی المصنوعة

سنة ۷۰۱- فیها أزیلت البدعة التی کانت بالکعبة الشریفة یقال لها: «العروة الوثقی»، وهی أ نّ بعض الفجرة المحتالین عمدوا إلی موضع عالٍ من جدار البیت المقابل لباب البیت، فسمّوه بالعروة الوثقی، وأوقعوا فی قلوب العامّة أ نّ من ناله بیده فقد استمسک بالعروة الوثقی، فأحوجوهم إلی أن یقاسوا فی الوصول إلیها شدّة، وعلی أن یرکب بعضهم فوق بعض، وربما صعد النساء فوق الرجال ولامسوا الرجال ولامسوهنّ، فلحقهم بذلک أنواع من الضرر- دنیاً ودین- وسبب ذلک أ نّ الصاحب زین الدین أحمد بن محمّد بن علیّ بن محمّد بن حِنّا (م ۷۰۴) قدم إلی مکة فی أثناء هذه السنة، فرأی هذه البدعة، فأمر بقلع ذلک المثال، وازیلت تلک البدعة، ولله المنّة.

حیّ علی خیر العمل

سنة ۷۰۲- فیها سُعِیَ عند الملک الناصر صاحب مصر بأ نّ بمکة المشرّفة جملة من البدع، منها الأذان بحیّ علی خیر العمل، ومنها إمام زیدیّ بالمسجد الحرام، ومنها بعض الفجرة جاؤوا إلی موضع عالٍ من جدار الکعبة المقابل لباب البیت فسمّوه بالعروة الوثقی وأوقعوا فی نفوس العامّة أن من ناله بیده فقد استمسک بالعروة الوثقی، فکتب صاحب مصر صحبة أمیر الرکب بأمر الأشراف امراء مکة ألّا یمکّنوا من الأذان بحیّ علی خیر العمل، ولا یتقدم فی الحرم إمام زیدیّ، وألّا یهبط الحاج حتی ینقضوا ما کان فی الکعبة ممّا سمّوه العروة الوثقی، ولا یمکن أحد من مسّ المسمار الذی فی الکعبة الذی یقال له: «سرّة الدنیا». وکان

ص: ۱۰۲

يحصل من التعلّق بالعروة ومن التسلّق إلى المسمار عدّة مفاسد قبيحة، فترك ذلك كله، وقد تقدم في السنة قبلها إزالة العروة.

إمام الزيديّة

وإمام الزيدية المشار إليه رجل شريف، كان يصلّى بالزيدية بين الركنين اليمانى وحجر الأسود فإذا (كان) صلّى صلاة الصبح دعا بدعاء مبتدع وجهر به صوته وهو: اللّهم صلّ على محمّد وعلى آل بيته المصطفين الأطهار المنتخبين الأخيار الذين أذهب اللَّه عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، اللّهم انصر الحقّ والمحقّين واخذل الباطل والمبطلين ببقاء ظلّ أمير المؤمنين ترجمان البيان وكاشف علوم القرآن الإمام محمّد بن المطهّر بن يحيى بن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله الذى بالدين أحيا إمام المتقين وحجاب الضالين، اللّهم انصره وشعشع أنواره واقتل حسّاده، واكبب أضداده- مع زيادات على هذا- وكان إذا صلّى صلاة المغرب دعا أيضاً بهذا الدعاء وجهر به صوته فى هاتين الصلاتين.

الاختلاف فى رؤية الهلال

سنة ۷۲۵- فيها وصل عسكر من مصر متوجّهاً إلى اليمن... وعند وصولهم خرج إمام الزيدية من مكّة وأقام بوادى مرّ، وما رجع إليها إلى وقت الحاجّ وعاد بعد الموسم إلى ما كان يفعله.

وفيها (۷۲۵) وقف الناس بعرفة يومين: السبت والأحد؛ لاختلافٍ فى هلال ذى الحجّة، وكان الركب المصرى قليلًا والعراقى كثيراً.

خدابنده ملك التتار

سنة ۷۲۶- فيها لحق الشريف حميضة بن أبى نما الحسنى بخدابنده ملك التتار، وأقام ببلاده أشهراً وطلب منه جيشاً يغزو به مكّة، وساعده جماعة من الرافضة على ذلك، وجهّزوا له جمعاً من خراسان، وكانوا مهتمّين بذلك، وكان مقدّمهم

ص: ۱۰۳

درقندی- وقیل: دقلندی- وهو رافضی من أعیان دولة التتار، وکان قد قام بنصر الشریف حمیضة، وجمع له من الأموال والرجال علی أن یأخذ له مکّة ویقیمه بها، وأنّهم ینقلون الشیخین: أبا بکر وعمر من جوار النبی صلی الله علیه و آله، ثمّ إنّ الأمیر محمّد بن عیسی... قاتلهم ونهبهم وکسب العسکر منهم أموالًا عظیمة من الذهب والدراهم...

عدم الحجّ من العراق سنین کثیرة

سنة ۷۳۶- فیها لم یحجّ العراقیّون؛ لموت سلطانهم أبی سعید بن خدابنده، واختلاف الکلمة بعده، ودام انقطاعهم سنین کثیرة.

الاختلاف فی رؤیة الهلال ونزاع الفقهاء والقضاة

سنة ۷۴۷- وفیها کانت الوقفة الجمعة؛ لأنّه ثبت ذلک عند قاضی مکّة بحضور قاضی القضاة عزّ الدین بن جماعة وغیره من حجّاج مصر والشام والعراق، وکان یوم عرفة بمصر والاسکندریة یوم الخمیس، فأنکر الشیخ علاء الدین علی بن عثمان الترکمانی الحنفی علی القاضی عزّ الدین بن جماعة، وأفتی أنّ حجّ الناس فاسد ویلزم من وقف بالناس یوم الجمعة بعرفة جمیع ما أنفقه الحاج من الأموال، وأنّه یجب علی الحجاج کلّهم أن یقیموا محرمین لایطؤوا نساءهم، ولا یمسّوا طیباً، حتی یقفوا بعرفة مرّة أخری، وشنّع بذلک عند الأمراء، فشقّ ذلک علی الأمیر من أجل أنّ زوجته حجّت فیمن حجّ... فغضب الشافعیة وأنکروا مقالته وردّوها، وقصد ابن جماعة أن یعقد مجلساً فی ذلک ویطلب الترکمانی ویدّعی علیه بما أفتی به، مما لا یوجد فی کتب الحنفیة، فرجّعه الناس عن ذلک مخافة الشناعة.

سنة ۷۴۸- فیها حجّ الرکب العراقی بعد انقطاعه عن الحج إحدی عشرة سنة، وکان الحجاج کثیراً من العراق بخلاف مصر والشام.

ص: ۱۰۴

استتابة إمام الزیدیة

سنة ۷۵۵- فیها فی رمضان عقد لکبیر الزیدیّة أبی القاسم بن محمّد بن حسین بن الشُقیف مجلسٌ بحضرة القاضی عزّ الدین بن جماعة واستتیب فیه، وکتب خطّه أ نّه یبرأ إلی اللّه عزّوجلّ من اعتقاد أهل البدع من الزیدیّة والإمامیّة وغیرها، وأ نّه یواظب علی الجمعة والجماعة، وإن خرج عن ذلک فعل به ما تقتضیه الشریعة المطهّرة، وذلک بعد سؤاله لأهل السنّة وخضوعه لهم، وکان سبب ذلک خوفاً حصل له من ضرب الأمیر عمر شاه لعلیّ مؤذّن الزیدیة حتی مات فی موسم السنة التی قبلها.

وفیها حضر أبو القاسم محمّد بن أحمد الیمنی إمام الزیدیة المطلوب فی السنة الخالیة إلی قاضی القضاة عزّ الدین بن جماعة، تائباً مما کان علیه من مذهب الزیدیة، فعقد له مجلس بالحرم، حضره أمیر الرکب وعامّة أهل مصر ومکّة، وأشهدهم أنه رجع عن مذهب الزیدیة وتبرأ إلی اللّه من إباحة دماء الشافعیة وأموالهم، وأ نّه یواظب علی صلاة الجمعة والجماعة مع أئمة الحرم، وإن خرج عن ذلک فعل به ما تقتضیه الشریعة وکتب خطه بذلک.

الاختلاف فی رؤیة الهلال

سنة ۷۵۷- فیها وقف الناس بعرفة یومین.

وفیها حجّ بعض العجم، وتصدّق بذهب کثیر فی الحرمین علی أهلهما.

تیمور لنگ

سنة ۸۰۳- فیها لم یحجّ أحد من الشام علی طریقتهم المعتادة لخرابها، ولما أصاب أهل دمشق من القتل والعذاب والأسر وإحراق دمشق بعد أن صودر أهلها وکانوا مسلمین البلاد بأمان، والفاعل لذلک أصحاب تیمورلنگ صاحب الشرق، ودام انقطاع الحجاج الشامیّین من هذا الطریق سنین ثمّ حجّوا.

ص: ۱۰۵

مزار شهيد الفخّ

سنة ۸۰۵- فيها فى صفر عمّر السيّد حسن بن عجلان المشهد الذى به قبر الحسين بن علىّ بن الحسن الحسنى بفخّ ظاهر مكّة بطريق التنعيم.

وفيها لم يحجّ أحد من الشام ولا العراق ولا اليمن.

صلاة المغرب والأئمّة الأربعة

سنة ۸۱۱- فيها فى الموسم أبطل الناصر فرج صلاة المالكى والحنبلى والحنفى فى صلاة المغرب؛ لأنّهم كانوا يصلّونها فى وقت واحد، وبسبب اجتماعهم فى هذه الصلاة يحصل للمكيّين لبس كثير بسبب التباس أصوات المبلّغين واختلاف حركات المصلّين، وهذا الفعل ضلال فى الدين، وصار الشافعى يصلى بمفرده الناس المغرب، واستمرّ إلى موسم سنة ۸۱۶.

الاختلاف فى رؤية الهلال

سنة ۸۱۳- وقف الناس بعرفة يومين؛ لاختلافٍ وقع فى تاريخ أوّل الشهر، وأوقفت المحامل فى اليوم الأوّل يوم التروية على مقتضى رؤية أهل مكّة بعرفة على العادة، ونفروا بها وقت النفر الأوّل المعتاد إلى قرب العلمين، ثمّ ردّت إلى مواضعها.

عدم الحج من العراق سنين

سنة ۸۱۳- فيها لم يحجّ أحد من العراق، لأنّ فيها- على ما يقال- قتل صاحب بغداد أحمد بن أويس ... ودام انقطاع الحجّاج بمحمل بغداد سنين بعد هذه.

من شيراز

سنة ۸۱۴- فيها لم يحجّ العراقيون، وحجّ من العراق ناسٌ قليل من شيراز وغيرها على طريق الحسا (الأحساء) والقطيف..

ص: ۱۰۶

سنة ۸۱۵- فیها أیضاً لم یحجّ رکب العراق وحجّ ناس من العراق من شیراز وغیرها علی طریق الحسا (الأحساء) والقطیف.

الجمل والحجر الأسود

سنة ۸۱۵- فیها قیل فی جمادی الآخرة: کان جملٌ لرجل وکان یکلّف فوق طاقته فلمّا کان یوماً هرب إلی المسجد الحرام ودخله ولم یزل یطوف بالبیت حتّی کمل له ثلاثة أسابیع مع أ نّ الناس یریدون إمساکه وإخراجه من المسجد فما قدروا علی ذلک، وکان إذا دنا منه شخص دقّه وغلبه، فلمّا قضی الثلاثة الأسابیع، قال الناس بعضهم لبعض: اترکوه، فترکوه فجاء إلی الحجر الاسود فقبّله ساعة، ثمّ راح إلی عند مقام الحنفیة تجاه المیزاب فبرک عنده، ثمّ بکی ساعة وألقی نفسه علی الأرض، فمات فحمل إلی ما بین الصفا والمروة.

اختلاف کثیر فی رؤیة الهلال

سنة ۸۱۷- فیها حصل اختلاف کثیر فی تعیین الوقفة؛ لأنّ جمعاً کثیراً من القادمین إلی مکّة فی البرّ والبحر وبعض من بمکّة المشرّفة ذکروا أ نّهم رأوا الهلال لذی الحجّة لیلة الإثنین، ولم یر ذلک أهل مکّة ولا غالب الرکب المصری، فوقع الاتّفاق علی أ نّ الناس یخرجون إلی عرفة فی بکرة یوم الثلاثاء تاسع ذی الحجّة علی مقتضی قول من قال: إنّه رأی بالاثنین، وأن یقیموا بعرفة لیلة الأربعاء ویوم الأربعاء، ففعل ذلک، وسار معظم الحاجّ إلی عرفة بعد طلوع الشمس من غیر نزولٍ بمنی، فبلغوها بعد دخول وقت العصر، فتخلّف غالب المکّیین وأهل الیمن بمکّة إلی وقت الظهر، وتوجّهوا إلی عرفة من غیر نزولٍ بمنی... فوصلوا إلی عرفة وأقاموا بها لیلة الأربعاء ویوم الأربعاء إلی الغروب، ونفروا مع الحجّاج إلی المزدلفة، وباتوا بها إلی قرب الفجر، ثمّ رحلوا إلی منی بعد رحیل المحامل، والمعهود أ نّها لا ترحل إلّابعد الفجر، وکذا غالب الناس ففاتتهم الفضیلة... وانتهوا إلی منی فی بکرة یوم الخمیس...

ص: ۱۰۷

مطر عظيم

سنة ۸۲۵- فيها فى آخر ليلة السبت سابع عشر ذى الحجّة وقع مطر عظيم بقوّة عظيمة، فلمّا كان وقت صلاة الصبح صلّى الإمام الشافعى بالناس أمام زيادة دار الندوة بالجانب الشامى من المسجد الحرام؛ لتعذّر الصلاة عليه بمقام إبراهيم وما يليه هنالك... وصار المسجد الحرام مغموراً بالماء الكثير المرتفع نحو قامته بحيث قارب عتبة باب الكعبة... وما مات فيه أحد فيما علمناه، ولكن مات فى هذه الليلة أربعة نفر بمكان بأسفل مكّة بصاعقة وقعت عليهم هناك...

وباء عظيم

۸۲۷- فيها كان وباء عظيم عامّ دام أشهراً لعلّ الموتى فيه ممن يعرف اسمه ومكانه يزيدون على ألفين أو يقاربون ذلك، وكان كثيراً ما يجمع من الجنائز عقيب صلاة الصبح أو العصر سبع أو أكثر، وكان يموت فى كثير من الأيّام بضع وعشرون فى كلّ يوم أو أكثر، غير الموتى الذين يؤتى بهم من بادية مكّة إليها، وكان ابتداء كثرة الموتى بهذا الفصل يوم الثامن من صفر.

الحج من مشهد على عليه السلام

سنة ۸۳۱- فيها حجّ محمل من العراق ومعه ركب قليل، أربعمائة جمل تحمل الحاجّ من مشهد علىّ، والمجهّز له سلطان الحلّة حسين بن علىّ بن السلطان أحمد بن اويس، بعد أن انقطع محمل العراق قبل هذه السنة مدّةً تزيد على عشر سنين..

سنة ۸۳۲- فيها فى ليلة عاشوراء وجدت نجاسة فى مقام إبراهيم- إمّا عذرة أو خرا- فغسّل المقام ونظّف وطيّب (۱).

۱- روى السنجارى فى حوادث سنة ۱۰۸۷ أنّه لما كان يوم الخميس ثامن شوّال من السنة المذكورة أصبح الناس فإذا الكعبة المشرّفة ملطّخة بعذرة أو بأشبه العذرة عن جميع جوانبها، وكذلك الحجر الأسود والركن اليمانى، فاتّهم بهذا الفعل الشيعة، فاشتدّت حمية الأتراك المجاورين، فأخذوا من الحرم خمسة أنفس من العجم بعد شروق الشمس، و أوقعوا فيهم الضرب والرجم بالحجارة، ثمّ الضرب بالسيوف، وألقوهم على بعضهم ولم يطالب فيهم أحد.

ص: ۱۰۸

الموت من الحرّ والعطش

سنة ۸۳۳- فيها أصاب الحاجّ فى قدومهم بين الإزلم وينبع (فى طريق المصرى إلى الحجّ) شدّةً عظيمة من الحرّ والعطش، مات فيها ثلاثة آلاف نفس، ويقال:

خمسة آلاف.

موت نحو الألف

سنة ۸۳۴- فيها فى يوم الثلاثاء ثامن عشر جمادى الآخرة، وصلت الرجبية إلى مكّة المشرفة فى جماعة كثيرة ممن يريد الحج والعمرة، منهم شيخنا العلامة تقىّ الدين أحمد بن على المقريزى رحمه اللّه، وكانت عدّة أحمالهم نحو ألف وخمسمائة حمل، ومقدّمهم سعد الدين إبراهيم بن المرة ناظر جدّة، فوجدوا ما بين الوجه واكرة (هما فى طريق المصرى الى الحجّ) عدة موتى ما بين رجال ونساء ممن هلك بالعطش من الحاجّ، فدفن منهم نحو الألف.

مولد جعفر عليه السلام

سنة ۸۳۵- فيها فى جمادى الآخرة عمّر الخواجا جمال الدين محمّد بن علىّ الرومى مولد جعفر الصادق (الصحيح جعفر بن أبى طالب) بدار أبى سعيد.

السيل العظيم

سنة ۸۳۷- فيها فى ليلة الجمعة سادس عشر جمادى الاولى حصل مطر قوىّ سالت منه الأودية... فداخل المسجد الحرام صار الماء بحراً إلى عتبة باب إبراهيم... وتهدم فى هذه الليلة دور كثيرة فقول الكثر ألف وزيادة ومات تحت الردم إثنا عشر إنساناً وغرق ثمانية أنفس ودلف (أى انصبّ منه الماء) سقف الكعبة، فابتلّت الكسوة التى بداخلها وامتلأت القناديل التى بها.

وحدث عقيب هذا السيل بمكّة وأوديتها وبأطراف اليمن وباءٌ واشتعل الوباء فى شعبان حتّى بلغ بمكّة فى اليوم عدّة من يموت خمسين.

ص: ۱۰۹

الاختلاف فی رؤیهٔ الهلال

سنهٔ ۸۵۰- فیها وقع الاختلاف فی الوقفهٔ، شهد شخص من المغاربهٔ- ذکر أ نّه من أهل العلم والدین وزکّی- أ نّه رأی الهلال لذی الحجّهٔ لیلهٔ الخمیس، وقال القاضی کاتب السرّ أ نّ اخته- زوجهٔ الملک الظاهر- رأت الهلال لیلهٔ الخمیس، فقال القاضی الشافعی لکاتب السرّ: ینبغی أن تتوجّهوا من مکّهٔ صبح یوم الجمعهٔ، ولا تبیتوا بمنی لیلهٔ السبت، بل تکونوا لیلهٔ السبت بعرفهٔ فامتنع من ذلک وقال: لا یسعنی ذلک أبداً، ثمّ لمّا وصل الرکب الشامی ذکروا أنّ قاضی محملهم ثبت عنده بشهادهٔ من یثق به أنه رأی هلال ذی الحجّهٔ لیلهٔ الخمیس، فوقف الناس یوم الجمعهٔ ولم تطمئن قلوب غالب الناس بالوقوف یوم الجمعهٔ. واللَّه أکرم من أن یردّ هذا الوفد العظیم خائبین.

الوقوف یومان

سنهٔ ۸۵۹- فیها وقف الناس بعرفهٔ یومین، لاختلافٍ وقع فی تاریخ الشهر وأوقفت المحامل فی الیوم الأوّل یوم الأربعاء یوم الترویهٔ علی مقتضی رؤیهٔ أهل مکهٔ بعرفهٔ علی العادهٔ، ونفروا بها وقت النفر المعتاد إلی مواضعها، وباتوا بعرفهٔ وأقاموا بها یوم الخمیس، ووقفوا بها عصر یوم الخمیس ونفروا.

ص: ۱۱۰

الحجّ بعد سبعة عشرة سنة

سنة ۸۷۱- فیها حجّ العراقیون بمحمل علی العادة بعد انقطاعهم سبع عشرة سنة وکان وصولهم من المدینة الشریفة وقدومهم إلی مکّة فی الیوم السابع من ذیالحجة، وعادوا إلی المدینة أیضاً.

السید تاج الدین

سنة ۸۷۵- فیها مات السیّد تاج الدین عبد الوهّاب بن عمر بن الحسین بن أحمد بن الحسن بن حمزة بن محمّد بن ناصر بن علی بن الحسین بن إسماعیل بن محمد بن إسماعیل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علیّ زین العابدین بن الحسین بن علیّ بن أبی طالب الحسینی الدمشقی، فی عصر یوم الأحد ثانی جمادی الاولی، وصلّی علیه صبح یوم الإثنین ودفن بالمعلاة. (راجع الضوء اللامع ۵: ۱۰۶).

العمرة الرجبیة

سنة ۸۴۸- فیها لمّا کان فی ظهر یوم الإثنین تاسع عشر شعبان، وصل السیّد أبو القاسم من وادی الآبار إلی مکّة المشرّفة، ووصل معه قاصده الشریف صعیب الینبعی، وأخبر أ نّ الرجبیة کبیرة أربعة آلاف جمل، وهی رکبان، مقدّمها الأمیر کُزُل المعلم أمیر الترک بمکّة...

شابّ من الترکمان

سنة ۸۵۰- فیها حجّ محمل من بغداد فی هیئة عظیمة... فی رکبٍ نحو ألف راحلة (إبل أو غیرها)، لم یکن فیها کجاوة ولا محارة (صندوق کالهودج)، وأمیرهم شخص شاب من الترکمان المغل یسمّی جعفراً، وکانوا لما وصلوا رکبة (بین مکة والطائف) خرج علیهم عرب یسمّون: مطیر، فی مائة وخمسین فارساً ونحو ألفی راجل، أرادوا أخذ الحاجّ فجادلهم الأمیر، وکان فی نحو خمسمائة، فظهر

ص: ۱۱۱

من الأمير شجاعة عظيمة ظهر بها أ نّه من فرسان الإسلام فنصرهم اللَّه على العرب وردّ كيدهم فى نحورهم.

طاعون فى جدة

سنة ۸۸۲- فى أوائلها وقع بجدّة- ساحل مكّة- طاعون، مات به جماعة كثيرة من أهلها، حتّى غلقت أبواب كثيرة، وكان يصلّى فى بعض الأيّام على الستين ميّتاً فى الجامع، وبلغ عدّة من يموت فى كلّ يوم مائة وأكثر.

أيضاً الاختلاف فى رؤية الهلال

سنة ۸۸۳- فيها فى يوم الخميس سابع ذى الحجّة اجتمع الشريف والقضاة عند أمير الحاجّ المصرى مرتين؛ بسبب رؤية هلال ذى الحجّة ما هو؟ أو متى تكون الوقفة؟ وزعم أمير الحاجّ وبعض الجهّال أ نّ بعض الشاميين رآه ليلة الخميس فتكون الوقفة الجمعة وأهل مكّة يقولون: إنّه لم يره بمكّة أحد ليلة الجمعة، لكن رؤى فى بعض الآفاق، فتكون الوقفة السبت- وكان من كلام الغرباء فى غير المجلس أ نّ أهل مكّة لا يحبّون وقفة الجمعة فإنّ الغلاء عندهم بل ويغرم السلطان... قاتلهم اللَّه فإنّ هذا افتراء لا يعرف- وانفضوا فى المرّة الاولى من عند أمير الحاجّ من غير فصل، وفى المجلس الثانى رسم أمير الحاجّ أن يقفوا مرّتين: يوم الجمعة ويوم السبت، ويتوجّه الناس منه إلى يوم الخميس، فتوجّه كثير من الناس يوم الخميس، وبعضهم يوم الجمعة، وخطب الخطيب بمكّة يوم الجمعة ولم يكن بها إلّا اناس قليل ووقف من حضر الموقف يوم الجمعة ويوم السبت مرّتين، كما رسم أمير الحاج، فلا قوّة إلّا باللَّه العلى العظيم.

ص: ۱۱۲

أسماء بنت عميس

شخصيات من الحرمين الشريفين (۲۱)

أسماء بنت عميس داعية تحتذى

حسن محمّد

إنّ للنساء المؤمنات الصالحات تاريخاً رائعاً لم تنسه أقلامه ومصادره، وكيف ينسى وقد غدا تاريخاً مثمراً متواصلًا جعل منهنّ أمثلةً تحتذى، ونماذج تقتدى؟!

ومن تلك النساء، مؤمنة صابرة حصلت على أوسمة متعددة من رسولاللّه صلى الله عليه و آله منها وسام الإيمان حيث قال:

«الأخوات الأربع مؤمنات: ميمونة، وأمّ الفضل، وسلمى، و أسماء».

صحابية جليلة، بعد أن عرفت بصبرها، وثباتها، ووعيها، وعبادتها، وبصيرتها، ومعرفتها فى تأويل الرؤيا، وحفظها لكثير من الأحاديث النبوية وروايتها، وتسجيلها للعديد من المواقف النبيلة، نالت لقباً كبيراً ووساماً رفيعاً، طالما اشرأبت له الأعناق، إنه (لقب الهجرتين) وهو من رسول اللّه صلى الله عليه و آله أيضاً، حيث إنها عرفت بأنها صاحبة الهجرتين، فهى أول النساء المهاجرات إلى ديار الحبشة، حيث ملكها العادل، ثم يثرب مدينة رسول الرحمة محمد صلى الله عليه و آله.

غدت هذه المرأة أنموذجاً يقتدى، ومثالًا يحتذى، كما قلنا بحق وجدارة، فهى زوجة وفية صالحة، عرفت بصبرها ووفائها، لبيوت حلّت فيها زوجة وأمّاً...

ص: ۱۱۳

وهی أمّ مدرسـة نقالـة أینما کانت، وحلّت فی مکـة، وفی الحبشة، وفی یثرب، بکل ما تحمله هذه المدرسة، من دروس قیمة، ومفاهیم صادقة، ومبادئ عالیة...

وهی داعیـة مخلصـة، هنـا وهنـاک، حفلت حیاتهـا بمفاصـل قیمـة، وألوان زاهیـة، وأغصان مؤرقـة، راحت تثمر دروساً فی بناء المؤمنة الداعیة، والأسرة المسلمة الصادقة، والأبناء الصالحین، الذین أحاطتهم ببیئة نظیفة، وتربیة سلیمة...

وإن قراءة حیاتهـا، کمـا حیـاة الأخریـات مـن الصالحـات المربیـات، یؤکـد ضـرورة وأهمیـة التواصـل الإیجـابی بینهنّ ومجتمعهن، بل ومجتمعات أجیال أخری جاءت بعـدهن، وإن دل هـذا فإنه یدل علی عظم الرسالة السـماویة، التی صـنعتهنّ بعد أن وفقن للإیمان بها، وصرن أعضاء عاملات فی مدرسة النبوة المقدسة، والصحبة المبارکة، وما أعظمها من صحبة خرّجت نخباً صالحة من الرجال والنساء.

نسبها:

هی أسـماء بنت عمیس بن معـد بن تیم بن الحارث- أو معـد بن الحارث بن تیم- بن کعب بن مالک بن قحافـة بن عامر بن ربیعـة بن عامر بن سعد بن مالک بن نسر- أو بشیر- بن وهب اللَّه بن شهران بن عفرس بن خلف بن أفتل وهو خثعم (۱).

هذا نسبها من أبیها.

وأمّها: هند بنت عوف بن زهیر بن الحارث الکنانیة، أو هی هند بنت عوف بن الحارث، وهو حماطة بن ربیعة بن ذی جلیل بن جرش، واسمه منبه بن أسلم بن زید بن الغوث بن سعد بن عوف بن عدی بن مالک بن زید بن سهل بن

۱- أنظر: تاریخ الطبری ۲: ۳۵۱، أحداث سنة: ۱۳؛ ومقاتل الطالبیین، لأبی الفرج الإصفهانی ۳۵، ترجمة محمد بن جعفر.

ص: ۱۱۴

عمرو بن قيس بن معاويـة بن جشم بن عبد شـمس بن وائل بن الغوث بن قطن بن غريب بن زهير بن أيمن بن الهميسع بن حمير، وهو العرنجـج بن سـبا بن يشـجب بن يعرب بن قحطان، كما فى مقاتل الطالبيين، أو هى بنت عوف بن زهير بن الحارث ابن حماطـة... كما فى الطبقات.

وهند هذه التى هى أم أسماء بنت عميس التى قيل فيها:

الجرشية أكرم الناس أحماء. و جرش من اليمن.

وابنتها أسماء بنت عميس، تزوجها جعفر بن أبى طالب، ثم أبوبكر، ثم أميرالمؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام.

وابنتها الأخرى، ميمونة أمّ المؤمنين، زوجة النبى صلى الله عليه و آله، وهى آخر امرأة تزوجها صلى الله عليه و آله.

وابنتها الأخرى، لبابة أمّ الفضل أخت ميمونة، أم ولد العباس بن عبدالمطلب.

وابنتها الأخرى، سلمى بنت أم ولد، حمزة بن عبدالمطلب، وقد ولدت له ابنته عمارة.

إذن، فأحماؤهـا، أى أحمـاء هـذه الجرشـية هم: رسول اللّه صـلى الله عليه و آله، وأميرالمؤمنين على بن أبى طالب، والحمزة، والعباس، وجعفر، وأبوبكر، ومن أحمائهـا أيضاً الوليـد بن المغيرة المخزومى، فأمّ خالـد بن الوليـد، أمّ الفضل الكبرى بنت الحارث أخت أسـماء لأمها.

وميمونـة أمّ المؤمنين، أبوها الحارث بن الجون بن بجير بن الهرم بن رويبـة بن عبد اللّه بن هلال بن عامر، وأم المؤمنين هذه هى أخت أسماء من أمّها.

وأخوات ميمونة لأمها، هنّ عشر أخوات، وست أخواتها لأبيها (۱).

۱- أنظر: مقاتل الطالبيين ۳۶- ۳۵، ترجمة محمد بن جعفر؛ و ابن سـعد فى الطبقات ۸: ۹۴، ۲۰۵، ۶: ۸۶؛ والإصابة ۸: ۲۰۲- ۱۹۱، ۱۸: ۷۸، وفى غيرها من المصادر التاريخية.

ص: ۱۱۵

زواجها:

وقع اختلاف بينها وأختها سلمى، حيث قيل: إن أسماء بنت عميس كانت قبل الإسلام تحت حمزة بن عبد المطلب ابن عمّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، أنجبت له ابنة «أمة اللَّه»، ثم من بعده كانت تحت شداد بن الهادى الليثى، وأنجبت له «عبداللَّه وعبد الرحمن» ولكن ردّت هذه الدعوى بأنّ المرأة التى كانت تحت حمزة وشداد هى سلمى بنت عميس أختها، وليس أسماء.

والشىء المتيقن أنها تزوجت ابن عمّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، جعفر الطيار بن أبى‌طالب رضى الله عنه، والذى كان شبيهاً به صلى الله عليه و آله، فقد كان صلى الله عليه و آله يقول لجعفر: «أنت أشبه الناس بخلقى وخلقى» (۱).

فكان ذلك يسرّ أسماء، ويسعدها عندما ترى زوجها شبيهاً بأحسن الخلق وأفضلهم وأحبهم إليها، فكان يحرّك فيها مشاعر الشوق لرؤية النبى الكريم صلى الله عليه و آله..

وقد أسلمت مع زوجها جعفر- الذى ظلّ طيلة حياته معها يبادلها المحبة والوفاء والرفقة الصالحة حتى فى مسيرتهما الإيمانية- فى وقت واحد ومبكر من عمر الدعوة، حتى يقال: إن إسلامهما كان قبل دخول رسول اللَّه صلى الله عليه و آله دار الأرقم بمكة.

أسماء فى بلاد الهجرة الأولى:

ما إن قرّر زعماء ومشركو قريش معاقبة المؤمنين، حتى أذن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لأصحابه بالهجرة إلى الحبشة، فكانت أسماء وبرفقة زوجها جعفر، وبعد فترة قليلة من زواجهما، واحدةً ممن شدّ الرحال هجرةً فى سبيل اللَّه تعالى، و تنفيذاً لطلب الرسول صلى الله عليه و آله، و فراراً بدينهم وأنفسهم، فوثقت هجرتهما الحياة بينهما، وملأت عليهما أجواء إيمانية، جعلت منهما نعم الزوجين، المؤمنين،

۱- مختصر تاريخ دمشق ۶: ۶۹ ترجمة جعفر بن أبى طالب.

ص: ۱۱۶

المهاجرين، المجاهدين، الصابرين، الصادقين، بعد أن أدركا أن الآخرة خير من الأولى.

إذن، ما إن وصل المهاجرون إلى بلاد الحبشة، حتى كانت أسماء وزوجها جعفر، وهو أمير المهاجرين، وابنهما عبد اللَّه على قول، فى مقدمة ذلك الركب العظيم، وكانت واحدة من ست عشرة امرأة مهاجرة... ليقيموا فى بيت بسيط تكتنفه آلام الغربة، والبعد عن الرسول صلى الله عليه و آله وصحبته المباركة، وعن الوطن والأحبة، وتملؤه المودة، والمحبة، والاحترام، لتجعل منهما مثالًا للزوجين الصالحين؛ حقاً لقد ملأ هذا الصحابى الجليل، حياة زوجته أسماء بكل معانى الخير، مما حداها أن تكون شريكته الصالحة فى حمل مسؤولية هذا الدين الحنيف، ونشر دعوته فى مهجرهما الجديد؛ إضافةً إلى تحملها تربية أولادها الثلاثة الذين منّ اللَّه تعالى عليهما بهم، فقد أنجبت لجعفرفى بلاد الحبشة: عبداللَّه، و محمداً، وعوفاً، وكان ولدها عبد اللَّه أكثر شبهاً بأبيه الذى كان شبيهاً بالنبى الكريم صلى الله عليه و آله فكانا كلما اشتاقا لرؤية رسول الرحمة صلى الله عليه و آله ملئآ عيونهما منه.

بقيت هذه الصحابية المؤمنة الصابرة وزوجها فى الحبشة خمس عشرة سنة أو أقلّ من هذا بقليل، وقعت فيها أمور عديدة واصل فيها رسول اللَّه صلى الله عليه و آله دعمه لهم، عبر موفده عمرو بن أمية الضمرى رضى الله عنه يتفقدهم، ويستوضح ما عندهم، ويعلمهم أحكام اللَّه، وما ينزل من آيات قرآنية.

وفى المقابل كانت قريش هى الأخرى، ترسل وفودها إلى ملك الحبشة، لتحثه على تسليمهم وإعادتهم إليه، فقد جاء وفد من قريش إلى ملك الحبشة (النجاشى) يطالبونه بإعادة المسلمين إلى مكة، وكان يضم عمرو بن العاص، وكانوا يقولون له:

«قد ضوى إلى بلدك منّا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا فى دينك، وجاؤوا بدينٍ ابتدعوه، لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم

ص: ۱۱۷

أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردّهم إليهم».

فما كان من النجاشى إلّا أن أرسل بطلب وفد المسلمين، يسألهم بشأن هذا الأمر، فتقدم جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه، زوج أسماء، فقال:

«أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، حتى بعث اللّه إلينا رسولًا منا، فدعانا إلى اللّه لنوحّده ونعبده، ونخلع الأوثان، وأمرنا أن نعبد اللّه وحده، لانشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاهٔ والزكاهٔ والصيام...»

فتشوّق النجاشى لسماع المزيد؛ فسأله عما جاء به النبى صلى الله عليه و آله من عنداللّه، فما كان من جعفر إلّا أن أسمعه من سورهٔ مريم...

فبكى النجاشى حتى أخضلّت لحيته، وبكت معه أساقفته، فقال النجاشى:

«إنّ هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاةٍ واحدهٔ، إنطلقا، فلا واللّه لا أسلمهم إليكما ولا يكيدهم أحد».

فكان ذلك سبباً فى إسلام النجاشى، وكان النجاشى سبباً فى إسلام وفد قريش، والذى كان من بينهم عمرو بن العاص.

وقد سمّى النجاشى ولده (عبد اللّه) على اسم ابن جعفر وهو عبد اللّه، وليس هذا فقط، بل إنّ أسماء قد أرضعته مع ولدها عبد اللّه بن جعفر، وبالتالى فهما أخوان بالرضاعهٔ، وهذا دليل على عمق العلاقهٔ بين العائلتين: عائلهٔ النجاشى وعائلهٔ جعفر.

إنّ ذلك كان اختباراً عظيماً لهذه الفئهٔ المؤمنهٔ، وأسماء منها تؤدى رسالتها كأفضل داعيهٔ قولًا وعملًا وسلوكاً...

هجرتها الثانيهٔ:

كم كان سرور رسول اللّه صلى الله عليه و آله عظيماً حين عادت أسماء وجعفر من الحبشهٔ إلى المدينهٔ المنورهٔ، وهو يعيش فرحهٔ فتح خيبر، وقد عبّر عن فرحتيه، فقال صلى الله عليه و آله بعد

ص: ۱۱۸

أن قبّل بین عینی جعفر:

«ما أدری بأیّهما أنا أسرّ: بفتح خیبر أم بقدوم جعفر؟!!» (۱).

هی و الخلیفهٔ الثانی:

ما إن عادت من هجرتها إلی الحبشـهٔ، التی تأخرت فیها، حتی وفقت وزوجها وأولادها إلی هجرهٔ أخری، وهذه المرهٔ إلی حیث رسول اللّه صـلی الله علیه و آله إلی المدینـهٔ، وما إن التقت بحفصهٔ زوج النبی صـلی الله علیه و آله حتی دخل علیهما عمر بن الخطاب قائلًا:–

«لقد سبقناکم بالهجرهٔ فنحن أحقّ برسول اللّه صلی الله علیه و آله منکم أو: یا حبشیهٔ، سبقناکم بالهجرهٔ!

فغضبت رضی الله عنه وقالت:

«أی لعمری لقـد صدقت! کنتم مع رسول اللّه صـلی الله علیه و آله یطعم جائعکم، ویعلّم جاهلکم، وکنّا البعداء الطرداء. أما واللّه لآتین رسول اللّه صلی الله علیه و آله فلأذکرن ذلک له، ولا أنقص ولا أزید فی ذلک» فذکرت ذلک له، فقال صلی الله علیه و آله:

«لکم الهجرهٔ مرتین، هاجرتم إلی النجاشی! وهاجرتم إلّی»،

أو «للناس هجرهٔ واحدهٔ، ولکم هجرتان».

وعن البخاری فی صحیحه عن أبی موسی، أنه قال:

بلغنا مخرج النبی صلی الله علیه و آله ونحن بالیمن، فخرجنا مهاجرین إلیه، فرکبنا فالقتنا سفینتنا إلی النجاشی بالحبشهٔ، فوافقنا جعفر بن أبی طـالب، فأقمنـا معه، حتی قـدمنا جمیعـاً، فوافقنـا النبی صـلی الله علیه و آله حین افتتـح خیبر، وکـان أنـاسٌ من النـاس یقولون لنـا– یعنی أهل السفینهٔ–:

سبقناکم بالهجرهٔ!

ودخلت أسماء بنت عمیس– وهی ممّن قدم معنا– علی حفصهٔ زوج النبی صلی الله علیه و آله

۱- السیرهٔ النبویهٔ لابن هشام ۳: ۴.

ص: ۱۱۹

زائرة، وقد كانت هاجرت إلى النجاشى فيمن هاجر، فدخل عمر على حفصة وأسماء عندها، فقال عمر:

الحبشية هذه، البحرية هذه؟

قالت أسماء: نعم.

قال: سبقناكم بالهجرة، فنحن أحقّ برسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله منكم!

فغضبت وقالت: كلّا واللَّه، كنتم مع رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يطعم جائعكم، ويعظ جاهلكم، وكنا فى الدار أو فى أرض البعداء البغضاء بالحبشة، وذلك فى اللَّه وفى رسوله صلى الله عليه و آله وأيم اللَّه، لا أطعم طعاماً، ولا أشرب شراباً، حتى أذكر ما قلت لرسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله وأسأله، واللَّه لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد عليه.

قال: «فما قلت له؟»

قَالَت: قلت له: كذا وكذا.

قَال صلى الله عليه و آله: «ليس بأحق بِى منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان».

قَالَت: فَلَقَد رأيت أبا موسى وأصحاب السفينة يأتونى أرسالًا يسألونى عن هذا الحديث، ما من الدنيا شىء هم به أفرح ولا أعظم فى أنفسهم، مما قال لهم النبى صلى الله عليه و آله.

فقد قضى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لها- رضوان اللَّه تعالى عليها- ولمن كان معها فى الهجرة بالسبْق على عمر وهجرته، وهكذا جاهدت أسماء لتثبت حقها الشرعى

ص: ۱۲۰

وحقّ إخوانها الذين صحبوها فى المشوار الطويل هجرةً ودعوة، وها هى تبشِّر وتَنْشُر هذا الأمر بين من كانوا، يأتونها جماعات للسؤال عن حديث رسولاللَّه صلى الله عليه و آله وقضائه لهم بالسبْق فى الهجرة والجهاد.

فسرّت بقول رسول اللَّه صلى الله عليه و آله هذا وأثلج صدرها، ولم يكن ذلك من رسول اللَّه صلى الله عليه و آله تطييباً لخاطرها، وإراحةً لنفسها فقط، بل كان منه صلى الله عليه و آله توضيحاً للحقيقة، وتبييناً للواقع العظيم الذى عاشوه، والهدف الكبير الذى حملوه، وقطعاً لدابر الفتنة، فهم تركوا مكة فارّين بدينهم إلى الحبشة، فكانت هجرة، وهم كذلك انتقلوا من بلاد الحبشة إلى المدينة المنورة، فهذه هجرة أخرى!!!

الامتحان الكبير:

حلّت أسماء فى بيت النبوة مع زوجات النبى صلى الله عليه و آله وبناته، فيما راح جعفر يشهد مع رسول اللَّه صلى الله عليه و آله مواقفه الجهادية... إنه ابتلاء آخر لإيمان أسماء، وصبرها، وصمودها، وثباتها، إنه يوم مؤتة ووقعتها، يوم الشهادة، شهادة من؟! شهادة زوجها جعفر، وهو يقارع أعداء الإسلام ونبيه...

حزن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله حزناً شديداً حين وصله خبر استشهاد عزيزه وحبيبه جعفر، الذى كان يحظى بمعزة خاصة، ومنزلة رفيعة عنده صلى الله عليه و آله، فهو شبيهه وداعيته الثابت الواعى والمجاهد الواعد، فكان يستحق منه ذلك الألم والحزن...، جاء صلى الله عليه و آله أسماء، وهو يحمل إليها نبأ استشهاد حبيبها، ورفيق إيمانها وهجرتها، وها نحن نقرأ ما قالته رضوان اللَّه تعالى عليها.

«أصبحتُ فى اليوم الذى أصيب فيه جعفر وأصحابه، فأتانى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ولقد هنأت (أى دبغت أربعين إهاباً من أدم) وعجنت عجينى، وأخذت بنىّ فغسلت وجوههم ودهنتهم، فدخل علىّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، فقال:

«يا أسماء: أين بنو جعفر؟» فجاءت بهم، فقبّلهم رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وبكى، فأحست أسماء بحدوث شىء لزوجها، فسألت النبى صلى الله عليه و آله، فقال لها:

ص: ۱۲۱

«قتل جعفر اليوم»

فقامت تصيح وتنحب، حتى اجتمع عليها الناس يهدؤنها من روعها.

فقال صلى الله عليه و آله ":يا أسماء! لا تقولى هجراً ولا تضربى صدراً، "فكان حزنها عظيماً وبكاؤها مريراً...

وفى خبرٍ آخر، إنه لما نعى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله جعفراً إلى زوجه أسماء بنت عميس، قامت وصاحت وجمعت الناس، فدخلت عليها فاطمة بنت النبى صلى الله عليه و آله وهى تبكى وتقول: وا عمّاه!

فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: على مثل جعفر فلتبك البواكى!!!

فكان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يطمئنها قائلًا:

«يا أسماء! هذا جعفر بن أبى طالب، قد مرّ مع جبريل وميكائيل»، فرد عليه السلام، ثم قال صلوات‌اللَّه‌عليه: فعوّضه اللَّه عن يديه جناحين يطير بهما حيث شاء.

وورد إنه صلى الله عليه و آله توجه بالدعاء قائلًا: أللهم اخلف جعفراً فى أهله وبارك لعبداللَّه.

ثم رجّع- بتشديد الجيم- وقال: إصنعوا لآل جعفر طعاماً، فقد شغلوا عن أنفسهم.

وقد نقل الصدوق عن الإمام الصادق عليه السلام: إنّ النبى صلى الله عليه و آله أمر فاطمة أن تأتى أسماء بنت عميس، ونساؤها وأن تصنع لهم طعاماً ثلاثة أيام، فجرت بذلك السنّة.

وما إن ذكرت أسماء يتم أولادها حتى قال صلى الله عليه و آله لها:

«العيلة تخافين عليهم، وأنا وليهم فى الدنيا والآخرة». رواه أحمد.

ثم رثته رضوان اللَّه عليه ببيتين من الشعر، وهو ما عثرت عليهما:

فآليت لا تنفك عينى حزينة عليك و لاينفك جلدى أغبرا

فللَّه عيناً من رأى مثله فتى أكر وأحمى فى الهياج وأصبرا

وهى القائلة: ما رأيت شاباً من العرب، كان خيراً من جعفر.

ظلّت أسماء صابرة وفية لذكرى زوجها، وحبيبها، ورفيق دربها، يظهر كل هذا وغيره من خلال انكبابها على رعاية أولادها، وتنشئتهم تقرؤهم القرآن، وتعلّمهم مبادئه، ومفاهيمه، وأحكامه، ولم يشغلها أولادها عن الدعوة إلى اللَّه تعالى بين أخواتها المؤمنات... وبقيت مجالسها عامرة بذكراللَّه تعالى.

وفاؤها لفاطمة الزهراء عليها السلام:

كانت تتوفر على حبّ كبير، ومودة عالية لسيدة نساء العالمين، فاطمة الزهراء عليها السلام، ونورد هنا بعض ما روى فى حبّها وتعلقها المتواصل بسيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء عليها السلام:

فقد روى فى تزويج فاطمة عليها السلام: أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أمر النساء بالخروج، فخرجن مسرعات إلّا أسماء فقد تأخرت، فدخل النبى صلى الله عليه و آله.

وهنا تقول أسماء:

"فلما خرج رأى سوادى، فقال: مَن أنتِ؟

فقلت: أسماء بنت عميس.

قال: ألم آمرك أن تخرجى؟!!

فقالت: بلى يا رسول اللَّه، وما قصدت خلافك، ولكن كنتُ قد حضرت وفاة خديجة، فبكتْ عند وفاتها، فقلتُ لها: تبكين وأنت سيدة

نساء العالمين، وزوجة رسول اللّه صلى الله عليه و آله، ومبشّرة على لسانه بالجنة؟!

فقالت: ما لهذا بكيتُ.. ولكنّ المرأة ليلة زفافها لابدّ لها من امرأة، وفاطمة حديثة عهد بصبا، وأخاف أن لا يكون لها مَن يتولّى أمرها.

فقلت لها: يا مولاتى، لك عهد اللّه علىّ إن بقيت إلى ذلك الوقت، أن أقوم مقامك فى ذلك الأمر.

ص: ۱۲۲

ص: ۱۲۳

فبكى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وقال:

"أسأل اللَّه أن يحرسك يا أسـماء من فوقك، ومن تحتك، ومن بين يديك، ومن خلفك، وعن يمينك، وعن شمالك، من الشيطان الرجيم."

وروى أيضاً أنها كانت حاضرة عند سيدة نساء العالمين فاطمة، في ولادة الإمام الحسن عليه السلام كما في الرواية التالية...

تذكير مهم:

وهنـا لابـدّ لي من تسـجيل هـذا التـذكير حول حضور كلّ من أسـماء بنت عميس وزوجها جعفر زفاف سـيدة نساء العالمين لعليّ عليه السـلام، وهي أن أسـماء هاجرت إلى الحبشة مع رفاق دربها، وعلى رأسـهم زوجها جعفر الطيار، بعد البعثة النبوية، وقبل الهجرة النبوية إلى المدينة، في السـنة الخامسة، وكانوا آخر العائدين هي وزوجها وصـحبه إلى المدينة دار هجرتهم الثانية، سـنة ۷ هجرية، فيما كانت سنة زواج سـيدة نساء العالمين من الإمام عليّ عليه السـلام سـنة ۲ أو ۳ هجريـة، أو في السـنة الأولى للهجرة، كما عليه بعض الروايات. والمفروض أنّ أسماء وأيضاً جعفر، كانا في هذا الوقت في الحبشة! فكلّ هذا وغيره من الأخبار وقع فيه اشتباه، انتبه إليه بعضهم:

كمحمد بن يوسف الكنجي الشافعي في كتابه «كفاية الطالب» حيث قال:

إنّ ذكر أسماء بنت عميس في خبر تزويج فاطمة عليها السلام غير صحيح، لأنّ أسماء التي حضرت في عرس فاطمة إنما هي بنت يزيد بن السـكن الأنصارية، ولها أحاديث عن النبي صـلى الله عليه و آله، وأسـماء بنت عميس كانت مع جعفر بن أبي طالب بالحبشة، وقدم بها يوم فتح خيبر سنة سبع، وكان زواج فاطمة عليها السلام بعد بدر بأيام يسيرة.

أما في كشف الغمة، فقد احتمل أن تكون سلمى بنت عميس هي التي حضرت زفاف فاطمة الزهراء.

ص: ۱۲۴

وهنا لا بد لی من القول:

۱- إنّ هذه الأنصارية كانت من أهل يثرب وتسكن فيها.

۲- لم تكن مسلمةً حين وفاة أم المؤمنين خديجة فی مكة، وقد توفيت قبل هجرة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله إلى المدينة.

والرواية تذكر أنّ أسماء حضرت وفاة خديجة، وراحت هذه الأخيرة تبكی وتشكو لها خوفها على ابنتها السيدة فاطمة، فيما تعهدت أسماء إن بقيت إلى ذلك الوقت، أن تقوم مقامها، أی مقام السيدة خديجة، فی رعاية ابنتها...

فكيف لهذه الأنصارية أسماء بنت يزيد بن السكن- وهی فی المدينة، وهی لم‌تكن بعدُ مسلمة- تأتی إلى مكة لتحضر وفاة أم المؤمنين خديجة، وتعطی ذلك العهد؟!

والنتيجة التی يبدو لی أنها قد تكون الأقرب إلى الصحة، ما احتمله صاحب كشف الغمة، من أنّ الحاضرة ذلك الزفاف، هی سلمى أخت أسماء بنت عميس، وكانت سلمى زوجةً لحمزة بن عبد المطلب رضوان اللَّه عليه.

وماوقع هو اشتباه من الرواة فی أسماءبنت‌عميس، وفی وجود جعفر أيضاً (۱).

وعلى أيّة حال، فقد كانت العلاقة وطيدةً بين سيدة نساء العالمين وأسماء، فهی التی تشرّفت بتمريضها أيضاً حتى نفسها الأخير، وقد أوصتها بوصاياها فی تكفينها وتشييعها، وهی التی نعتها إلى الإمام علیّ عليه السلام، وشاركته فی تغسيلها، وتكفينها، وترحيلها، إلى مثواها الأخير... (۲) فلما رأت عليها السلام دنوّ أجلها، وأنها تسرع الخطى للّحاق بأبيها صلى الله عليه و آله، طلبت من أسماء بنت عميس أن تحضر لها ماءاً لتغتسل به، فاغتسلت، و لبست أحسن

۱- أنظر: تاريخ هجرتهم وعودتهم فی المصادر التاريخية، ومنها مختصر تاريخ دمشق، ترجمة جعفر بن أبی طالب ۶: ۷۴- ۶۲.

۲- أنظر: تاريخ الطبری ۲: ۲۵۳، سنة ۱۱ وغيره من المصادر.

ص: ۱۲۵

ثيابها... و طلبت من أسماء أن تضع لها فراشاً وسط البيت، فاضطجعت فى فراشها، و هى مستقبلة القبلة، ثم دعت أسماء و أم أيمن، وطلبت إحضار على‌بن‌أبى‌طالب عليه السلام، فحضر علىّ عليه السلام وراحت عليها السلام توصيه بوصاياها...

«يا ابن العم! إنه قد نعيت إلى نفسى، و إننى لا أرى ما بى إلّا أننى لاحقة بأبى ساعة بعد ساعة، و أنا أوصيك بأشياء فى قلبى».

قال لها على ":أوصينى بما أحببت يا بنت رسول اللَّه."

فجلس عند رأسها، و أخرج من كان فى البيت، ثم قالت ":يا ابن العم! ماعهدتنى كاذبة، و لا خائنة، و لا خالفتك منذ عاشرتنى."

فقال ":معاذ اللَّه، أنت أعلم، و أبرّ، و أتقى، و أكرم، و أشدّ خوفاً من اللَّه، من أن أوبخك بمخالفتى، و قد عزّ علىَّ مفارقتك و فقدك، إلّا أنه أمر لابدّ منه، و اللَّه لقد جددت علىَّ مصيبة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وقد عظمت وفاتك و فقدك، فإنّا للَّهو إنّا إليه راجعون، من مصيبة ما أفجعها و آلمها و أحزنها، هذه واللَّه مصيبة لا عزاء عنها، و رزية لا خلف لها..."

ومن ضمن ما قالته عليها السلام فى وصيتها للإمام عليه السلام مما له علاقة بمقالتها هذه:

... أوصيك يا ابن عم أن تتخذ لى نعشاً... (۱) و فعلًا، فقد قام الإمام علىّ عليه السلام بتغسيلها، ولم يشاركه أحد من النساء إلّا أسماء بنت عميس، و كان الحسنان يحملان الماء، و يدخلانه إلى المغتسل، ولم يشارك فى الغسل، و لم‌يحضرها غيره، و غير الحسنين، و زينب و أم كلثوم، و فضة جاريتها، وأسماء بنت عميس، ثم صلّى عليها علىّ عليه السلام و كفنها...

ثم وضعها على نعش، صنعته أسماء بنت عميس لفاطمة عليها السلام...

وقد ذكر المؤرخون، أنّ أول من حُمل على نعش، هى فاطمة عليها السلام، صنعته لها

۱- أنظر: المجالس السنيّة للسيد الأمين ۲: ۱۲۳؛ وفاطمة الزهراء من المهد إلى اللحد: ۶۰۹ من روضةالواعظين؛ وبحارالأنوار ۷۸: ۲۵۶.

ص: ۱۲۶

أسماء بنت عميس، على النحو الذى شاهدته فى الحبشة، أيام هجرتها (۱).

وقد روى عن أبى عبد اللّه الصادق عليه السلام قال:

أول نعش أحدث فى الإسلام نعش فاطمة، إنها اشتكت شكوتها التى قبضت فيها، و قالت لأسماء:

إنى نحلت، و ذهب لحمى، ألا تجعلين لى شيئاً يسترنى؟ قالت أسماء:

إنى إذ كنت بأرض الحبشة، رأيتهم يصنعون شيئاً أفلا أصنع لك؟ فإن أعجبك أصنع لك.

قالت: نعم.

فدعت بسرير، فأكبته لوجهه، ثم دعت بجرائد فشددته على قوائمه، ثم جلّلته ثوباً، فقالت: هكذا رأيتهم يصنعون.

فقالت فاطمة: إصنعى لى مثله، أسترينى سترك اللّه من النار

كما ظلّت وفية لبيوت أخرى شاءت السماء أن تحلّ فيها زوجة، بعد أن راح يتمنى الاقتران بها رجال رأوا فيها صدق الإيمان، وعمق الوعى، ونفاذ البصيرة والعقل والحكمة، فكان الخليفة الأول أوّل المتقدمين إليها، بعد استشهاد جعفر بن أبى طالب، ورزقها اللّه منه محمداً، نعم العبد الصالح، المطيع للّهورسوله وأهل بيته، والمتفانين فى سبيلهم...

تعهّدت مسؤولية تربية أبنائها من جعفر، ضمّت إليهم ابنها محمد من أبى‌بكر، وهى تدعو اللّه أن يصلح بالهم، وأن يجعلهم على الصراط المستقيم...

مع الإمامة:

وقدّر لهذه المرأة الصالحة، أن تحل فى بيتٍ ارتضاه اللّه تعالى أن يكون من بيوته، بيت إيمان و طهر، بيت إمامة وصدق، فتشرفت بأن تقترن بمن عرف بقرابته

۱- أنظر: مثلًا تاريخ المدينة المنورة، لعمر بن شبة ۱: ۱۰۸؛ والاستيعاب لابن عبد البر.

ص: ۱۲۷

القريبة، من رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله وبقدمه فى الإسلام، ونصرته، وجهاده، و بمن وصفه رسول اللّه صلى الله عليه و آله بصفات عظيمة، لم تتوفر لغيره كالأخوة، والوصية، والخلافة، والولاية...، وقد عصت على الجميع وأبت إلّا أن تكون لعليّ وعليّ فقط. وهو رفيق رسول اللّه صلى الله عليه و آله وصهره لابنته الراحلة فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين، وهو شقيق جعفر الطيار زوجها الشهيد، وهو عمّ أولادها الثلاثة. وهو فوق كل هذا وغيره، أروع شخصية صنعتها السماء بعد رسول اللّه صلى الله عليه و آله، وبدخولها هذا المنزل المبارك تكون قد دخلت أفضل وأعظم مصداق لمدرسة النبوة والإمامة، و من أوسع أبوابها، لتكون أنموذجاً حياً لأخلاق القرآن والإسلام...

لقد تزوج أمير المؤمنين عليّ بن أبى طالب عليه السلام بأسماء بنت عميس، وانتقلت إليه برفقة أولادها الأربعة، ليتذوقوا مفاهيم وقيم النبوة والإمامة، من أصدق منابعها؛ وعاشت معه، فكانت صورةً رائعة للمرأة المسلمة، والداعية المؤمنة، وقد أولدها يحيى و عوناً، فكانت مثالًا حياً للزوجة الصالحة، والأم المربيّة، فجعلت الإمام عليه السلام معجباً برجاحة عقلها، وهو ما تنطق به سيرتها، و ماتجده واضحاً حينما اختلف كل من ولديها:

"محمد بن جعفر و محمد بن أبى بكر "وراح كل منهما يتفاخر بأبيه، فقال كلّ منهما للآخر ":أنا أكرم منك، وأبى خير من أبيك."

وأحال الإمام عليّ هذا الأمر إليها- رضوان اللّه تعالى عليها- لتقضى بينهما، إذن، كيف استطاعت أن ترضيهما؟!

وقفت أسماء بينهما، و قالت غير مترددة ولا منتظرة طويلًا ":ما رأيت شاباً من العرب خيراً من جعفر، ولا رأيت كهلًا خيراً من أبى بكر. "فسكت الولدان، وتصالحا.

فقال عليّ مداعباً ":فما أبقيت لنا أو ما تركت لنا شيئاً، ولو قلت غير الذى قلت لمقتك!

ص: ۱۲۸

قالت: إن ثلاثة أنت أحسنهم خياراً!!! (۱).

لقد كبرت فی عین علیّ، حتی أصبح یردد فی کل مکان:

«کذبتکم من النساء الخارقة، فما ثبتت منهنّ امرأة إلّا أسماء بنت عمیس».

و أخیراً رحلت رضوان اللَّه تعالی علیها، وأحداث جسام تعاقبت علیها، کتمت آلامها، وتعالت علی جراحها، حین جاءها مصرع ولدها محمدبن أبی‌بکر، فراحت تتلوی مما ترکه نبأ استشهاده من أثر مؤلم علی قلبها، فحبست دمعها، وکتمت حزنها، وعکفت فی مصلّاها، حتی شخب ثدیها ونزفت، ثم فجعت بمقتل زوجها أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب علیه السلام فلم تعد بَعْدَ مصابه قادرةً علی تحمّل الألم الذی یعتصر بقیة قلبها الذی انهکه المرض، حتی فاضت روحها إلی العلیّ العظیم، فی سنة أربعین للهجرة، رضوان اللَّه تعالی علیها.

۱- أنظر ما رواه زکریا بن أبی زائدة، عما سمعه عن عامر.

ص: ۱۲۹

الرحلة الحجیّة

للعلامة السید محسن الأمین العاملی قدّس سره

عبد الخالق الصائغ

فی کل عام، ومنـذ أن أطلق نبینا إبراهیم علیه السـلام نـداءه بالحـج، والمؤمنون یتوافدون علی البیت العتیق لأداء هذا الفرض، ولم یُعِق النـاس عن المجیء إلیه تقلّبـات الزمـان وتقادم السـنون، فالبیت الطاهر لم یخلُ من الحجاج منـذ ذلک الحین، وحتی فی زمن الجاهلیّة بقیت هذه الشـعیرة بعنوانها العام دون مساس؛ إلا اللهم ما شابها من إضافات أهل الشـرک فی بعض نداءات التلبیة أو ما کان من بعض رسوم الطواف، أو ترک الحمس للوقوف بعرفـات، لأنهم أهل الحرم کما ادعوا، وکانوا یرون لسائر العرب أن یقفوا علیها، وأن یفیضوا منها، وهم یعرفون ویقرّون أنها من المشاعر، والحج دین إبراهیم علیه السلام (۱).

قال ابن الکلبی فی کتابه الأصـنام: وفیهم [العرب علی ذلک] الشرک وعبادة الأصنام بقایا من عهد إبراهیم وإسماعیل یتنسّکون بها من تعظیم البیت والطواف به، والحـج، والعمرة، والوقوف علی عرفـة ومزدلفـة، وإهداء البُدن، والإهلال بالحج والعمرة، مع إدخالهم فیه ما لیس منه. فکانت نزار تقول إذا ما أهلّت: لبیک

۱- ابن هشام ۱: ۱۶۲.

ص: ۱۳۰

اللهم لبيك؛ لبيك لا شريك لك؛ إلا شريك هو لك؛ تملكه وما ملك!. ويوحّدونه بالتلبية، ويدخلون معه آلهتهم ويجعلون ملكها بيده... وكانت تلبية عك إذا خرجوا حجاجاً، قدّموا أمامهم غلامين أسودين من غلمانهم، فكانا أمام ركبهم.

فيقولان: نحن غرابا عك! فتقول عك من بعدهما: عك إليك عانيه، عبادك اليمانية، كيما نحج الثانية! وكانت ربيعة إذا حجت فقضت المناسك ووقفت في المواقف، نفرت في النفر الأول ولم تقم إلى آخر التشريق (۱).

ثم جاء الإسلام؛ فأعاد الأمور إلى نصابها الإبراهيمي، حيث بيّن النبي صلى الله عليه و آله كل شؤون الحج كما يريدها اللّه تعالى؛ أضف إلى ذلك إلغاءه النسيء وعودة مواقيت الحج والعبادات الزمانية إلى حيث شاء الله تعالى أن تكون.

وقد كان لرحلة الحج في الإسلام نكهتها الخاصة، رغم المعاناة غير العاديّة التي يتكبّدها المؤمنون فيها، وخاصّة بعد عقد الإحرام، حيث يحرم على الحاج أمور كثيرة عدّها الفقهاء في محلّها، ولم تكن رحلة المحرم رحلة يوم أو بعض يوم كما هو الحال في زماننا، حتى يسهل عليه أمر السفر وهو كذلك، وقد حَرُمَ عليه جملة من الأمور.. لا بل كان سفر الحج عموماً يعني رحلةً في المجهول من المخاطر، لذا كان من أكثر ملازمات هذه الرحلة كتابة الوصيّة.

وعلى ما وصف بعض مؤرخي السيرة، فقد استغرقت رحلة النبي صلى الله عليه و آله من المدينة إلى مكة أسبوعاً، وليس بين المدينة ومكة غير قرابة الخمسمائة كيلومتر، فكيف حال أهل الشام والعراق، ثم فارس وما بعدها من بلاد الإسلام، وأفريقيا وما والاها؟ لذا قلت: إن رحلة الحج كانت ذات نكهة خاصة، فهي مغامرة ملؤها القصص، فالحاج إن كتب له العودة بالسلامة إلى بلده، بعد أداء فرضه، يكون لديه من القصص والحكايات ما يشدّ المستمعين.

واليك قصة رحلة من هذه الرحلات، قام بها واحد من كبار علماء المسلمين

۱- ابن الكلبي الأصنام: ۱- ۴.

ص: ۱۳۱

من جبل عامل، وهو المرجع المقدّس السيد محسن الأمين العاملی؛ لکن، وقبل الخوض فی وصف تلک الرحلهٔ، إلیک أیها القارئ العزیز هذه النبذهٔ من سیرته، مع ملاحظهٔ أن جمیع التواریخ الواردهٔ هنا هی بحسب التاریخ الهجری القمری:

المجتهد الکبیر المرجع السید محسن الأمین، بن السید عبد الکریم، بن السید علی، ینتهی نسبه الشریف إلی زید الشهید بن الإمام زین العابدین علیه السلام، ولد سیدنا الأجل کما ذکر هو (۱) فی قریهٔ شقراء من بلاد جبل عامل سنهٔ ۱۲۸۴؛ وقد أکّد ذلک من خلال قرائن، حیث لم یکن تدوین الموالید سائداً فی زمانه لاسیّما فی القری.

وعندما کان فی السابعهٔ، التحق بکتّاب لتعلیم القرآن لیوم واحد، فلم یرق له البقاء فیه لما رأی من معاناهٔ الطلبهٔ، فقامت والدته بتعلیمه القرآن حتی ختمه، وتعلّم الخط عند بعض شیوخ العائلهٔ، وبعد ذلک رغب بالدراسهٔ الدینیهٔ فتابع دراسهٔ ما ینبغی درسه لطالب العلم من العلوم، کالنحو والصرف أولًا فی قریته؛ ثم فی قریهٔ عیتا الزط، وبقی فی عیتا إلی أن سافر شیخهم إلی العراق، وکانوا یقرؤون علیه المغنی؛ فقصد رحمه اللَّه بلدهً أخری فلم یستفد من شیخها، فقصد الشیخ موسی شرارهٔ فی بنت جبیل، التی اضطر لترکها بعد وفاهٔ الشیخ موسی رحمه اللَّه عام ۱۳۰۴؛ والتحق بدرس أستاذ کان قدم من العراق حدیثاً فلم یرق له درسه، فترکه، وقال عن نفسه رحمه اللَّه: ولم تکن نفسی تمیل إلی عشرهٔ العوام، وکنت أقضی أوقاتی فی التدریس والمطالعهٔ والعزلهٔ عن الناس، ونفسی تتوق للهجرهٔ إلی العراق، فلا أستطیع ذلک.

وفی هذه الأثناء، طلبوه للخدمهٔ العسکریهٔ، فاضطر لمغادرهٔ بلده إلی قریهٔ الغور، وهی قریبهٔ من حمص، بقی فیها فترهٔ ثم عاد إلی وطنه، حیث توفیت والدته وأصیب والده بنزول الماء علی عینیه فکفّ بصره، وکان للسید رحمه اللَّه شقیقتان لا کافل لهما غیره فاضطر للعمل، وبقی ینتظر الفرصهٔ المؤاتیهٔ للسفر إلی العراق.

۱- معادن الجواهر ۴: ۲۱.

ص: ۱۳۲

وطُلب للعسكرية مرّةً أخرى، وقدّر اللَّه تعالى له أن يُعفى، بعد أن أشار عليهم البعض بتأسيس مدرسة وتسجيلها رسمياً، ومن خلالها يتم تسجيل الطلاب ويتقدّموا بامتحان للحصول على الإعفاء، وفعلوا ذلك ورخّصت المدرسة، وقدّم السيد الامتحان فى بيروت مع جماعة من الطلبة أمام لجنة خاصة، ونجح، فأعفى كطالب علم؛ وبقى حلم السفر إلى العراق يراوده رغم صعوبة الأحوال، لكنه عزم أخيراً على ذلك متوكلًا على اللَّه، فسافر إلى العراق سنة ۱۳۰۸.

كان خلال إقامته فى النجف يدرس ويدرّس، وكان أساتذته فى العراق كما ذكر رحمه اللَّه: السيد على الأمين، والسيد أحمد الكربلائى، والشيخ محمد باقر النجمابادى، والشيخ ملا فتح اللَّه الإصفهانى، والشيخ ملا كاظم الخراسانى صاحب الكفاية، والشيخ آقا رضا الهمدانى صاحب مصباح الفقيه، والشيخ محمد طه نجف.

بقى رحمه اللَّه فى العراق إلى سنة ۱۳۱۹؛ حيث كتب له الشيعة فى دمشق يطلبون حضوره إليهم والسكن عندهم، فكانت مدّة إقامته فى العراق عشر سنوات ونصف كما ذكر هو فى غير موضع من ترجمته فى كتابه معادن الجواهر (۱)؛ وقد ورد السيد رحمه اللَّه دمشق فى أواخر شعبان ۱۳۱۹، وقام بمجموعة إصلاحات كان لا بد من القيام بمثلها لرجل مثله؛ بدأ بالتعليم، حيث لاحظ تفشّى الأمّيّة، فأسس مدرسةً للبنين وأخرى للبنات، وتطوّرت هاتان المدرستان حتى صارتا من أكبر المدارس وأكثرها امتيازاً، وهما مستمرتان حتى يومنا هذا، وقد جعل لهما بعض الأوقاف.

أما مدرسة الذكور فكان اسمها العلويّة، واسمها اليوم المحسنيّة، ومدرسة

۱- معادن الجواهر ۴: الصفحات ۱۰۱ و ۱۰۳ وغيرها، وكانت ترجمته رحمه اللَّه فى هذا الجزء من المفروض أن تطبع ضمن كتاب أعيان الشيعة، الجزء الأربعون، لكن السيد رحمه اللَّه قال فى مقدمته: وقدّمناه للطبع قبل الوصول إلى محلّه من الكتاب خوفاً من مفاجئة الأجل. وترجمة السيد رحمه اللَّه هنا هى ملخص عن ۱۴۵ صفحة وردت فى هذا الكتاب بقلمه أعلى اللَّه مقامه.

ص: ١٣٣

الإناث سميّت باليوسفية. وقد أطلق السيد رحمه اللَّه اسم اليوسفية عليها تقديراً منه للحاج يوسف بيضون رحمه اللَّه، الذى تبرّع بثمن الدار الذى أقيمت فيه المدرسة، وكان ثلاثة آلاف وثمانمائة ليرة عثمانية ذهبية، وعيّن ألف ليرة أخرى يصرف ريعها لنفقات المدرسة..

ثم إن سيدنا المترجم رحمه اللَّه، كان يتنقّل بين بلدته شقراء ودمشق، و اضطر فى الحرب العالمية الأولى أن يسكن عياله شقراء، وظلّ هو يتردد على دمشق؛ فكان يقوم بأداء رسالته الدينية فى كل من سوريا ولبنان؛ فكان لوجوده المبارك الأثر الكبير فى حلّ كثيرٍ من عويصات المشاكل فى حينه؛ وامتد تأثيره المباشر إلى بعض الأحداث السياسية التى وقعت فى تلك الفترة فى سوريا، وقد نظر الوطنيون السوريون بعد الثورة إليه نظر التبجيل والاحترام، لذا تمّ تغيير اسم المنطقة التى كان يسكنها إلى "حى الأمين، "وقد كان اسمها قبل ذلك "الخراب؛ "كما أن الشارع الذى كان يقطن فيه حمل اسمه أيضاً.

رفض رحمه اللَّه تقسيم الحكومة السورية المسلمين إلى سنة وشيعة، وكتب إلى الحكومة أن الشيعة تعتبر المسلمين طائفةً واحدة، ولا تريد الافتراق عن إخوانها السنّة، فكان لذلك الوقع الحسن عند الوطنيين، فقرّرت الحكومة أن المسلمين طائفة واحدة لا فرق بين سنّيهم وشيعيّهم؛ ولمّا أصدر الفرنسيون قانون الطوائف كان من المحتجّين عليه.

وفى وقت لاحق عزم الفرنسيون على إحداث منصب رئيس علماء للشيعة فى سوريا ولبنان، وأصدروا مرسوماً بتعيينه لكنه رفض المرسوم.

اهتم السيد رحمه اللَّه بجمع تراث عاملة الذى سلم من أيدى العابثين، وعلى رأسهم الجزار، واشتغل فى غالب وقته بالكتابة والتأليف إلى أواخر حياته وقد ناهز التسعين من العمر؛ ولم يكن ليترك الكتابة حتى فى السفر، فكان يصطحب بعض كتبه معه، لا بل كان ينشئ أسفاراً لأجل بعض المعلومات التى يحتاج إليها

ص: ۱۳۴

لبعض كتبه، لاسيّما حين كان يشتغل بكتابه «أعيان الشيعة».

ترك السيد الأمين عشرات الكتب فى مختلف المواضيع والعلوم، كانت وما زالت من غرر ما كُتب فى مواضيعها، و يعدّ كتابه «أعيان الشيعة» واحداً من أهم آثاره المميزة التى تركها بعد رحيله فى جملة من نفائس المؤلفات.

كان للسيد الأمين رحمه اللَّه من القداسة ما جعله ملاذاً فى الشدائد، وقد روى أنّه استسقى للناس مرتين، بعد قحط وجدب أرهق العباد، حيث إنّ مورد رزق العامليين فى ذلك الزمان كان يعتمد بالدرجة الأولى على الزراعة، فخرج بالناس كما ورد فى السنّة، صغارهم وكبارهم بعد صيام، ثم صلى بهم صلاةً جامعة، وتضرّع للَّه‌تعالى، وما مرّ على ذلك إلا سويعات حتى أمطروا..

كان يوم وفاته رحمه اللَّه مشهوداً، فقد انتقل إلى جوار ربه الكريم قرابة منتصف ليلة الأحد ۴ رجب ۱۳۷۱، الموافق ۳۰ آذار ۱۹۵۲، وكان لخبر وفاته صدى مسموعاً فى أنحاء العالم الإسلامى، وأقيمت المآتم ومجالس الفاتحة عن روحه الطاهرة فى مختلف العواصم والمدن الإسلامية.

دفن رحمه اللَّه بجوار السيدة زينب سلام اللَّه عليها فى دمشق فى غرفة خاصّة عند مدخل الحرم، وذلك بعد أن أجرى له أعلى اللَّه مقامه فى بيروت تشييع رسمى وشعبى قلّ نظيره، ونُقِل الجثمان الطاهر إلى دمشق بموكب عظيم، واستقبلته الحكومة السورية عند الحدود استقبالًا رسمياً وشعبياً إلى مثواه الأخير.

ص: ۱۳۵

رحلة الحج

فی وصف رحلة حجّ سیدنا الأجل، اعتمدت علی ما ذکره هو فی الجزء الثانی من کتابه معادن الجواهر ونزهة الخواطر، مع تعلیقتین أخذتهما من کتابه أعیان الشیعة، أشرت إلیهما فی الهامش.

قال السید الأمین رحمه اللّه متحدّثاً عن رحلته من البدایة، بعد أن عزم علی الحج إلی بیت اللّه الحرام، وکان ذلک سنة ۱۳۲۱:

خرجنا من دمشق یوم الاثنین سابع ذی القعدة الحرام سنة ألف وثلاثمائة وإحدی وعشرون بقصد الحج إلی بیت اللّه الحرام، فرکبنا القطار الحدیدی من دمشق قاصدین بیروت فی الدرجة الثانیة، بأجرة أربعة مجیدیات (۱) عن الشخص؛ ودخلنا بیروت بعد غروب الشمس بربع ساعة، فبتنا بها لیلة الثلاثاء، وفی مساء یومها رکبنا فی الباخرة الفرنسیة من شرکة المیساجیری فی الدرجة الثالثة، وفیها أربعة درجات، والأجرة ثلاثة أرباع لیرة فرنسیة إلی بور سعید، فتحرکت بنا من بیروت فی الساعة الثانیة تقریباً من لیلة الأربعاء، فوصلنا بور سعید فی الساعة الثامنة من یوم الأربعاء...

وبتنا فی بور سعید لیلة الخمیس، وخرجنا منها یومه فی الساعة الخامسة

۱- المجیدی عملة ترکیة من الفضة، وهنا ربّما یکون من المفید ذکر العملات التی کانت تتداول هناک وما تعادله‌بالنسبة للعملات الأخری، ونذکر هنا ما کان فی القطیف قریباً من تلک الفترة، فالعملات التی کانت سائدة فی القطیف خلال القرن التاسع عشر المیلادی قبل الاحتلال الترکی الأخیر، کان منها القران بفتح أوله وثانیه، وهو عملة فارسیة فضیة، تساوی ۴۰

وجمیع تلک العملات اضمحل التعامل بها بعد سیطرة الأتراک علی البلاد، حیث حلت العملة الترکیة محلها، ومن بینها اللیرة العثمانیة الذهبیة التی تساوی ۱۲ روبیة، والمجیدی وهو عملة فضیة تساوی ۳ روبیات، وینقسم إلی فئات منها: الجرخی بالجیم المخففة ویساوی ۱ / ۱۶ من المجیدی، والمتلیک والقمری، وهی أسماء لعملة تساوی ۱۴ من الجرخی، وهی بدورها تساوی ۱۰۰ بارة، والبارة أصغر عملة ترکیة.

ص: ۱۳۶

والدقيقـة الخامسة فى القطار الحديدى الضـيق (۱)، وهو بقـدر عرض الخط الـذى بين دمشق وبيروت، قاصـدين الإسـماعيلية، وكانت العملة تشتغل بإبدال ذلك الخط الضيّق بخط عريض؛ فوصلنا الإسماعيلية فى الساعة الثامنة من يوم الخميس.

والإسـماعيلية بلـدة فى طريـق القاصـد مـن بـور سـعيد إلى مصـر، أحـدثها إسـماعيل باشـا أحـد الخـديويين، فنسـبت إليه؛ وانتقلنـا فى الإسـماعيلية إلى القطار الحديدى ذى الخط العريض، وهو أسـرع من الأول و أتقن، ولا تسل عن شـطط الحمالين الذين ينقلون الأمتعة من قطار بور سـعيد إلى قطار مصر فى طلب الأجرة، وبين القطارين بضعة أقدام؛ فدخلنا مصر قبل غروب الشمس بنصف ساعة من يوم الخميس، وكانت الأجرة من بور سعيد إلى مصر أربعين قرشاً صحيحاً مصرياً ونصف قرش (۲) فبقينا فى مصر ستة أيام.

كان السـيد رحمه اللّه مشغولًا فى بعض تلك الفترة بتصحيح ملازم رسالته «الروض الأريض فى حكم تصرفات المريض»، وقد أرسلها إلى مصـر لتطبع هناك نتيجـةً لتشـدد الحكومـة العثمانيـة فى أمر المطبوعات، حيث كان الأمر يسـتلزم ترخيصاً من الأسـتانة بعد تقديم نسختين من المؤَلَّف، وما يكلّف ذلك من العناء والمال، وأيضاً التشدد غير العادى فى مراقبة المحتويات.

مصر

ثم تطرق السـيد رحمه اللّه إلى وصف عظمـة مصـر، ورخص أسـعارها، ووفرة الأشـياء فيهـا، وعظيم محبـة المصـريين لآل البيت عليهم السـلام، واحترامهم للسـادة الأشـراف، وتحـدّث عن حسن نظم الأـمور فيهـا فى كـلّ شـىء، فجميع الناس فى راحـة خيِّرهم وفاجرهم، وتطرّق إلى سهولة التنقل فيها لانتشار خطوط السكّة

۱- خطوط القطـار على قسـمين: الضـيق القـديم وهو النظام المترى ويبلغ عرض السـكة فيه ۱۰۶۷ ملم، والحديثالقياسـى ويبلغ عرض السكة فيه ۱۴۳۵ ملم.

۲- و كان كل قرش مصرى يعادل قرشين ونصف رائج الشام.

ص: ۱۳۷

الحديـد، حيث فيها محطـة عظيمة فخمة، ليلها كالنهار من الأنوار الكهربائية، وما ليس فيه سـكّة من المناطق، فالعربات تصل إليه، وهى كثيرة؛ ثم ذكر الأهرامـات وعظمتها وما جاورها من آثار، ومرّ على ذكر حديقـة الحيوانات وما فيها من صـنوف الحيوان؛ وقلعـة الجبل ومسجد محمد على باشا؛ و الأنتيكة خانة (۱)؛ ثم تحدّث عن الجامع الأزهر ومشهد رأس الحسين عليه السلام، قال: وعنده مسجد كبير فخم متقن البنيان.. وتصنع فيه كسوة الكعبة الشريفة التى يبعث بها المصريون كلّ سنة.

ثم ذكر مشهد السيدة زينب وتعظيم أهل مصر للمشهدين، وشبّه تعظيمهم بتعظيم العراقيين لمشاهد أئمة أهل البيت عليه السلام.. وذكر من المشاهد: مشـهد السـيدة نفيسة، والإمام الشافعى.. ثم عاد لذكر بعض أهم معالم مصـر، وهى القناطر الخيرية؛ ثم ذكر لقاءه بالشاعر الشـهير الشيخ عبد المحسن الكاظمى الذى زار السيد بصحبة نقيب الأشراف، وكان بينهما كلام حول نظام التعليم فى النجف، ومقارنة ذلك بالنظام المتبع فى الأزهر..

السويس وبور توفيق

قال رحمه اللّه: وبعد أن أقمنا بمصـر ستة أيام، ركبنا القطار الحديدى إلى الإسماعيلية، فالسويس، فبقينا فيها يومين، ثم ركبنا البحر فى مركبٍ يسـمى عبـد المنعم، من المراكب الخديوية، وأكثر عمّاله من المصـريين، بأجرة ۲۵۰ قرشاً مصـرياً صـحيحاً فى الدرجة الثانية و ۱۵۰ فى الدرجة الثالثة الأخيرة.

وأطرى السـيد على مـا رأى من حسن الترتيب فى السويس، فقال: إن ميناءها التى تسـمى «بور توفيق» نسـبةً إلى توفيق باشا الخـديوى، وتبعـد عن البلـد مسافة، ولها قطار حديدى مخصوص يذهب ويجىء كل ساعة مرة، وقد جعل لها مرفأ تصل إليه المراكب العظام إلى جنبه (۲)، فتخطوا الركاب من البر إلى المركب

۱- المتحف.

۲- يريد بذلك رصيف الميناء.

ص: ۱۳۸

بدون حاجة إلى زورق، وعند مدخل المرفأ باب كبير، وعلى جانبه جنديان ينظمان الدخول بالدور، فأول ما تؤخذ أمتعة الركاب، يأخذها الحمالون بالعدد، ويحفظ صاحبها نمرة الحمّال، وذهبت مع بعض رفقائنا لعلّنا نتمكن من الدخول فنختار مكاناً موافقاً، لأننا أخذنا مكاناً فى الدرجة الثانية، وليس فى المركب درجة ثانية، فجعلوا ظهر الدرجة الأولى بدل الدرجة الثانية، وكان خيراً من الدرجة الأولى.

قال رحمه اللّه: فلما وصلنا الباب رأينا جماعة من المغاربة معمّمين، عليهم البرانس يحاولون الدخول، فمنعهم الحرس فلم يمتنعوا، فأعملوا فيهم ضرب السياط، فوقفت مع رفيقى ناحية، فلما رآنى الحرسيان أشارا إلى أن تعال، فأتيت، فقالا: يا شريف! تريد أن تدخل؟ قلت: نعم؛ قالا: تفضل؛ قلت: ورفيقى؟ قالا:

ورفيقك؛ فدخلنا قبل كل أحد، وفى أيدينا أوراق المركب والكرنتينا والجواز؛ واخترنا لأنفسنا ولمن معنا من النساء والرجال أمكنةً حسنة واسعة، ثم جاء رفقاؤنا؛ وأقلع بنا المركب من السويس مساءً، فوصل الطور ضحوة الغد، وبقى هناك ينقل ما حمله إلى الطور من آلات البناء، لأجل بناء محجر فى الطور بقية ذلك اليوم والليلة التى بعده وفى غدها إلى الليل.

ثمّ أقلع من الطور قاصداً جدّة، فوصلناها بتمام الراحة؛ لأن البحر كان ساكناً إلا فى موضعٍ يدعى ببركة فرعون ورأس أم محمد، فهاج البحر، وهاجت المرّة الصفراء بأكثر الحجاج، وذلك بعدما أحرمنا بيسير، وكنا فى الليلة التى أحرمنا فى صبيحتها اغتسلنا فى حمّام فى المركب، منارٍ بالكهرباء، يجىء ماؤه من البحر، ويغسل فيه الإنسان منفرداً بأجرة قليلة؛ ولبسنا ثوبىالإحرام بعدما خلعنا المخيط.

نذر الإحرام قبل الميقات

ص: ۱۳۹

فی الصباح، نـذرنا الإحرام قبل محاذاة الميقات، تخلّصاً من الإشكال [معرفـة محاذاة الميقات للإحرام وعـدم تجاوزه] بناءً على ما هو الحقّ من جواز الإحرام قبل الميقات بالنـذر... وتحـدّث أعلى اللَّه درجاته عن مسألـة النـذر للإحرام، ثمّ تطرّق للكلام عن كيفيّـة تعيين محل الوفاء من خلال الساعة؛ لعدم إمكان تشخيص الأماكن فی البحر، لذا لا يمكن الاعتماد على غير الوقت للدقّة؛ لذلک قال رحمه اللَّه:

وعيّنا مكان الإحرام حين النـذر بالساعة، على أننا إن بقينا إلى المكان الذی تكون فيه الساعة كذا نحرم من ذلک المكان، فلما صارت تلک الساعـة عقدنا الإحرام بالتلبية، وبقينا مستحضـرين للنية مكرّرين للتلبية حتى وصـلنا المكان الذی قال الربان: إنه يحاذی الميقات، وهو «الجحفة» القريبة من رابغ، وآذن الربان بذلک بصـفير المركب، وتجاوزناه كثيراً ونحن نلبی مستحضـرين للنية، ولكن ظهر لنا بعد ذلک أنّ من يريد الاحتياط التام، فلينذر الإحرام من السويس...

إجراءات الوقاية من الأمراض والأوبئة فی ذلک الزمان

قال رحمه اللَّه: ولما وصـلنا جدّة، نزلنا فی سـفينة أقلّتنا إلى جزيرة فی البحر، مسافة ساعة عن جدّة تقريباً، لأجل تبخيرنا وتبخير الفراش والدثار فقط، ليموت ما فيها من الميكروب، خوفاً من سـراية الأمراض الوبائية، وذلک بسـبب مرورنا على مصـر، مع أنها خالية من كل مرض وبائی، وكل من يحضـر من الديار المصـرية يأخذ ورقة من إدارة الصـحة بأنه سالم من كل مرض، فيدفع رسـماً عن ذلک ثلاثة قروش صـحيحة وكسـراً؛ فسـرنا محرمين والبحر هائج، والشـمس تصـهرنا، والبحر يقـذف علينـا من ميـاهه، حتى وصـلنا الجزيرة بغـاية المشـقة، فوجدنا السـفن حولها مملوءةً بالحجاج، والشمس على رؤوسهم، ومنعوا الناس من دخول الجزيرة تحكّماً بلا فائدة مظنونة ولا موهومة، إلى أن أخذوا الفراش، ووضـعوه فی المبخرة ما يقرب من ثلاثة أرباع الساعة حتى دخل البخار فی أعماقه، ورشوه بالفينيک، ثم أذنوا للركاب بـدخول الجزيرة من باب مخصوص، وأوقفوهم فی مكان مخصوص، ثم أمروهم بالخروج من باب آخر، كأنهم قطيع غنم يصرفه الراعی كيف يشاء، وهذه الجزيرة لا ماء فيه ولا كلأ، فأضرّ العطش بهذا الجمع

ص: ۱۴۰

المحتشد.. وبعد هذا أعطوا ورقةً بأسماء الراكبين فی السفينة، ليأذن لهم أهل الميناء بدخول البلد.

الوصول إلى جدة

ثم سرنا من الجزيرة قاصـدين جدّة فی حرّ الظهيرة، والأمواج تفيض على الوجوه والرؤوس والأبدان والأردية والأزر، والسـفينة تصـعد تارةً وتهبط أخرى، ونحن فی خوف من الغرق لشـدّة الأمواج، ولولا الـذهاب إلى الجزيرة لوصـلنا الميناء بسـهولة.. وعنـد الوصول إلى المينـاء، أخرجونـا من السـفينة وأدخلونـا من بـاب، ونحّوا السـفينة إلى بـاب آخر، وفيهـا الأمتعـة مع الملاحين، ثم أتوا بنا إلى شبّاك، والمأمور داخل الشـباك، فقال إنسان: ادفعوا عن كل شـخص نصف مجيـدی، فـدفعنا؛ وأخذنا أوراقاً، فمشوا بنا قليلًا وأخذوا الأوراق، وقرضوهـا بمقراض، ثم أتوا بنـا إلى مكـان قريب من هـذا المكان، وأخـذوا جوازات السـفر وقالوا: ادفعوا عن كل جواز غرشـين وربعاً صحيحة، فدفعنا، وأعطوا كل واحد ورقة علامة على أنه دفع ما عليه، ليأذن له البوّاب بالخروج؛ فخرجنا، ووجدنا السـفينة واقفة، فأخذنا منها الأمتعـة؛ وبسبب قلّة الركاب، لم يسـرق منها شـیء، ولكن لا تسل عن الذين جاءوا بعدنا عصـراً، ولم يصـلوا إلى أمتعتهم إلا بعد ظلام الليل، ماذا جرى عليهم؟! وكم فقد من أمتعتهم؟ وكم باكية لفقد نفقتها التی وضعتها داخل خرجها.

وبعد فراغنا من مزاولة هذه المشاق دخلنا البلد، ونزلنا داراً عالية البنيان متسـعة البيوت، فيها أربعة طبقات، كما هو الحال فی أكثر بيوت جـدة، والأـجرة عن كل نفس ثلاثـة قروش صـحيحة يومياً، فبقينا فی جـدّة سـتة أيام ننتظر أمتعتنا المشـحونة من بيروت، فبعـد وصولها ومعانـاة مشـقة التفتيش فی الكمرك، سافرنـا قاصـدين مكـة المكرمـة؛ وفی جـدّة زرنـا قبر أمّنـا حواء، وقبرها خارج البلـدة، مفرط فی الطول.

ص: ۱۴۱

مدينة جدة

وجـدّة مدينـة مسوّرة، لها ثلاثـة أبواب، وفيها قناصل الـدول، ولا يؤذن لغير المسـلمين فى الخروج خارج السور، ويوجـد فيها كثير من السودان الغُبر الألوان، وما فيها إلا الجائع العريان، وأسعارها غالية، وماؤها أجاج منتن، يتجرّعه الشارب ولا يكاد يسيغه، والسقاء الصغير منه بقرش واحد صحيح، ولكن ظهر لنا بعد ذلك أن فيها ماء حلواً فى الصهاريج من ماء المطر لم نعلم به.

الخروج من جدّة

وعن الذهاب من جدّة إلى مكة قال رحمه اللّه: وكانت أجرة البعير من جدّة إلى مكة تسع مجيديات وربعاً وغرشـين صـحيحين، ولكن لا يصل إلى الجمّال منها إلا اليسـير، والباقى يأخـذه المخرج باسم الحكومـة؛ وقطع الأجرة بأمر من الحاكم، وكل جمّال يأخـذ كوشاناً بعـدد ما معه من الأباعر، بعـد دفع الرسم المفروض عليه، والذى ليس معه كوشان لا يدعونه يدخل مكّة حتى يؤخذ منه الرسم، والذى يركب مع الأـعراب خـارج جـدّة يأخـذون منه نصف هـذه الأـجرة أو ثلثهـا، وهم يصـيحون فى الطريق: يـارويجب، يـارويجب. وعند الخروج من باب جدّة أخذوا عن كل بعير غرشـين صـحيحين، وبسبب الوقوف بالباب، سـرقت أمتعة لكثير من الحجاج، وأكثر سرّاقها أفراد العساكر النظاميّة الموضوعين لحفظ الأمن؛ وسُرق لنا إبريق نحاس.

وسـرنا من جـدّة إلى بحرة فوصـلناها بعـد الغروب؛ وأدركتنـا صـلاة الظهرين فى الطريق، لأننـا خرجنـا من جـدّة قبـل الظهر، فنزلت أنا وزميلى مـن الخشب (۱) وتوضـئنا أولًا، ثم سـرنا قليلًا وصـلّينا الظهر، ثم سـرنا كذلك وصلّينا العصر؛ لأنّه لا يمكن الانقطاع عن القافلة لحظةً من خوف الطريق، مع أن العساكر النظاميّة

۱- و هو مركب طويل له شقتان يركب فيه اثنان على بعير واحد.

ص: ۱۴۲

منتشرة من جدّة إلى مكة، فى السهول وعلى رؤوس الجبال، ينفخون فى بوقاتهم، فيجيبهم الآخرون؛ ولكن هؤلاء العساكر لا يفترون عن سرقة ما يمكنهم من أمتعة الحجّاج؛ وصادف أنّه بينما نحن نسير، إذا بامرأتين من رفقائنا راكبتين فى خشب شامى وقف بهما البعير عجزاً عن السير، وأباعر الحجاز دقيقة الساق لا تقوى على حمل الخشب الشامى، فنزلت أنا ورفيقى نمشى وأركبناهما مكاننا إلى بحرة، فوصلناها بعد الغروب.

بحرة

وهى فى وسط الطريق بين جدّة ومكة، وكلّها قبائج مملوءة من القراد الذى يلتصق بالأجساد، وماؤها كماء جدّة، وليس فيها مسكن إلا أرض محاطة بقصب ونحوه ينزل فيها الحجاج، ويبذل لهم أهلها الماء والضياء والحطب لقاء دراهم يأخذونها، وقد أتونا قريباً من نصف الليل بوجوههم السوداء الكالحة، بأيديهم المشاعل، وعلى متونهم البنادق، وجعلوا يوقظون الحجّاج بعنف وإزعاج، وقد أخذهم النعاس، وأضناهم التعب، ويطلبون منهم أجرة ويشتطّون فى المقدار، ويعنّفون بالناس كأنّهم يأخذون جزية، وكأنّهم زبانية جهنم أو منكر ونكير؛ ومن لم يدفع لهم كما طلبوا، وهو أضعاف ما فُرض لهم، أوسعوه شتماً، بل وضرباً إن تمادى فى الامتناع؛ وإذا هدّدهم بالحاكم، سبّوه وسبّوا الحاكم، فقبحوا من قوم سوء.

ثم سرنا من بحرة صباحاً، فوصلنا مكّة عند العصر، وقد سلبت فى هذا الطريق قوافل قبلنا وبعدنا ومعنا، وجرى قتل ونهب فى أكثر الأوقات، أما نحن فلم نر شيئاً من ذلك، والحمد للّه.

حدود الحرم

هناك أحكام تتعلق بحدود الحرم والمشاعر، منها حرمة الدخول لغير المحرم، ولزوم الوقوف فى نفس عرفات والمكث فى المزدلفة والمبيت فى منى، وكلّها لها

ص: ۱۴۳

حدود معلومة منذ القدم، ويحدّثنا السيد الأمين رحمه اللَّه عن هذه العلامات التى كانت واضحة، عندما خرجوا من جدّة ووصلوا إلى مكة، قال رحمه اللَّه: وقبل الوصول لمكّة المشرّفة رأينا العلامات الموضوعة فى أوّل الحرم من جهة جدّة، فقرأنا الأدعية الواردة عند دخول الحرم، ولم نتمكّن من الغسل.

مكّة المكرّمة

ونزلنا فى مكة فى شعب عامر، فى دار رجل يمانى قاطن فى مكة، فى دار جيدة، وكان وصولنا إليها قبل هلال ذى الحجة بيومين، ورأينا الهلال ليلة الجمعة خفيفاً جداً قبل مغيبه بيسير، وكان ذلك من جملة نعمه تعالى علينا، فكان الوقوف بعرفة فى يوم واحد لجميع المسلمين.

وبعد أن أدّوا عمرة التمتع، قال رحمه اللَّه: وفى يوم التروية ثامن ذى الحجة، اغتسلنا وأحرمنا للحج من مقام إبراهيم عليه السلام، وخرجنا قاصدين منى، فوصلناها مساءاً، ونزلنا قرب مسجد الخيف، وصلينا فيه تلك الليلة المغرب والعشاء، وخرجنا منها صباحاً إلى عرفات، وقد وضعت علامات بآخر الحرم من جهة عرفات، فنوينا الوقوف بعرفات من الزوال إلى الغروب، وكنا فى مجموع هذه المدّة مشغولين بالدعاء والتضرّع إلى اللَّه تعالى لنا ولإخواننا المؤمنين، وزرنا الإمام الحسين عليه السلام... وبعد الغروب نفرنا من عرفات راجعين إلى المزدلفة وهى المشعر، وتسمى جمعاً أيضاً، وهى بين منى وعرفات، وقد وضعت علامات لحدود عرفات من جهة المشعر، لأنّه لا يجوز الخروج من حدود عرفات قبل الغروب...

والمأزمان بالهمز أيضاً فى تلك الأماكن تثنية مأزم، والمأزم الطريق الضيّق بين جبلين، والمأزمان أحدهما مضيق بين جمع وعرفة والآخر بين مكة ومنى...

قال رحمه اللَّه: وبذلك النفر يتذكّر الإنسان يوم النشور، فبتنا فى المشعر، والتقطنا منه الحصيّات حسب الاستحباب.

ص: ۱۴۴

یوم عید النحر

وفیالغد رجعنا إلى منى، وهو يوم عید النحر [الأضحى] وبعد الوصول بيسير ذهبنا إلى مكان بيع الأضاحى، فاشترينا هدياً بليرة عثمانية، حسب ما طلب بائعه، ولم نساومه لكراهة المساومة فيه، وذبحناه وتصدّقنا بثلثه، وأهدينا ثلثه، وكانت الجنود تمنع من حمل اللحوم إلى الخيم، خوفاً من انتشار الروائح الكريهة، على أنه لم يكن منعاً شديداً، فأخذنا شيئاً من الهدى لنأكل منه حسب الاستحباب؛ ومن لم ير ذلك المكان، لا يعلم حقيقة معنى قول القائل «مجزّرين كالأضاحى»، وبعد الزوال عمدت جنود الحكومة إلى جمع ما بقى من تلك اللحوم والأوساخ المطروحة فى مكان الذبح، فدفنتها فى حفر أعدّت لذلك، ولم يحدث فى الحاج مرض فى تلك السنة فى منى وعرفات، وكانوا بتمام الصحّة، وكان الحاجّ متوسط العدد.

ويبدو من وصف السيد رحمه اللّه أنّه لم يكن هناك زحام كالذى نشهده اليوم، ولو نسبياً، حيث لم يتحدّث عن تدافع ولا اختناقات ولا غيرها، حتى فى أعمال الحج من الرجم والطواف عندما تطرّق لها، كما سنرى، فإنّه أتمّها بسهولة ويسر فى نفس اليوم، حيث فى رحلته الثانية سنة ۱۳۴۱ ه ذكر الزحام الذى كان ضمن طيات الكلام تلميحاً.

الجمرات الثلاث

وبعد النحر ذهبنا لرمى جمرة العقبة [هكذا أورد السيد رحمه اللّه الترتيب] وهى أوّل جمرة من جهة مكّة، وبعدها جمرة تسمى الوسطى، وبعدها جمرة تسمى الأولى لأنها ترمى أولًا فى الأيام التى ترمى فيها الجمرات الثلاث، وجمرة العقبة تسمى الأخيرة، لأنها آخر ما يرمى إذا رُمِيَت الجمرات الثلاث، وذلك فى الحادى عشر والثانى عشر من ذى الحجة... أما فى يوم النحر، فلا ترمى إلا جمرة العقبة فقط، وأصل الجمرة مجتمع الحصا.

وجمرة العقبة بناء فى سفح الجبل، ظهرها إلى الجبل ووجهها إلى الطريق الذى

ص: ۱۴۵

بين مكّة ومنى، والوارد استقبالها فى الرمى، أى‌رميها من قبل وجهها لا رميها من أعلاها، بحيث يصعد فى الجبل ويرميها من فوقها، وسميت جمرة العقبة لوجود عقبة هناك ليست بعالية، فإن الطريق من مكّة إلى منى يأخذ فى علوّ يسير، لا يدرك حتى يصل إلى قريب منى، فهناك ترى عقبة يسيرة، تصعدها فتصل إلى منى؛ وهى سهل فسيح تكتنفه جبال شاهقة من الجنوب والشمال، وكذلك عرفات، وأكثر بلاد الحجاز طرقها فى سهول تكتنفها جبال.

بئر زمزم

ولم يكن بمكة قديماً غير ماء بئر زمزم، التى هى قرب الكعبة المشرّفة، وماؤها لا يخلو من مجوجة يسيرة، وكان الحجّاج يحملون الماء معهم من مكّة إلى منى وعرفات عند خروجهم إليها يوم الثامن من ذى الحجّة، ولذلك سمّى يوم التروية.

العودة إلى مكّة

وبعد أن رمينا جمرة العقبة يوم العيد حلقنا، وفى اليوم الثانى رجعنا إلى مكّة، وطفنا طواف الحج، وسعينا بين الصفا والمروة، وطفنا طواف النساء، وصلّينا صلاة الطوافين، وذلك لأنّ المستحب الرجوع إلى مكّة يوم العيد بعد الرمى والحلق، لأجل طواف الحج، الذى يسمى طواف الزيارة، أى‌زيارة البيت، ولأجل السعى وطواف النساء... فإن لم يتمكّن من الرجوع إلى مكة يوم العيد ففى الذى بعده، وحيث لم يمكننا الذهاب يوم العيد ذهبنا فى الحادى عشر، ثم عدنا إلى منى فبتنا بها ...

الزينة بمنى

يبدو من خلال ما ذكره سيدنا المقدّس رحمه اللَّه أنّ هناك طقوساً كانت تجرى للاحتفال بالعيد فى منى، ونقل أعلى اللَّه درجاته بعض ما كان يجرى بقوله: وفى

ص: ۱۴۶

تینک اللیلتین، کانت منی فی زینهٍ عظیمه، تضرب بها المدافع من مکان المحملین الشامی والمصری، فیتردد صداها فی تلک الأودیه والجبال، وتعلو الحرّاقات فی الجوّ بألوانها المختلفه البدیعه الشکل.

ثم قال رحمه اللّه عن باقی أعمال الحج: ورمینا الجمرات الثلاث فی ذینک الیومین ثمّ عدنا إلی مکّه یوم الثانی عشر بعد الظهر.

وکما فی کل عام، یکون فی الحج بعض الزعماء، وذوی الجاه، وفی تلک السنه کان منهم جماعه ذکر منهم رحمه اللّه: امرأه من ملوک الهند، وبعض ملوک الغرب، ووزیر الصدر فی إیران میرزا علی أصغر خان الملقب أمین السلطان.

المزارات بمکّه

وتشرّفنا فی أثناء إقامتنا بمکّه بزیاره قبور: أبی طالب، وعبد المطّلب، وعبد مناف علیهم السلام، وخدیجه بنت خویلد أم المؤمنین علیها السلام، ومولد النبی صلی الله علیه و آله ومولد فاطمه الزهراء علیها السلام وغیرها من الأماکن المشرّفه. وصعدنا إلی جبل أبی قبیس، وهو مشرف علی الکعبه المشرّفه.

ص: ۱۴۷

الدخول إلى الكعبة المشرّفة

ودخلنا ليلًا إلى الكعبة المشرّفة، وصلّينا في جوانبها الأربعة، وعلى الرخامة الحمراء، وهي ما بين العمود الأخير الذي يلي حجر إسماعيل، والذي قبله، فإن فيها ثلاثة أعمدة من خشب، ممتدة من وسط الحائط الذي بين الركن اليماني ... إلى وسط الحائط الذي يلي حجر إسماعيل وباب الكعبة المشرّفة، قريب من الركن الذي فيه الحجر الأسود، عال عن الأرض بأزيد من قامة، يُصعد إليه بدرجٍ منقول، وقوّام الكعبة الذين بيدهم مفاتيحها هم بنو شيبة منذ عهد الجاهليّة إلى اليوم، ورأينا داخل الكعبة حرّاً شديداً لعدم المنافذ، مع أن ذلك كان في وسط الشتاء، لكنّ شتاء الحجاز كقيظ الشام، وقرأنا في حائطها الداخل، الذي بين الركن اليماني والركن الذي يلي حجر إسماعيل تاريخ تجديد رخامها الداخل من أبي جعفر المنصور المستنصر باللَّه في حدود الستمائة، وهذا هو أبو جعفر منصور بن الظاهر ويلقّب بالمستنصر، وهو والد المستعصم آخر ملوك بني العبّاس، وتاريخ آخر بتجديده من السلطان محمد خان في حدود الثمانمائة، وآخر من بعض الملوك.

الشريف عون

وكان حج السيّد رحمه اللَّه في إمارة الشريف عون، وولاية أحمد باشا والي الحجاز. أما عن علاقة أمير مكة بأهلها فقال رحمه اللَّه: وكان أهل مكة يخافون الشريف عوناً ويبغضونه، خوفاً وبغضاً شديدين، ويميلون إلى ابن أخيه الشريف علي، الذي تولّى إمارة مكة بعد وفاته. ووالي الحجاز من قبل الدولة العثمانيّة ليس له مع الشريف من الأمر شيء، وعنده عساكر نظاميّة؛ وعند الشريف عسكر يسمّى البيشة.

وبقي سيدنا رحمه اللَّه في مكّة إلى الثامن والعشرين من ذي الحجّة الحرام، حيث خرج منها بطريق البر مع أمير الحج الشامي عبد الرحمن باشا اليوسف، من

ص: ۱۴۸

أمراء أكراد صالحيّة دمشق.

قال رحمه اللّه: فخرجنا من مكّة إلى الشيخ محمود، وهو بمسافة ساعة عن مكّة، وكانت أجرة الخشب الشامى من مكة المكرّمة إلى دمشق اثنين وأربعين ذهباً عثمانياً فى حمل الحاج على آغا الشيرازى، وذلك مع أجرة الذهاب والإياب إلى عرفات. وأجرة الكجاوى اثنين وثلاثين ذهباً، والراكب أحد عشر ذهباً.

والشيخ محمود مسمى باسم ولى مدفون هناك، قال رحمه اللّه: ثم ارتحلنا صباحاً من الشيخ محمود إلى وادى فاطمة كما يسميها أهل الشام، وأهل العراق يسمونها وادى الشريف، وهو الذى كان يسمى بمرّ الظهران، أو بطن مرّ، وهو مكان فيه نخل ونهر جار وهو [على] مسافة أربعة فراسخ عن مكة تقريباً، يباع فيه لحم الضأن الجيّد، والبيض والبطيخ الأخضر والطماطم والليمون الحامض الصغير الأخضر... وغير ذلك، فبتنا فيه ورحلنا منه صباحاً إلى عُسفان، فوصلناه مساءاً، وهو مكان مشهور، له ذكر، وهو الذى حبس فيه هشام بن الحكم الفرزدق الشاعر لمّا مدح الإمام زين العابدين عليه السلام بالميميّة المشهورة.

والمسافة بين عسفان ووادى فاطمة نحو من اثنتى عشرة ساعة، وريّضوا نحواً من ساعة عند منتصف النهار كما هى العادة، ويسمونها راضة الظهر؛ فيبقون الأحمال على الجمال، ولا ينصبون الخيام، فيتغدّون ويصلّون ثم يسيرون.

وعادة الركب الشامى أن يضرب مدفعاً عند النزول وآخر عند الرحيل؛ ولمّا لم يتحقق زوال الشمس قبل المسير صلّينا الظهرين فى أثناء السير، وحملنا الماء من وادى فاطمة إلى عسفان، وقيل: إن بعسفان ماءاً، لكن يتعسّر الوصول إليه لدخول الليل، ومنع العسكر المحافظ على الحجاج من الخروج خارج «الزنجير»، أى العسكر المحيط بالحاج من العسكر النظامى والجندرمة، الذين رسمهم أن يسيروا يمين الحاج وشماله حالة السير، ويحيطون به عند النزول، فلا يدعون فى الليل أحداً يخرج ولا أحداً يلج إذا لم يعرفوه، فيصيحون به ثلاث مرات، فإن لم يجب رموه

ص: ۱۴۹

فقتلوه؛ كما وقع ذلك لبعض الحجاج الذين لا يعرفون العربية، وطول الليل يتصارخون، فيصيح أحدهم «كركون» فيجيبه الذى يليه «حازرون»، وهكذا دوراً حتى تنتهى النوبة إلى الأول، فلا يزال هذا دأبهم طول الليل.

وفى الأعيان ذكر السيد رحمه اللّه هؤلاء الحرس المرافقين للحاج فقال عنهم:

و الجمال قطاران تحيط بهما العساكر السلطانية يميناً و شمالًا، ففى أحد الجانبين عسكر شاهانى على بغال، و فى الجانب الآخر «جندرمة» على خيل ذكور؛ و بين كل واحد و آخر مرمى حجر، و أمام الكل قائد معه مدفع على جمل؛ فإذا وصل الحاج إلى المنزل أقام قسم من هذا العسكر بالتناوب حول الحاج ببنادقهم و بين الواحد و الآخر مرمى حجر فيصيح الأول «كركون» فيجيبه الآخر «حازرون» و يصيح للذى بجانبه كركون فيجيبه حازرون حتى ينتهى الدور و يبدأ غيره فلا يزالون كذلك إلى الصبح (1).

قال رحمه اللّه: وفى ساقة الحاج عسكر من عرب عقيل، موظفون من طرف الحكومة لحمل الضعيف والمنقطع به؛ لكنّهم لا يفعلون ذلك إن لم يسلبوه.

النظام فى القافلة الشاميّة

وجاء السيد رحمه اللّه على ذكر النظام المتّبع فى مسير قافلة الحج الشاميّة، فقال: وكان للحاج الشامى من الترتيب والنظام ما يوجب راحة الحجاج؛ من ذلك أنّ السير يكون بقطارين أحدهما إلى اليمين والآخر إلى اليسار. والحاج قوافل متعددة، ولكل واحدة رئيس، يسمى «مقوماً»، ويسميه العجم وأهل العراق «حملدار»، فيسير كل رئيس بقافلته، ميمنة وميسرة، هذا أولًا وذاك بعده، وهكذا فى كل يوم، وجمال كل قافلة لا يتغيّر مكانها، فمن كان بعيره أولًا فى أول يوم بقى كذلك إلى آخر يوم، ومن كان فى الميمنة، لا يتحول إلى الميسرة، وبالعكس.

۱- أعيان الشيعة ۱۰: ۳۶۳- ۳۶۴.

ص: ۱۵۰

وإذا سارت الجمال ليلًا، حمل قائد كل جمل، ويسمّى عكّاماً، فانوساً بيده؛ فيُرى لهم من بعيد صورة جميلة، فيرى الرائى مصابيح تتقد فى البر سائرةً صفّين، ولا يرى غيرها. وخيام كل قافلة لها جمال مخصوصة وأناس مخصوصون يسمّون «المهاترة» يسبقون الحجّاج، وينصبونها أول يوم على ترتيب خاص لا يتعدونه إلى آخر السفر، وخيام كل قافلة فى مكان مخصوص لا تتعداه، هذه أولًا، وتلك بعدها، وهكذا. وكذلك كل خيمة لها مكان مخصوص لا تتعداه؛ وخيام كل قافلة كأنها بلد بنفسها، بأزقّتها وبيوتها، لا تتغير، فلو ضلّ إنسان فى حال السير أو النزول، يهتدى إلى مكانه بأيسر ما يكون، حتى كأنّه فى بلده.

وفى ذلك اليوم [يوم المسير من وادى فاطمة إلى عسفان] وقع كثير من الأباعر بأحمالها فى أثناء الطريق، ما يقرب من خمسين بعيراً، بعضها قضى نحبه فى الحال، وتناولته شفار السودان الذين يسيرون مشاةً مع الحجاج، فقطّعته إرباً إرباً، وربّما كان ذلك قبل خروج روحه؛ وبعضها سلم بعد وضع حمله على غيره، ومداواته بالفصد فى أنفه، وصبّ الماء على سنامه وبدنه، وذلك على ما قالوا بسبب سمنها واشتداد الحر، مع أن الفصل شتاء، ولكن من «البارخانة» التى نحن فيها، لم يمت بعير واحد. ورأينا هلال المحرّم بعسفان، ليلة السبت مفتتح ۱۳۲۲. وفى عسفان بئر يسمى بئر التفلة، يقال: إن النبى صلى الله عليه و آله تفل فيها فعذب ماؤها.

الخُليص وتعرّض بعض الحاج للسلب

قال السيد رحمه اللّه: وخرجنا صباحاً من عسفان، قاصدين الخُليص، بوزن المصغّر؛ فوصلناها منتصف النهار، وماؤها لا بأس به، وفيها البطيخ الأخضر الجيد والقثاء والبصل واللحم وغير ذلك، وفيها بعض النخل، وهى مسكونة من الأعراب، ثم سرنا منها صباحاً، فثار بعض الأعراب على رجلين من أهل معرّة النعمان، معهما بعير وأحدهما راكب عليه، فجرحوا الماشى وأخذوا هميانه بما فيه من النقود وأخذوا الراكب وجمله، فذهبوا به، ولا يعلم رفيقه حى أم ميت؛ رأيته

ص: ۱۵۱

یمشی فی الطریق مضرّجاً بدمائه وقد ورم رأسه من الشمس، حتی أخفی الورم عینیه. وهؤلاء الأعراب- کما قال لنا شیخ الفراشین حینما کنا فی داره فی المدینة المنورة وعنده بدوی- فقال مشیراً إلیه: هذا وقومه یشتغلون فی وقت الحج بسلب الحجاج، فإذا انقضی الموسم اشتغلوا بالحرب والغارة بینهم؛ لا شغل لهم إلا ذلک.

فوصلنا إلی الکَظیمة- بفتح الکاف- قبل الغروب بأربع ساعات، وفیها بئر عظیمة وهی مسکونة من الأعراب، یباع فیها التمر والبطیخ واللحم وغیرها، وفیها من البنادق الدولیة من کل جنس، حتی إننی رأیت فیها بندقیةً إیرانیة؛ وفی مائها ملوحة ورحلنا منها لیلًا فی الساعة الثامنة والنصف إلی رابغ، وإنما مشوا لیلًا لبعد المنزل، وخوف سقوط الأباعر من الحر، کما جری بین وادی فاطمة وعسفان؛ فوصلناها عند الغروب، وهی الجحفة أو قریب منها.

وفی محلٍّ یبعد عنها بعض البعد مسجد غدیر خم، وهو مسجد بُنی فی الموضع الذی نصب فیه رسول اللّه صلی الله علیه و آله علیاً علیه السلام وصیاً وخلیفةً بعده، فنزل فی ذلک الموضع فی حر الظهیرة، وخطب الناس فقال: ألست أولی بکم من أنفسکم؟ فقالوا: بلی.

قال: من کنت مولاه، فهذا علی مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحقّ معه کیفما دار، فی حدیث مشهور. وکان المسجد متهدّماً، فبناه بعض ملوک الهند من الشیعة، ولم یمکنّا الذهاب إلیه لخوف الطریق.

ورابغ میناء علی شاطئ البحر الأحمر، عامرة وماؤها شروب، وفیها قلعة صغیرة بعیدة عن البلد، یسکنها شرذمة من العسکر العثمانی، وحین وصول الحجاج رفعوا العلم العثمانی، وأطلقوا عدّة مدافع کما هی العادة؛ لکن العداوة بینهم وبین أهل رابغ متأصّلة، فلا یجسرون علی الخروج إلی السوق أو لجلب الماء إذا کانوا دون العشرة. وفیها من البنادق الدولیة المختلفة الأجناس ما لا یحصی عدده، وهو أزید مما فی الکظیمة، وکذلک أکثر بلاد الحجاز. وجملة من الحاج یشترون

ص: ۱۵۲

البنادق بثمن بخس ويخفونها فى أمتعتهم خوفاً من التفتيش إذا دخلوا الشام. وفيها دهن البيلسان، الـذى تـداوى به الجراح والرضوض؛ يجنيه الأعراب من شجر هناك، وقد اشترينا منه قنينةً، فلما فتحناها وجدنا أكثرها ماءً؛ وشيئاً قليلًا من الدهن على وجه الماء، فكأنّ هؤلاء الأعراب أخذوا على أنفسهم النهب فى كل شىء.

وثارت فيها العواصف والعجاج الشديد، وقد وصلناها عند الغروب، فبقينا فيها تلك الليلة، ويومها إلى ما بعد العصر، ثم رحلنا منها إلى مكان ليس بمعدٍّ للنزول، فسرنا نحواً من ست ساعات، فوصلناه الساعة الرابعة ليلًا. وبعد الفجر رحلنا منه فوصلنا ضُحى إلى بئر الشيخ، وكانت هى المنزل، لكن خوف سقوط الأباعر من الحر، منع من السير رأساً إليها من رابغ، مع كون الفصل شتاءاً، فسقوا الدواب من تلك البئر، وفى أثناء الطريق آبار كثيرة ماؤها شروب...

ثم رحلنا إلى مكان ليس بمنزل ولا فيه ماء، ثم رحلنا منه إلى المستورة، ورحلنا ضحى من المستورة إلى بئر الحصان فوصلناها بعد المغرب؛ وعند الفجر رحلنا منها إلى خلص، ثم منها إلى بئر الدراويش؛ فوجدنا ماءه قليلًا، والذين تأخروا لم يستقوا شيئاً، ومات بعض الحمير والأباعر تلك الليلة من العطش، ثم رحلنا منها الساعة السادسة ليلًا إلى المدينة المنورة.

بعض صعوبات الطريق

ذكر السيد رحمه اللّه فى الأعيان أموراً لم يذكرها عندما سرد هذه الرحلة فى الجزء الثانى من معادن الجواهر، لذا لزم إثباتها، لأنّها تعكس بعض مصاعب السفر فى تلك الفترة، قال أعلى اللّه مقامه: و لما وصلنا إلى مكان يدعى المضيق، وهو طريق ضيّق بين جبلين، جاء الخبر إلى أمير الحاج عبد الرحمن باشا اليوسف الكردى بأن الأعراب وقفوا ببنادقهم على أعلى الجبلين، فإذا مر الحاج تناولوه بالرصاص، فلا يفلت منهم أحد.

ص: ۱۵۳

و كان لشيوخهم «خاوة» على السلطان، فكان يبعث بها من استنبول، فكان يأكلها من يتولّى إمارة الحاج مع مشاركة غيره، فأرسل أمير الحاج تلك الليلة إلى شيوخهم فأرضاهم، و جمع البيارق التى توضع عادةً فوق الحجاج و نصبها حوله ليوهم الأعراب أن معه عسكراً كثيراً، و سار الحاج فى اليوم الثانى فى ذلك المضيق بسلام، و لم نزل نسير حتى وردنا المدينة المنورة (۱).

المدينة المنورة

دخلنا المدينة المنورة يوم الأحد بعد الظهر، وزال العناء، واشتدّ الفرح والسرور لمّا شاهدنا القبة الخضراء الشريفة والمنائر المنيفة؛ من جميع الحاج.

ودخلنا من باب رأينا فى أعلاه مدفعين خارجين من كوتين، ونزلنا فى بستان خارج السور، فيه دار، وفيه نخل وبركة ماء يستقى لها على الناضح؛ وهو ملك لبعض «الطواشية» خدام الحرم الشريف النبوى، ويسكنه ويقوم بأعماله بعض النخاولة، فزرنا الحضرة الشريفة النبوية، وقلّبنا الشفاه على تلك الأعتاب الشريفة، وفزنا بنعمة الدخول إلى الحجرة المطهرة بسبب أوراق مأخوذة من الأستانة، تتضمّن الإذن بخدمة الحجرة المنيفة حسب المعتاد.

الدخول إلى الحجرة الشريفة

فذهبنا أولًا إلى بيت شيخ الفراشين لتقييد أوراق الرخصة عنده، وقال لنا:

تأتون فى الساعة الحادية عشرة إلى الدكّة التى فى الحرم المطهّر، حيث يجىء المحافظ وهو عثمان باشا، فحضرنا فى الوقت المضروب، فوجدنا شيخ الفراشين هناك، ثم جاء ضابط عثمانى يحمل نياشين كثيرة، فقال لنا شيخ الفراشين هذا خفية؛ وهو من الشام، فعرّفه بنا وقال له: هؤلاء من أقارب الشيخ أبى الهدى، فقال: ما أكثر من يقرب بأبى الهدى، ثم التفت إلىّ وقال: ما اسم أقارب أبى الهدى الذين فى حلب،

۱- المصدر نفسه: ۳۶۴.

ص: ۱۵۴

وفی موضع کذا وکذا؟ فقال له شیخ الفراشین: وهل کل من کان أقارب أبی الهدی یلزمه معرفة جمیع عشیرته وهم متفرقون فی البلاد؟! فسکت؛ ثم جاء عثمان باشا محافظ المدینة، وشیخ الحرم لابساً العمامة البیضاء والجبّة والقباء، وهو رجل أبیض اللون، أبیض اللحیة، طویل القامة، فقام الحاضرون کلّهم وقبّلوا یده، أما أنا فلم أقبّلها.

فجلس قلیلًا، وأذّن المؤذن لصلاة المغرب، وکان ذلک الضابط إلی جانبی فی الصف، فقال لی: أنا فی کل سنة أحج وأزور عن السلطان، وجعل یعلّمنی کیفیّة الدخول إلی الحجرة الشریفة، فشکرته. وبعد الفراغ من صلاة المغرب، أتونا بفرجتین بیضاوتین وأتوه بعمامة بیضاء، أما أنا فاکتفوا بعمامتی الخضراء؛ وهکذا کل من یرید الدخول یؤتی له بفرجیة، وهو ثوب أبیض محیط بالبدن، یلبسه فوق ثیابه ویتعمم بعمامة بیضاء إن لم یکن متعمماً؛ فدخل محافظ المدینة لابساً الفرجیة، وخلفه المأذون لهم بالدخول، وفی ید کل منهم شمعة صغیرة، فیضیئها ویشعل أحد القنادیل التی داخل الحجرة الشریفة لیتشرّف بالخدمة؛ ویزور المحافظ ومن معه النبی صلی الله علیه و آله ثم صاحبیه، ثم الزهراء، یتلو لهم الزیارة بعض السدنة، وهم یتابعونه.

و هذا الدخول إنما هو بین الحاجز الحدیدی الدائر حول الحجرة الشریفة وبینها، بحیث یمشی الداخل حول حائط الحجرة الشریفة، أما نفس الحجرة فبابها مسدود، ولا یمکن الدخول إلیها ولا رؤیة القبر الشریف.

مزارات المدینة

قال السید رحمه اللّه: وتشرّفنا بزیارة سید الشهداء حمزة بأحد، وسائر الشهداء؛ والمسافة بین المدینة المنورة وأحد نحو من فرسخ، ولم نتمکّن من زیارة مسجد قبا، مع أنه لا یزید عن هذه المسافة لشدّة الخوف، فضلًا عن مسجد الفضیخ ومشربة أم إبراهیم وغیرها؛ لکننا تشرّفنا بزیارتهما بعد ذلک، فذهبنا من

ص: ۱۵۵

الشام فی السكة الحديدية وزرناهما بصحبة عرب العوالی.

وبقينا فی المدينة المنورة ستة أيام وخرجنا منها بعد الظهر.

طريق الرجوع إلى الشام ومحطاته

كان طريق السير من المدينة إلى الشام يمرّ بمناطق مختلفة، والمسير يتم فی طريق معلوم، وهناک أماكن خاصة للنزول معدّة لذلک لأجل الراحة والتزوّد بالماء والطعام؛ وكما وصف السيد رحمه اللّه بعض هذه المحطات فی طريقه من جدة إلى مكة، ومن مكة إلى المدينة كما مر، فإنّه يستمرّ بالوصف على هذا المنوال عند الخروج من المدينة قاصداً الشام؛ قال رحمه اللّه يذكر المناطق التی مرّ بها بعد الخروج من المدينة المنورة:

الجرف، وهو معسكر المدينة قديماً، وهو على نحو فرسخ منها، ورحلنا من الجرف الساعة السادسة ليلًا إلى بئر جبر فوصلناها أول النهار، وقبل الغروب رحلنا منها إلى اصطبل عنتر، فوصلناه قبل المغرب من اليوم الثانی، فبتنا فيه، وبعد العصر رحلنا منه إلى هدية فوصلناها صباحاً، وماؤها مالح لكنه قريب من وجه الأرض، وفی أی‌محل حُفر يخرج الماء، فأقمنا بها إلى ما بعد العصر، ورحلنا إلى براقة، فوصلناها بعد طلوع الشمس ولا ماء فيها، وبقينا فيها إلى الساعة التاسعة من النهار، ثم رحلنا منها إلى قلعة الحديد، فوصلناها الساعة الثالثة ليلًا، فبقينا فيها بقيّة تلک الليلة، ونهارها إلى الساعة التاسعة، ورحلنا منها إلى قلعة الزمرد، وهی على ثمان ساعات من قلعة الحديد، وفيها بعض العسكر، فلم نبت بها؛ وواصلنا السير قاصدين سهل مَطَران بالتحريک، فوصلناه عند طلوع الشمس وبقينا فيه إلى ما بعد العصر من ذلک اليوم، ثم سرنا قاصدين آبار الغنم، فوصلناها الساعة الخامسة ونصفاً من الليل، ورحلنا منها الساعة العاشرة ليلًا إلى مدائن صالح.

ص: ۱۵۶

مدائن صالح

فوصلناها قبيل طلوع الشمس، وأقمنا فيها بقيـة ذلك اليوم والليلة التى بعده إلى الظهر، وفيها بئر عذب ماؤها وسط القلعة، وهى مدائن ثمود قوم صالح عليه السلام، وبيوتهم المنحوتـة فى الجبال بـدرجها الظاهر للعيان باقية إلى اليوم على أبدع شكل وأتقنه؛ يراها المارّ على الطريق قبل الوصول إلى القلعة، وبعد الوصول إلى المنزل حاولنا الذهاب لرؤيتها فمنعنا عدم الأمن؛ وسمعنا ونحن بالمدائن أعرابياً راكباً على ناقة، ينادى: يا شارى العرض بالعرض، فقلت لأصحابى: ما يقول هذا؟ قالوا: لا نعلم. قلت: يريد المبادلة على ناقته بناقة أو جمل، لا بيعها بدراهم. وقريب منها بلدة تسمى العلا، وذات مياه وبساتين فجاء أهلها إلى مدائن صالح ومعهم الشعير والسمن والتمر الجيد والليمون الحلو والحامض، وهو كبير الحجم للغاية، كثير الماء شديد الحلاوة والحموضة.

ص: ۱۵۷

طريق صعب.. وخرافة

ثم سرنا من مدائن صالح بعد الظهر قاصدين ظهر الحمراء، فسرنا بقية ذلك اليوم، وتلك الليلة، وساعتين ونصفاً من اليوم الذى بعده، فكانت المسافة نحواً من اثنين وعشرين ساعة، والطريق وعرة جداً، ومررنا بين جبلين على هيئةٍ واحدة وعلوٍّ واحد، كأنهما ساريتان، وبينهما مقدار ممر قطارين من الجمال فقط، والناس يسمّونها جبل أبوطاقة، تشبيهاً لما بين الجبلين بالكوة فى الحائط؛ والطريق بينهما فى مكان ذى رمال تغوص فيها أيدى الجمال وأرجلها، وتسير صعوداً، وأكثر الناس ينزلون من المحامل عدى العاجز والمرأة، ويعلو هناك الصياح والضجيج من أهل القوافل، وربّما ضربوا بالطبول؛ وأصل استعمال ذلك لتهييج الإبل على السير؛ خوفاً من وقوفها وسقوطها لصعوبة الطريق بسبب الرمل والصعود، لكنّه شاع بين العامة أنّ هذا الصياح لئلا تسمع الإبل حنين فصيل ناقة صالح، الذى هو متغيّب فى ذينك الجبلين على زعمهم فتموت؛ والطريق بعد ذلك أكثره صخور ومزالق ورمال.

إن ما مر يعطى صورة عن صعوبة الطرق، والمخاطر التى تحف السائر عليها، وخصوصاً الطرق الصخرية، حيث يكون السائر معرّضاً للسقوط زلَقاً سواء كان راكباً أو ماشياً، عدا عن الإنهاك الحاصل من طول الركوب أو المشى.

الأخضر، واحة الطريق

ثم قال السيد رحمه اللَّه: وبقينا فى ظهر الحمراء من الساعة الثانية والنصف نهاراً إلى الساعة التاسعة؛ ثم سرنا بقية ذلك اليوم، وتلك الليلة، ووصلنا فى الساعة الثالثة من نهارها إلى المعظم. فكانت المسافة بينهما نحواً من سبع عشرة ساعة، والمعظم فيه قلعة عظيمة، ماؤها من المطر، لكنه لم يكن فيها ماء. وسرنا من المعظم الساعة التاسعة من نهار اليوم الذى وصلنا فيه، فوصلنا الأخضر ضحوة الغد، فكانت المسافة بينهما نحواً من إحدى وعشرين ساعة، والطريق من

ص: ۱۵۸

المـدائن إلى الأخضـر ليس فيه مـاء، وهو سـتون ساعـهٔ و قطعنـاه فى ثلاث مراحـل، وحملنا الماء معنا من المـدائن إلى الأخضـر، وفى الأخضـر قلعهٔ فيها بعض العسـكر؛ وفى وسطها بئر ماءها غزير وعذب جداً، وعليه ناعورهٔ، تديرها دابهٔ، فتصبّ فى بركهٔ كبيرهٔ، فإذا جاء الحاج وجـدها مملوءهٔ، فلا يخرج حتى ينفـذ ماؤها ولولا ذلك لكثر الزحام، ولعلّه يسـمى بالأخضـر لوجود العشب حوله بخلاف باقى المنازل التى هى قاحلـهٔ جرداء، ومن الأمثال فيه «إذا ما وصـلت إلى الأخضـر، فامش وتبختر» لجودهٔ مائه وغزارته، فبقينا فيه ذلك اليوم والليلهٔ التى بعده إلى الصباح.

إلى تبوك

ثم سـرنا حتى وصـلنا إلى منزل يدعى ظهر المغر، ليس فيه ماء، فوصلناه الساعهٔ الحاديهٔ عشرهٔ من النهار، فبتنا به تلك الليلهٔ وخرجنا منه قبـل الفجر بسـاعتين تقريباً، أعنى الساعـهٔ الثامنـهٔ من الليل فوصـلنا إلى تبوك الساعـهٔ الرابعـهٔ من النهار، وهى بلـدهٔ مسـكونهٔ بقليلٍ من الأعراب، وفيها آبار كثيرهٔ عذبٌ ماؤها، ونخل وكروم، ونخلها للحكومهٔ، وشرينا منها اللحم والسمن والزبد بثمن رخيص.

وجاءتنـا بهـا بعض الهـدايا من الشام، وكان حقّها حسب العادهٔ أن تجىء إلى مـدائن صالـح مع الجردهٔ، إلا أن الجردهٔ لاقتنا بالأخضـر، والأمانات بعضـها وصل فى تبوك والأكثر بقى فى معان. وهى التى غزاها النبى صلى الله عليه و آله ولم يلاق حرباً. وفيها مسجد يقال: إنه فيه صلّى النبى صلى الله عليه و آله؛ وقلعهٔ مشيدهٔ هى أحسن ما رأيناه من القلاع قبلها.

وكتب على بابها على الكاشـى أنها بنيت بأمر فلان من السـلطان محمد خان من بنى عثمان سنهٔ ۱۰۶۴. وفيها بيوت خربهٔ ومزارع حنطهٔ وشعير. وبقينا بها بقيّهٔ ذلك اليوم والليلهٔ التى بعده إلى الساعهٔ الثامنهٔ ونصف.

ص: ۱۵۹

محطات مختلفة

ثم خرجنا قاصدين القاع، فوصلناه قبل الغروب بنصف ساعة تقريباً، وهو منزل لا ماء فيه. وخرجنا منه آخر الليل فوصلنا ذات حِج، قبيل المغرب، وهى بكسر الحاء المهملة بعدها جيم، وفيها قلعة جيدة وفيها بعض العسكر، جدّد بناؤها زمن السلطان عبد المجيد، وفيها عيون ماؤها غزير على عمق ذراعين عن وجه الأرض، ماؤها لا بأس به؛ وفيها بعض نخيلات، وتكثر فيها العقارب، أرضها صلبة لا تنزل فيها الأوتاد، وقد شدّوا أطناب الخيام فيها بالحجارة، وسكك الحديد.

وخرجنا منها عند الفجر إلى المدورة، فوصلناها الساعة الثامنة من النهار، وفيها قلعة محكمة، وفى وسطها عين ماؤها عذب جداً، تجرى إلى برك ثلاث كبار أعدت للحاج.

وخرجنا منها آخر الليل إلى منزل ليس فيه ماء يسمى: تحت العقبة، فوصلناه بعد العصر، وخرجنا منه آخر الليل إلى منزل يسمى فوق العقبة، ومنه إلى معان، وهى بلدة معمورة، فيها قائم مقام، وهى تابعة لحكومة سوريا، فيها دار للحكومة وجامع قديم محكم البناء، وفيها ماء جار، ومزارع وبساتين فيها أنواع الفواكه، ورمّانها مشهور.

وسرنا منها إلى عَنَزَة، ويكثر فيها العجاج والغبار، من الرياح العاصفة التى تسفى الرمول.

المحطة الأخيرة

وسرنا منها إلى القطرانة، وهى بنواحى مؤتة التى فيها قبر جعفر الطيار عليه السلام ومن استشهد معه من الصحابة، وكانت السكة الحديدية الحجازية وصلت إليها، ومنها ركبنا القطار الحديدى إلى دمشق بعدما تأخرنا فيها عدة أيام، لعدم تيسّر قطار سوى القطارات المكشوفة وامتناعنا عن الركوب فيها.

ص: ۱۶۰

ومن القطرانة إلى دمشق ست مراحل بسير الإبل، وكان السير فيها قبل السكة الحديدية هكذا على ما قيل لنا: القطرانة، المدورة، الزرقاء (۱) وفيها نهر جار، ولها ذكر فی التاريخ، ويسكنها الآن مهاجرو الجركس، وهی بنواحی البلقاء الشهيرة فی التاريخ، القلعة، الرمثا، المزيريب، الكسوة، دمشق. والخمسة الأخيرة من بلاد حوران، أما بعد وجود السكة الحديدية، فأسماء المحطات هكذا:

القطرانة- سواقة- محجة- ضبعة- جيزة- لبن- قصر- عمان- الزرقاء- سمرا- مفرق- نصيب- ذرعا [أذرعات]- خربة غزالة- ازرع- دير على- خبب- جباب- مسمية- الكسوة- القدم، ويقال إن فيه أثر قدم النبی صلى الله عليه و آله حين أتى الشام، وأنه وصل إلى ذلك المكان ولم يدخل دمشق- القنوات (محلة بدمشق).

هنا قال السيد رحمه الله: انتهت الرحلة الأولى الحجازية والحمد للّٰهرب العالمين.

۱- علق رحمه الله فی الهامش فقال: وقد مر أن المدورة قبل القطرانة بأربع مراحل، إلا أن تكون هذه غيرها.

ص: ۱۶۱

صفحات من تاريخ المدينة المنورة

محسن أسدی

احتلّت مكة والمدينة مكانةً مقدسة فی قلوب المسلمين وضمائرهم، واهتماماً كبيراً عندهم وعند غيرهم، لما لهاتين المدينتين من موقعٍ كبير فی تاريخ الدعوة الإسلامية، فعلی ساحتيهما دارت أكثر أحداثها منذ نشوئها، وإلی يومنا هذا مازالت آثارها وثمارها قائمة؛ فظهور الدين الإسلامی وترعرعه وانتشاره منهما إلی بلدان العالم الأخری جعل الأنظار تتوجه إليهما بحثاً ودراسة، إضافةً إلی مايترتب علی تتبع تاريخهما و العناية بهما وبشؤونهما- حفظاً- وعمراناً من أجرٍ لصاحبه وثواب عظيمين.

ولأن مكة تضم الكعبة، وهی بيت اللّه الحرام قبلة المسلمين فی كل فرض أو مستحب ودعاء، والمدينة المنورة التی تضم مرقد رسول اللّه صلی الله عليه و آله خلق منهما حرمان مباركان يقصدهما الحجاج، والمعتمرون، والزوار، والباحثون، من كل أقطار الدنيا.

من هنا، جاءت كتابات وبحوث تاريخية، وميدانية، وجغرافية، واجتماعية، واقتصادية، وتقصٍّ لهما ولأحوالهما فی عمق التاريخ من أولی اهتمامات الباحثين

ص: ۱۶۲

والمحققين، فكثرت الكتب والمجلات والبحوث والمقالات، وأقيمت المؤتمرات والأنشطة الأخرى حولهما، حتى حظيت كل منهما (مكة المكرمة والمدينة المنورة) بما لم تحظ به أىّ مدينة أخرى فى العالم.

وقبل أن نتحدّث عن تلك الصفحات التاريخية، عن مدينة رسولاللّه صلى الله عليه و آله نقف قليلًا عند اشتغال مؤرّخى المسلمين بهاتين المدينتين المقدستين، وبما تضمانه من الكعبة المباركة، والضريح المبارك لرسول اللّه صلى الله عليه و آله، اللذين صارا الباعث الحقيقى لكتاباتهم، وبحوثهم، وأنشطتهم، إذ لولاهما لماكان كلّ ذلك وغيره، حتى نالت دراسة هاتين المدينتين المنزلة الكبرى فى دراسة تاريخ المدن الإسلامية، وغدت دراساتهم معالجات دينية، و تاريخية، وجغرافية، واجتماعية، وسياسية، واقتصادية رائعة، لواقع تلك المدن ولشعوبها، وجميع مفاصل حياتها...

نعم قد تكون بعض تلك الدراسات لم تأت بشىء ذىبال، إلا أن الحال مختلف جداً فيما تناولته بالنسبة لهاتين المدينتين مكة والمدينة، اللتين هما محل كلامنا دون غيرهما من المدن، موضحةً ما يتصل بهما دينياً و سياسياً واجتماعياً..

وما ظهر فيها من شخصيات دينية، وعلماء نحو ولغة، وقرّاء، ومفسرين، ومحدثين، وفقهاء، ومتكلمين، وشعراء، وأدباء، سواء أكانوا من الصحابة أو التابعين.

إن تاريخ هاتين المدينتين بدأ قبل بداية القرن الثالث الهجرى، بل ظهر بعضها فى أوائل القرن الثانى أو قبله:

كتاريخ مكة، للحسن البصرى، الذى توفى سنة ۱۱۰ هجرية، وفى مكتبة تيمور، بدار الكتب المصرية نسخة منه.

وتاريخ المدينة لابن زبالة، الذى كان حياً سنة ۱۹۹ هجرية.

ثم تاريخ مكة للأزرقى المتوفى سنة ۲۴۴ هجرية، فتاريخ المدينة لابن شبة، الذى عاش بين ۱۷۳- ۲۶۲ هجرية.

ص: ۱۶۳

وفی مقالتنا هـذه، نقف عند مدینة رسول اللَّه صـلی الله علیه و آله المدینة المنورة، یثرب قبل الهجرة وقدیماً، وهی تعیش عمقاً تاریخیاً نشأة وتطوراً، ثم قاعدةً للدین الجدید، وعاصمةً لدولة إسلامیة واعدة رائدة...

یثرب فی اللغة

یثرب: ثرّب بتشدید الراء، وثربه وأثرب: الکبش زاد شحمه، والثرب:

شحم قد غشی الکرش والأمعاء رقیق، وفلان قلّ عطاؤه، وفلان منّ بما أعطی.

و ثرب: أفسد وخلط، وثرب فلاناً وعلیه: لامه وعیّره بذنبه.

وأثربه: لامه وعیّره بذنبه. والتثریب: التعییر والاستقصاء فی اللوم.

وفی التنزیل العزیز: «لا تَثْرِیبَ عَلَیْکُمُ الْیَوْمَ». ویقال: ثرّب علیهم- بتشدید الراء- وثرب علیهم فعلهم: قبحه.

وثرّب بتشدید الراء: أفسد وخلط.

وثرّب علیه فعله- بتشدید- الراء- ثرب تثریباً: قبح علیه فعله أو قبحه (۱).

هذا فی اللغة

أما یثرب قدیماً:

فقد انتشر اسمها فی نقوش وکتابات غیر عربیة، کجغرافیة بطلیموس الیونانی، حیث إن (یثرب) کانت باسم یثربا

وفی کتاب اسطفان البیزنطی باسم یثرب

کما ظهر اسمها فی نقشٍ علی عمودٍ حجری بمدینة حران (اتربو)

یثرب فی القرآن الکریم والحدیث:

وقد وردت لفظة یثرب مرةً واحدة إسماً قدیماً للمدینة المنورة فی قوله تعالی

۱- أنظر: مادة ثرب فی لسان العرب، والمعجم الوسیط، ومختار الصحاح.

ص: ۱۶۴

فی سورة الأحزاب الآیة ۱۳، و علی لسان بعض المنافقین:

«وَ إِذْ قالَتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ یا أَهْلَ یَثْرِبَ لا مُقامَ لَکُمْ فَارْجِعُوا...»

أی لا یصحّ لکم الإقامة ههنا حول الخندق، فارجعوا إلی منازلکم.

أما إسمها الجدید، فقد ذکر فی القرآن الکریم ثلاث مراتٍ، هی قوله تعالی:

«وَ مِمَّنْ حَوْلَکُمْ مِنَ الْأَعْرابِ مُنافِقُونَ وَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِینَةِ مَرَدُوا عَلَی النِّفاقِ...» (۱)

وقوله تعالی:

«ما کانَ لِأَهْلِ الْمَدِینَةِ وَ مَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرابِ أَنْ یَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ...» (۲)

وقوله تعالی:

«یَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنا إِلَی الْمَدِینَةِ لَیُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ...» (۳)

وقد ورد أن رسول اللَّه صلی الله علیه و آله غیّر اسمها من یثرب إلی المدینة، ونهی عن استخدام اسمها القدیم فقال: (من قال للمدینة: (یثرب) فلیستغفراللَّه...)، وأیضاً سمّاها رسول اللَّه صلی الله علیه و آله بأسماء أخری فی عددٍ من الأحادیث النبویة، أهمها: (طابة وطیبة) (۴).

بعد هذا، نقرأ صفحات قدیمة عن تاریخها، بدأ بمن سمّیت باسمه وظلّت تحمله طیلة حیاتها قبل الإسلام، إنه واحد من أحفاد نبی اللَّه نوح علیه السلام.

یثرب حفید نوح علیه السلام

وقد أجمعت معظم المراجع العربیة علی أن (یثرب) إسمٌ لرجل من أحفاد

۱- التوبة: ۱۰۱.

۲- التوبة: ۱۲۰.

۳- المنافقون: ۸.

۴- أنظر: مسند الإمام أحمد ۴: ۲۸۵؛ والمفصل فی تاریخ العرب قبل الإسلام؛ و وفاء الوفا.

ص: ۱۶۵

نوح علیه السلام، وأن هذا الرجل أسّس هذه البلدة فسمّيت باسمه، وهو أمر معروف فی الحضارات القدیمة أن تسمّی المدن باسم مؤسسها، مثل الإسکندریة نسبة للإسکندر.

ولکن تلک المراجع اختلفت فی عدد الأجیال التی تفصل الحفید (یثرب) عن جده نوح علیه السلام، حیث جاء فی بعض أسماء سلسلة الآباء والأبناء فیالمراجع أنّ (یثرب) وقع فی الجیل الثامن بعد نوح، فهو: (یثرب بن قاینة بن مهلائیل بن إرم بن عبیل بن عوض بن إرم بن سام بن نوح).

فیما جاء فی بعضها الآخر أنه کان فی الجیل الخامس: (یثرب بن عبیل بن عوض بن إرم بن سام بن نوح).

و مع اتفاق المؤرخین علی أن القبیلتین: (عبیل والعمالیق) قد سکنتا یثرب علی التوالی، إلّا أنهم یختلفون فیمن هی الأسبق، انطلاقاً مما ترکه الخلاف فی وقوع یثرب حفید نوح علیه السلام فی الجیل الثامن أو الخامس.

ولکن هناک من یرجّح أن قبیلة عبیل هی الأسبق، ثم جاء العمالیق أو بعضهم فأخرجوهم منها وسکنوها؛ کما یقول الطبری:... ولحقت عبیل بموضع یثرب، ولحقت العمالیق بصنعاء قبل أن تسمّی صنعاء، ثم انحدر بعضهم إلی یثرب فأخرجوا منها عبیل، فنزلوا موضع الجحفة فأقبل السیل، فاجتحفهم فذهب بهم فسمیت الجحفة (۱).

ومن خلال قراءة المصادر التاریخیة وماکتب عن هذه المدینة، نستطیع أن نلخّص ما ذکرته تلک الأقلام بالنقاط التالیة، والتی یمکننا تسمیتها بالمراحل التی مرّت بها قبل أن تصل إلی ما وصلت إلیه، حتی غدت مدینةً مقدسة ذات منزلة عظیمة وخالدة:

۱- لقد ذکرت المراجع التاریخیة أن أبناء نوح بعد الطوفان تکاثروا ولم تعد

۱- أنظر: تاریخ الطبری ۱: ۱۲۸، وفاء الوفا ۱: ۱۵۶- ۱۶۵.

ص: ۱۶۶

المنطقة التى نزلوها تكفيهم، فخرجت مجاميع منهم تبحث عن مكان آخر لها، فوصل فرع (عبيل) بقيادة (يثرب) إلى هذا الموضع، ووجدوا فيه ماءاً وشجراً وجبالًا بركانية تحيط به، وتشكّل حمايةً طبيعية له و لمن يسكنه، فأعجبهم واستوطنوا فيه.

ويقول النسّابون عن (عبيل) هذا: إنه هو الحفيد الرابع أو الحفيد السادس لنبى اللّه نوح عليه السلام (۱).

وأما عبيل هذا، فهو فى سفر التكوين: (عموبال) وهو أحد أولاد مقعان (۲).

وقد أشار الدكتور جواد على صاحب كتاب المفصّل- وهو يلتمس ما يثبت وجود قبيلة عبيل فى الكتابات القديمة- أشار إلى وجود اسم عموبال فى بعض أسفار التوراة التى تذكر أنه ابن من أبناء (يقطان)، كما أشار إلى أن المؤرخ بليتوس يذكر اسم موضع يقال له: (أباليتس) أى العبيليين.

وقد عاش عبيل وأقرباؤه من أبناء نبى اللّه نوح عليه السلام فى منطقة بابل، التى عرفت بتطوّرها زراعياً ورعوياً إلى درجة جيدة، انعكست آثارها فيما بعد على يثرب، التى حلّوا فيها بعد وفاة نوح عليه السلام حينما أصبحوا ملوكاً على يثرب؛ وحدث هذا حينما سار فرع (عبيل) بقيادة يثرب- كما قلنا- من بابل مدة عشرين يوماً حتى وصلوا إلى موضع المدينة هذا، فنزلوه وسموه (يثرب) باسم قائدهم يثرب بن قاينة.

وقد أورد السمهودى فى كتابه وفاء الوفا أبياتاً فى رثاء هؤلاء العبيليين نسبةً إلى عبيل؛ يستشف من هذه الأبيات مدى تقدّمهم الزراعى والرعوى آنئذ، والذى ترك بصماته وآثاره على الوضع فى يثرب.

تقول الأبيات:

۱- أنظر: تاريخ الطبرى؛ وتاريخ ابن خلدون رواية السهيلى.

۲- أنظر: الإصحاح الأول، الفقرة: ۲۲، والاصحاح العاشر، الفقرة: ۲۸.

ص: ۱۶۷

عين جودى على عبيل وهل يرجع من فات بيضها بالسجام

عمّروا يثرباً وليس بها شفر ولا صارخ ولا ذو سنام

غرسوا لينها بمجرى معين ثم حفوا النخيل بالآجام

وإن كان هناك من يشكّك بهذه الأبيات وصحتها، ويعدّها من نحل القصاصين وأساطيرهم، إلّا أنها- ولا شك- رسمت صورةً- كما يذكرون- لاتباع عبيل تنسجم هذه الصورة مع ما جاء به، وكتبه المؤرخون عن أهل بابل وأنشطتهم الرعوية والزراعية؛ و إن أرض يثرب الخصبة، ووفرة المياه فيها، أمدّت العبيليين بما يساعدهم على زراعة النخيل، وتربية الحيوانات فيها.

إذن، يمكننا وصف الحالة يومذاك فى يثرب- كما ذكرتها المراجع التاريخية- بأن هناك أسراً تسكن قريةً صغيرة كثيرة الأشجار والمياه، تربى حيواناتها المدجنة: الإبل، والخيل، والغنم، وتزرع النخيل وبعض الخضراوات، و الفواكه الأخرى، وتستمتع بمحصولٍ وافر ونتاج جيد.. وفى شبه عزلة عن العالم الخارجى البعيد والمجهول، تحميها الجبال والتلال البركانية التى تحيط بالمنطقة ولا تترك منفذاً إليها سوى بعض الدروب التى يمكن مراقبتها وتحصينها.

۲- إن أحد أحفاد نوح عليه السلام (واسمه نمرود بن كوش بن كنعان بن نوح)، دعا قومه إلى عبادة الأوثان، فاستجابوا له فعاقبهم اللَّه، وخرجوا من بابل وتفرقوا فى جهات مختلفة، ووصل فرع عبيل إلى هذه المنطقة.

۳- إن العماليق من أحفاد نوح عليه السلام خرجوا من بابل، واستوطنوا منطقة تهامة إلى مكة، وبقوا فيها إلى زمن ملكهم السميدع، ثم جاءت قبيلة جرهم فأخرجتهم من المنطقة وسكنت فى منطقة مكة، وجاءت مجموعة منهم تسمى (عبيل) بقيادة يثرب، واستوطنت المنطقة وبنت المدينة التى سمّيت باسمه (۱).

۱- أنظر: المفصّل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ۱: ۳۴۳ وما بعدها؛ تاريخ الطبرى، الجزء الأول، وفاء الوفا ۱: ۱۵۶.

ص: ۱۶۸

وهكذا اتفقت المصادر المختلفة على أن تأسيس يثرب كان على يد رجلٍ يتزعم مجموعةً بشرية، هاجرت من موطنها الأصلى بابل فى الروايـة الأولى، وتهامـة فى الروايـة الثانيـة، وقسم من الحجاز فى الرواية الثالثة، تبحث عن موطن جديد يوفر لها حياةً كريمة، وأن هذه المجموعـة وجـدت فى هـذا الموقع أرضاً خصـبة، وشـجراً كثيفاً، وماءً وفيراً، ووجـدت أن هـذا الموقع أيضاً يوفر لها قـدراً من الحماية الطبيعية، فاستقرّت فيه، وحولته إلى مدينة، وسمته باسم زعيمها: (يثرب).

۴- ثم ظهرت مملكة سبأ فى اليمن فى عهد الدولة المعينية، وما إن قويت شوكة السبئيين حتى تمّ استيلاؤهم على معين وعلى نفوذها، وغـدا سـلطانهم ممتـداً إلى مدينـة يثرب، إلّا أنه كان شبيهاً بنفوذ من كانوا قبلهم، وأقصد المعينيين، فلا يتعدى تعيين حاكم على يثرب ويكون هـذا الحـاكم من أهل يثرب نفسـها؛ هـذه هى المهمـة الأولى، وأما الثانيـة فكانت تتمحور حول القوافل التجاريـة التى تمر عبر أراضيها..

لهـذا فإننـا لا نعثر على تغييرات فى أهلها الـذين بقوا مشـغولين بالزراعـة ورعى مواشـيهم، فيما اشـتغل بعضٌ منهم بتأمين ما تحتاج إليه القوافل التجارية والاستفادة من المتاجرة معها.

ص: ۱۶۹

وقد عاصرت مملكة سبأ التی كانت بلقيس ملكةً عليها نبیّ اللّه سليمان بن داود عليه السلام ودولته، وآمنت بما يدعو إليه- بعد أن التقت به- حيث قالت ملكة سبأ كما صرّحت به الآية الكريمة: «.. رب إنی ظلمت نفسی وأسلمتُ مع سليمان للّه رب العالمين» (۱).

وقد عمّرت مملكة سبأ كما أخبرنا القرآن الكريم: «لقد كان لسبإٍ فی مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة وربّ غفور» (۲).

ثم وقع سيل العرم، حيث ضعفت وانهارت: «فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتی أكل خمط وأثل وشیء من سدر قليل» (۳).

وقد خرجت من مملكة سبأ قبل السيل بقليل قبيلتا: الأوس والخزرج، وهما قبيلتان معروفتان استوطنتا فی يثرب.

كان لليهود وجود واضح فی يثرب فی العصر الجاهلی، كما تجمع على ذلك المصادر التاريخية، وتذكر روايات مختلفة لوجودهم المذكور، وتجمع أيضاً على أنهم جاؤوا إليها من خارج الجزيرة العربية فی عدة هجرات متوالية:

الأولی: وقعت فی سنة ۵۸۹ ق م، عندما اقتحم بختنصر البابلی أورشليم، ودمّر الهيكل وسبی معظم أهلها، فهرب جماعة منهم وساروا إلی بلاد الحجاز ونزلوا (يثرب).

الثانية: وقعت ما بين عامی ۶۶- ۷۰ م، عند ما هاجم القائد الرومانی تيتوس فلسطين، ودمّر أورشليم ثانية، وشتتهم وأغرق عدداً كبيراً منهم فی بحيرة لوط،

۱- النمل: ۴۴.

۲- سبأ: ۱۵.

۳- سبأ: ۱۶.

ص: ۱۷۰

ففرّ الناجون إلى الحجاز، ووصلوا (يثرب)، وأقاموا فيها مع من سبقهم.

الثالثة: وقعت عام ۱۳۲ م عندما أرسل الإمبراطور الرومانى هاردیان، جیشاً إلى فلسطین، فأخرج الیهود منها، ومنعهم من دخولها نهائیاً، ففرّ من نجا منهم إلى جزیرة العرب.

و (یثرب) فی وقت مجیء الیهود الهاربین إلیها كانت عامرةً بمجتمع یضمّ قبائل عربیة، بعضها بقیة من العمالیق، وبعضها الآخر قبائل توافدت إلیها من أطراف (یثرب) القریبة والبعیدة.

وأول من وصل (یثرب) من الیهود ثلاث قبائل هم:

بنو قریظة، ونزلوا عند وادی (مهزور).

وبنو النضیر، ونزلوا عند وادی (بطحان).

وبنو قینقاع، و نزلوا فی الوسط، ثم انتشروا فی أخصب بقاع المنطقة.

ثم تبعت هذه القبائل الثلاث قبائل یهودیة أخری.

وقد سالم الیهود العرب المقیمین فی یثرب أول الأمر، وأحسنوا التعامل معهم، وانهمكوا فی زراعة النخیل، واتسعت زراعتهم وتجارتهم و الصناعات التی كانوا یتقنونها، هذا من ناحیة؛ ومن ناحیة ثانیة راحوا یدفعون لرؤساء القبائل المجاورة لهم إتاوةً حتی یأمنوا ضررهم و مهاجمتهم، ومن ناحیة ثالثة، راحوا یقیمون تجمعات مغلقة لهم، ویبنون حصونهم وآطامهم التی كثرت، وكل هذا جعلهم یستقرّون ویجمعون ثروات كبیرة، أما أحبارهم فقد كانوا یختصّون بالأمور الدینیة ویحكمون فیما یقع بینهم من خصومات.

وانتشرت أنشطتهم تلك فی الأطراف الشرقیة والجنوبیة من یثرب، ولم یتحمّسوا لنشر عقیدتهم بین القبائل العربیة الوثنیة، واكتفوا ببعض الأفراد والأفخاذ التی مالت إلیهم ثم تهوّدت تدریجیاً؛ و مالبثوا أن سیطروا علی الحركة الاقتصادیة، وأشاعوا القروض الربویة الفاحشة، وعندما وصلت قبیلتا الأوس

ص: ۱۷۱

والخزرج المهاجرتين من اليمن، كانوا المتنفذين فى يثرب، فطلبوا منهم أن يسمحوا لهم بالنزول فى المناطق المجاورة لمزارعهم، وكان اليهود فى حاجةٍ إلى الأيدى العاملة لاستثمار مزارعهم وثرواتهم المتزايدة، فسمحوا لهم بالنزول فى المناطق غير المأهولة من يثرب، واستخدموهم فى مزارعهم، وبدأت بمجىء الأوس والخزرج مرحلة جديدة من تاريخ يثرب (۱)، نتعرف عليها فى الفقرة الأخيرة، رقم: ۱۱.

۵- هناك قبائل قديمة انقرضت، أطلق عليها اسم: العماليق؛ وقد ذكرت المراجع التاريخية أخباراً عنهم تمتزج بالأساطير، فإسمهم يوحى إلى الأذهان بضخامة أجسامهم، وقد دفع هذا الإيحاء بعض الرواة إلى المبالغة والتهويل، فنقل لنا السمهودى روايةً تزعم أن ضبعاً وأولادها وجدت رابضة فى تجويف عين رجل ميّت من العماليق، وأنه كانت تمضى أربعمائة سنة لا يموت منهم أحد، ولا شك أن هذه الرواية وأمثالها من صنع قصّاصين يحرصون على استثارة جمهورهم بالخوارق والعجائب.

وبعيداً عن تلك المبالغات، فإن كلمة عملاق فى اللغة تعنى الطويل، ويبدو أن تلك القبائل كانت تتميّز بشىء من الطول والجسامة، ويرى بعض المؤرخين الحديثيين أن سكان الجزيرة العربية كانوا حتى عام ۱۶۰۰ قبل الهجرة ضخاماً، وبقى لهم أحفاد إلى ما بعد ذلك وعرفوا بهذا الاسم، وإن لم يكونوا يحملون ذلك القدر من الطول ولايعمّرون ما يعمر أسلافهم.

والعماليق فى كتب التاريخ العربية من أحفاد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح، كانوا يسكنون مع الأحفاد الآخرين لنوح فى منطقة الرافدين، ثم خرجوا مع مجموعات أخرى، وتكاثر أحفاد نوح حتى زاحم بعضهم بعضاً.

وصل العماليق إلى الجزيرة العربية وانتشروا فى أنحائها، وسكنت قبائلهم الكثيرة فى نجد والبحرين وعمان واليمن وتهامة، وبلغوا أطراف بلاد الشام، وكان

۱- أنظر: وفاء الوفا ۱: ۱۶۵- ۱۵۹.

ص: ۱۷۲

منهم فراعنة مصر أيضاً، ويذكر الطبرى أن الذين سكنوا يثرب منهم هم من قبيلة جاسم.

ويـذكر ابن خلـدون قبائل أخرى هى: بنو لَفٍّ، وبنو سـعد بن هزال، وبنو مطر، وبنو الأزرق. ولا نعرف متى اسـتوطن العماليق فى يثرب على وجه التحديـد، وربما نزلوها بعـد خروجهم من أرض الرافدين. وقد اختلف المؤرخون هل هم الذين أسّـسوا يثرب أم قبيلة عبيل؟ وهل انتزعوها منهم؟ وهناك من يعتقد أن العماليق هم من عبيل نفسها؛ والذى يتفقون عليه هو أن وجود العماليق قديم فى يثرب سواء فى فترة التأسيس أو بعدها مباشرة، ومن المؤكّد أن العماليق وجدوا فى يثرب قديماً، وأنهم عرب.

ويرى الطبرى أن جدّهم عمليق هو أول من تكلّم العربية، كما أن أسـفار التوراة ذكرتهم عدة مرات وسمتهم باسم العماليق حيناً وباسم الجبارين حيناً آخر؛ وذكرت أسـماء بعض زعمائهم ومدنهم العربية، فقد عاصـروا خروج بنى إسـرائيل من مصـر، واصطدموا معهم فى معارك عدة بمنطقة سيناء.

۶- وقـد أنشأ العماليق فى يثرب مجتمعاً زراعياً ناجحاً يحقق الاكتفاء الـذاتى، وانهمكوا فى زراعـة أراضـيهم الخصـبة وتربية ماشـيتهم، وعاشوا حياتهم مسـتمتعين بوفرة محاصـيلهم أول الأمر، وعنـدما نمت التجارة أسـهموا فيها، ووصـلت قوافلهم إلى غزة، ولكن تجارتهم بقيت محـدودةً لا ـ تعـادل تجـارة أهـل مكـة، وآثروا عليها الزراعـة بسـبب خصب أراضـيهم وكثرة مياههم؛ وقـد درّت عليهم أعمالهم الناجحـة أموالًا طائلة، وخافوا من عدوان القبائل الأخرى التى تجدب أرضـهم وتشحّ مواردهم فبنوا الآطام، وهى حصون صـغيرة تتسـع لعائلة أو بضع عائلات، وتحميهم من غارات الأعداء.

وقـد عمّر العمـاليق فى يثرب طويلًا، وقـد وفـدت عليهم قبائـل أخرى سـكنت معهم، فـالوفرة التى وصـل إليها العماليق جعلتهم يقبلون الوافدين إليهم ليستفيدوا

ص: ۱۷۳

من العمالـة الطارئـة، فيخفف عنهم القادمون أعباء العمل فى الأرض، ويجد أصـحاب الأرض فرصةً للتمتع بثرواتهم، وما لبث الوافدون أن استثمروا بعض الأراضى التى لم يستثمرها العماليق فى المنطقة، وتحولوا إلى ملّاك وأثروا وجاروا العماليق فى حياتهم.

وخلال رحلة السـنين الطويلة، حصل تزاوج وتمازج بين العماليق والقبائل الوافدة، وظهرت أجيال جديدة تحمل دماءً مختلطة، وما لبث العماليق المتميزون بضـخامة الأجسام أن قلّ عـددهم تدريجياً، ولكنهم لم ينقرضوا تماماً، بل بقيت منهم بقية إلى ما بعد وصول اليهود إلى يثرب، ويـذكر المؤرخ العربى ابن زبالـة أن بنىأنيف، وهم حيٌّ أقاموا مع اليهود قبل وصول الأوس و الخزرج، كانوا من العماليق؛ وعندما وصل الإسلام إلى (يثرب) لم يكن قد بقى من هؤلاء إلا أفراد قلائل تميزوا بطول القامة.

۷- الدولـة الكلدانيـة نشـأت فى العراق وكـانت عاصـمتها بابـل، وقـد ازدهرت ومـدّت نفوذهـا إلى مناطق واسـعة فى القرن السابع قبل الميلاـد، ووصـلت فى فـترة من الوقت إلى الحجـاز؛ وقـد عـثر فى خرائب مسـجد حرّان الكـبير على نقش يتحـدث عن أعمـال الملك الكلدانى (نبونيد)، وفيها أنه خرج إلى شـمالى الجزيرة العربية واستولى على تيماء واستقر بها، ثم استولى على المدن المجاورة وضمّها إليه، وهى:

ددانو (مدينـة قديمـة معروفـة ذكرتها الأسـفار العبرانيـة)، وبداكوا (فدك)، وخبرا (خيبر)، واتريبوا (يثرب)، وظلت خاضـعة لحكم هذا الملك عشـر سـنوات؛ ونبونيـد هو آخر ملوك الدولـة البابليـة الكلدانية، حكم لمدة ۱۶ سـنة (من سنة ۵۵۶- ۵۳۹ ق. م)، قضـى عشر سنوات منهـا فى شـمالى الجزيرة العربيـة تاركـاً عاصـمته بابـل تحت حكم ابنه (بلشازار)، ثم عاد إلى بابل ليـدهمهم الملك الفارسـى قورش (كُورُش) سـنة ۵۳۹ ق. م، وينهى دولتهم ويجعلها ولايـة تابعـة لإمبراطوريته؛ وقـد صالـح أهل يثرب الملك نبونيـد ودخلوا فى طاعته سلماً بعد أن

ص: ۱۷۴

ضعف سلطان الدولة السبئية، ودفعوا الضرائب التى كان يجبيها السبئيون منهم إليه.

أحضر نبونيد معه بعض القبائل الكلدانية والأسرى اليهود إلى المنطقة، وأسكنهم فيها وأعطاهم بعض الأملاك التى نزعها من أصحابها العرب وحماهم بقطعاتٍ من جيشه، وكان يخطط لإلحاق المنطقة كلها بمملكته، ولكن الخطة لم‌تنجح ومات مشروعه مع عودته إلى بابل، غير أن أكثر المستوطنين الجدد بقوا فى المنطقة وامتزجوا مع أهلها، ويستدل على ذلك بوجود بعض الألفاظ الكلدانية فى لغة أهل يثرب والمناطق الأخرى التى تقع إلى الشمال منها، وخاصة فى الزراعة.

۸- من المستحيل أن نجزم بسنة محددة نؤرخ بها تأسيس يثرب، فنحن لا نعرف على وجه اليقين كم من القرون تفصل بين نوح، والهجرة النبوية، وما ذكره بعض المؤرخين روايات شفهية لا تستند إلى دليل مرجح.. وكل ما يمكن أن نتوقعه هو أنه حدث فى عهود سحيقة على أيدى أمم انقرضت، فعبيل أو العماليق، هى من الأمم البائدة، وليس لدينا آثار تساعدنا على تحديد فترة زمنية معينة للتأسيس، ويضع بعضهم تاريخاً تقريبياً يمتد إلى ۱۶۰۰ سنة قبل الهجرة النبوية، اعتماداً على أن قبيلة عبيل كانت تتكلم العربية، وأن اللغة العربية وجدت فى ذلك التاريخ؛ ويقترب هذا التحديد من الزمن الذى وجدت فيه كلمة (يثرب) فى الكتابات التاريخية عند غير العرب وفى بعض النقوش المكتشفة.

فقد ورد اسم يثرب فى الكتابات عند مملكة (معين)، وذكرت بين المدن التى سكنتها جاليات معينية. ومن المعروف أن المملكة المعينية قامت فى جزء من اليمن فى الفترة ما بين ۶۰۰ و ۱۳۰۰ قبل الميلاد، وامتد نفوذها فى فترة ازدهارها إلى الحجاز وفلسطين، وعندما ضعف سلطانها كوّنت مجموعة مستوطنات لحماية طريق التجارة إلى الشمال، وكان هذا الطريق يمرّ بيثرب.

ويتفق هذا التاريخ التقريبى أيضاً مع التاريخ الذى يذكره المؤرخون لوجود

ص: ۱۷۵

العماليق وحروبهم مع بنى إسرائيل فى شمال الجزيرة العربية وسيناء.

۹- يرجّح الباحثون أن (يثرب) قد خضعت للمملكة المعينية وأصبحت واحدة من مناطق نفوذها، وتعد المملكة المعينية من أقدم الممالك العربية الجنوبية التى وصلتنا بعض أخبارها عن طريق المكتشفات الأثرية، ظهرت فى شمالى اليمن وازدهرت وامتد نفوذها فى الفترة ما بين ۶۳۰- ۱۳۰۰ قبل الميلاد، وقد ذكرها بعض الجغرافيين الغربيين، مثل (تيودورس) الصقلى (وسترابون) الرومانى، أما المؤرخون والجغرافيون العرب فلم تصلهم أخبارها.

يقول عنها ياقوت الحموى: معين: اسم حصن باليمن... ومدينة باليمن تذكر فى براقش... قال عمرو بن معد يكرب:

ينادى من براقش أو معين فأسمع واتلاب بنا مليع

وتدل الآثار المكتشفة أن المملكة المعينية كان لها صلات وثيقة مع جاراتها تحوّلت إلى نفوذ وسيطرة، فامتدت سلطتها من جنوبى اليمن إلى الحجاز وحتى فلسطين؛ وقد وجد المنقّبون كتابات معينية تذكر أن يثرب، ومؤان، وعمون، وغزة كانت جزءاً من المملكة المعينية وأرضاً خاضعة لها، وأن ملوك معين كانوا يعيّنون حكاماً عليها باسمهم، ويلقب الحاكم (كبر) أى كبير، ويتولى الحكم باسم الملك، ويجمع الضرائب ويحافظ على الأمن، وهذا يعنى أن المعينيين سيطروا على يثرب فى فترة تمدّد مملكتهم، أى منذ الألف قبل الميلاد، وعينوا عليها حاكماً من أهلها كما كانوا يفعلون فى مناطق نفوذهم الأخرى لتأمين طريق تجارتهم البرية، ولم تكن سلطتهم على المدينة تتعدى الضريبة السنوية المفروضة عليهم، فضلًا عن حماية قوافلهم، ولا نجد فى الكتابات القليلة عن معين أى ذكر لحروب خاضوها مع أهل يثرب، ولا أحداثاً متميزة؛ وجلّ ما نجده إشارات تبين أن سيطرتهم كانت على الحجاز بأكمله، ونظراً لضعف هذه السيطرة ظل المجتمع اليثربى مجتمعاً زراعياً ورعوياً فى الغالب، ولم يشهد أية تغييرات كبيرة، أللهم إلّا المزيد من

ص: ۱۷۶

الاستقرار والانتعاش والفوائد التی تأتی بها قوافل التجارة العابرة.

۱۰- الدولـة الرومانية وكان ظهورها قبل الميلاد بعدة قرون، واشـتدّت وتها فاسـتولت على ممالك الإغريق (اليونانيين القدماء) ومدت نفوذها إلى بقية أوروبا وغربی آسـيا وشـمالی أفريقيا، ولكن الرومان لم يستطيعوا التوغل فی جزيرة العرب فی فترة امتدادهم العسكری الكبير، لأن الصـحراء الواسـعة تشكل العقبة الكبيرة لجيوشهم النظامية الجرارة؛ ويذكر التاريخ الرومانی محاولةً واحدة قامت فيها حملة رومانيـة باختراق الجزيرة العربيـة إلى جنوبها للوصول إلى مناطق الذهب فی أرض اليمن، وقد جرت هذه المحاولة فی عهد الإمبراطور (أغسطس) عام ۲۵ ق. م، حيث أمر هـذا الإمبراطور واليه على مصـر (أوليوس غالوس) بإعـداد الحملة وقيادتها، ورافق الحملة جغرافی معروف هو (سترابون)، صديق القائد (غالوس) وكتب عنها، فوصلتنا أخبارها شبه كاملة.

خرجت الحملـة بعشـرة آلاـف محارب رومانی، وألف قبطی، وخمسـمائة إسـرائيلی، يرشـدها أحـد قواد الأنباط، وأبحرت من الساحل المصـری للبحر الأحمر ووصـلت إلى ميناء (لويكة كومة) (يقدر دكتور جواد على أنها ينبع، بينما يرى فؤاد حمزة أنها مويلح)، بعد أن خسـرت عـدداً كبيراً من السـفن والرجـال، وفتـك المرض بعـدد آخر لفساد الطعام والماء وسوء الغـذاء، فاضـطرّت إلى قضاء الصـيف والشتاء فيه حتى استراح الجيش وتعافى من المرض، بعدها تحركت الحملة إلى نجران، واجتازت عدة مدن وحاربت أهلها حتى بلغت مدينة مرسـيبا (مأرب)، ومنها عادت إلى مدائن صالح، ثم أبحرت عائدةً إلى مصر، ولم تحقق الحملة أهدافها ولم تحصل على الذهب الذی خرجت لأجله، كما أنها لم تلحق المدن التی احتلتها بالدولة الرومانية.

وقـد تعـددت الآـراء حول الطريق التی سـلكتها الحملـة بعـد نزولهـا فی (ينبع) أو (مويلـح)، ومن بين تلـك الآراء رأی يقرر أن الحملة سارت فی طريق (إضم) إلى

ص: ۱۷۷

(يثرب)، لكى تتجنب الاصطدام بالقبائل التى تسكن على الطريق التجارى بين ينبع والجنوب، وأنها تابعت طريقها من (يثرب) إلى (نجد)، ومنها سارت فى طريق اليمن إلى نجران.

وذكر سترابون أن ملك تلك المنطقة، ربما كان شيخ قبيلةٍ يدعى الحارث، قد رحب بالرومانيين وساعدهم فى اجتياز الطريق؛ وبناءً على هذه الرواية- وهى أرجح الروايات- فإن الحملة قد مرّت بيثرب واستراحت فيها قليلًا وتزودت بما يلزمها من الماء والطعام، فسترابون يذكر أن المنطقة كانت كثيرة العيون؛ ولاشك أن ذكاء الحارث وحسن تعامله مع قائد الحملة قد أفاد (يثرب) وبقية المدن التى مرت بها، فلم يتعرض الجيش لها بسوء، وربما يكون الحارث قد تفاهم مع شيوخ المنطقة ورؤسائها كى يتجنبوا الصدام مع الحملة.

وعلى أية حال، فإن الحملة لم تترك أثراً فى (يثرب) أو فى حياة اليثربيين، حتى إننا لا نجد لها ذكراً فى كتابات المؤرخين القدماء، بل إن الرومانيين بعامة لم يؤثّروا فى حياة يثرب وأبنائها على الإطلاق. وكان مرور الجيش الرومانى فى هذه الحملة هو العلاقة الوحيدة والعابرة معهم.

۱۱- يتفق المؤرخون على أن الأوس والخزرج قبيلتان قحطانيتان، جاءتا من مملكة سبأ فى اليمن على إثر خراب سدّ مأرب، وعندما وصلتا إلى يثرب أعجبتا بما

ص: ۱۷۸

فيها من أرض خصبة وينابيع ثرّة، وقد كان سكانها- وخاصة اليهود- فى حاجة إلى الأيدى العاملة لاستثمار الأراضى، فسمحوا لهم بالنزول قريباً منهم بين الحرّة الشرقية وقباء، وكانت ظروف عملهم أول الأمر قاسيةً، وبمرور الزمن تحسنت أحوالهم، فبدأ اليهود يخافون من منافستهم، فتداعى عقلاء الطرفين إلى عقد حلف ومعاهدة يلتزمان فيها بالسلام والتعايش والدفاع عن يثرب إزاء الغزاة، فتحالفوا على ذلك والتزموا به مدة من الزمن، ازداد خلالها عدد الأوس والخزرج ونمت ثرواتهم، ففسخ اليهود الحلف، وقتلوا عدداً منهم وعملوا على إذلالهم.

وبقى الأوس والخزرج على تلك الحال إلى أن ظهر فيهم مالك بن العجلان الذى استنجد بأبناء عمومته الغساسنة فى الشام، فاستجابوا له وأرسلوا جيشاً كسر شوكة اليهود فعادوا إلى الوفاق، وعاشوا فترةً أخرى حياة متوازنة، فعندما هاجم تبع بن حسان (يثرب)، وأراد تخريبها وقف الجميع فى وجهه حتى رجع عن قصده وصالحهم، وفى هذه المرحلة من الوفاق تحرك أبناء الأوس والخزرج خارج الحزام الذى كانوا محتبسين فيه وبنوا المنازل والآطام فى سائر أنحاء (يثرب)، وتوسعوا فى المزارع، وصار لكل بطن من بطونهم مواقع كثيرة، حينئذ خطط اليهود لاستعادة سلطتهم عليهم بطريقة جديدة، ترتكز على التفريق بينهم وضرب بعضهم ببعض، فأعادوا التحالف معهم، وجعلوا كل قبيلة منهم تحالف واحدة من القبيلتين الأوس والخزرج؛ تمهيداً لإيقاع الفتنة بينهم، فتحالف بنو النضير وبنو قريظة مع الأوسيين، وتحالف بنو قينقاع مع الخزرجيين، وبدأت كل فئة يهودية تسعر النار فى حليفتها على الطرف الآخر وتذكى العداوة والشقاق بينهما.

وما إن نجحت الخطة الماكرة حتى نشبت المعارك بين قبيلتى الأوس والخزرج، واشتعلت الحروب الطاحنة بينهما، ودامت قرابة مائة وعشرين عاماً، وكانت بدايتها بحرب سمير، ونهايتها بحرب بعاث، قبل الهجرة بخمس سنوات، وما بين هاتين المعركتين نشبت أكثر من عشرة حروب، وكان لليهود- كما ذكرنا-

ص: ۱۷۹

دور فی إثارتها وإذكاء أوارها؛ ولم تنته حتى جاء الإسلام فأطفأ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله العداء الخطير بينهما بعد هجرته صلى الله عليه و آله إليها كما سنرى؛ وأهم تلك الحروب والوقائع ما يلى:

حرب سمير، وحرب حاطب، و وقعة جحجبا، وموقعة السرارة، وموقعة الحصين بن الأسلت، وموقعة فارع، ويوم الربيع، وموقعة الفجار الأولى، والثانية، وموقعة معبس ومضرس، وحرب بعاث التی كانت آخر الحروب وأشدها عنفاً، حيث راح يستعد لها الفريقان: الأوس والخزرج، واستغرق هذا الإعداد أكثر من شهرين، تغذيه الأحقاد المتراكمة بينهما؛ وفی هذه الحرب تحالف الأوس مع بنیقريظة وبنی النضير، فيما تحالف الخزرجيون مع مزينة وأشجع، وخالفهم عبد اللَّه بن أبی بن سلول.

وكانت بعاث هی منطقة التقائهما، واقتتلوا فيها قتالًا شديداً، وتضعضع الأوسيون وحلفاؤهم، وقتل عدد كبير منهم وبدؤا بالفرار، ولكن قائدهم حضير الكتائب ثبّتهم، فقاتلوا بشجاعة وهزموا الخزرجيين وحلفاءهم، وهمّوا أن يقضوا عليهم نهائياً حتى صرخ رجلٌ من الأوس: «يا معشر الأوس انسحبوا أو أحسنوا ولا تهلكوا إخوانكم، فجوارهم خير من جوار الثعالب»، ويقصد بقوله هذا اليهود الماكرين.

وقبل هذه المعركة كان لهم لقاء برسول اللَّه صلى الله عليه و آله لم يستثمروه؛ وهو ماجاء فی الخبر الذی يقول: لما قدم أبو الحيسر أنس بن رافع مكة، ومعه فتية من بنی عبد الأشهل، فيهم أياس بن معاذ، يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج، سمع بهم رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فأتاهم فجلس إليهم، فقال لهم: هل لكم إلى خير مما جئتم به؟

قالوا: وما ذاك؟

قال: أنا رسول اللَّه، بعثنی إلى العباد، أدعوهم إلى اللَّه، أن يعبدوا اللَّه، و لايشركوا به شيئاً، وأنزل علیّ الكتاب، ثم ذكر لهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن.

ص: ۱۸۰

فقال أياس بن معاذ- وكان غلاماً حدثاً-: هذا واللَّه خير مما جئتم له... وإذا بأبى الحيسر، أنس بن رافع، يأخذ حفنة من البطحاء، ويضرب بها وجه أياس بن معاذ ويقول له: دعنا منك، فلعمرى لقد جئنا لغير هذا؛ فصمت أياس، وقام رسول اللَّه صلى الله عليه و آله عنهم وانصرفوا إلى المدينة.

وكان أياس هذا أصغر قومه إلّا أنه يتمتع بعقل كبير وأدرك ما سيؤول إليه الأمر، إذا لم يأخذوا بما عرضه عليهم رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، وبه إنقاذهم من الدمار والهلاك الذى وقع فعلًا بعد عودتهم إلى يثرب، حيث وقعت حرب بعاث بين الأوس والخزرج، وقد حلّت الهزيمة بالأوس أول الأمر، ثم دارت الدائرة على الخزرج، ووضع فيهم السلاح حتى صاح من صاح: «يا معشر الأوس، أحسنوا ولا تهلكوا إخوانكم، فجوارهم خير من جوار الثعالب». ويقصد بهم اليهود الذين مالبثوا يذكون نار الفتنة بين الفريقين سنين طويلة؛ ولم يسكت غضب الأوسيين حتى أضرموا النار اللاهبة فى دور الخزرجيين ونخيلهم.

ويقول الطبرى عن أياس: ثم لم يلبث أياس بن معاذ أن هلك.

قال محمود بن لبيد: فأخبرنى من حضره من قومى عند موته: إنهم لم يزالوا يسمعونه يهلل اللَّه ويكبره ويحمده ويسبحه، حتى مات، فما كانوا يشكّون أن قد مات مسلماً، لقد كان استشعر الإسلام فى ذلك المجلس، حين سمع من رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ما سمع.

وبعد تلك الواقعة سئموا الحرب، وكرهوا الفتنة، وأجمعوا أن يتوّجوا- بتشديد الواو- عبد اللَّه بن أبى بن سلول ملكاً عليهم، ليستقروا ويأمنوا، وتنتهى الفتن والمعارك بينهم.

حقاً، لقد أحب اليثربيون محمداً رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، ومازال هو فى مكة المكرمة.

أحبوه حباً عظيماً منذ أن وفقوا لرؤيته، وشاء اللَّه أن يشارك عدد من القبيلتين فى بيعة العقبة الأولى، ثم فى العقبة الثانية فى مكة؛ فكان ذلك بداية لتأليف قلوبهم

ص: ۱۸۱

وجمعها على الدين الإسلامى الحنيف كما نرى.

فقد التقى بستة من الخزرج، وتحدّث معهم، وسمعوا منه معانى الدين الجديد، ومبادءه القيمة، ومعالمه، ثم قال بعضهم لبعض: «هذا واللّه النبى الذى تتوعّدكم به اليهود».

كان اليهود يطلبون الفتح عليهم، بنبى يخرج بين عير واحد:

«وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلمّا جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة اللّه على الكافرين» (۱) ثم قالوا له: «إن بين قومنا شراً، وعسى اللّه أن يجمعهم بك، فإن اجتمعوا عليك، فلا رجل أعز منك».

وصاروا رسلًا للدين الجديد، يحدّثون قومهم بما فتح اللّه عليهم عن الدين الجديد، والنبى الجديد الذى كانوا به يحلمون؛ وما إن حلّ العام المقبل حتى أتى منهم اثنا عشر رجلًا من سادة الأوس والخزرج، ورسول اللّه صلى الله عليه و آله ينتظرهم فى العقبة، فكانت البيعة الأولى، وانتدب شاباً إنه مصعب بن عمير بن هاشم يعلمهم الدين وأحكامه: «إذهب يا مصعب على بركة اللّه».

ومصعب هذا المملوء إيماناً، و حيوية، ونشاطاً، وهجر حياته الناعمة المترفة بفضل ما عليه والداه من غنى وترف، هجر ذلك كله، والتحق بركب الصالحين المؤمنين، وكانت أولى المهمات أن كلّفه رسول اللّه صلى الله عليه و آله بأن يكون مبعوثه إلى يثرب، ويكون داعيةً لمهمة رسالية، أدّاها على خير وجه... إلى أن اختارته السماء شهيداً فى معركة أحد، ورسول اللّه صلى الله عليه و آله وقف على قبره يرثيه: «لقد رأيتك بمكة وما أحد أرقّ منك حلة، ولا أحسن لمة، ثم أنت أشعث الرأس فى بردة!». فى أجواء من العداء التاريخى المرير بين قبيلتى الأوس والخزرج، يقف مصعب يؤدى رسالته، وهو يعلم جيداً أنّ تاريخاً مليئاً بالحروب والدماء والثارات، لا يمكن أن ينسى،

۱- البقرة: ۸۹.

ص: ۱۸۲

والأعداء لا يريدون لهذا التآلف أن يتم، ولا يفرحهم الاتفاق بين العدوّين التاريخيين، حقاً كانت المسؤولية صعبة، والمهمة خطيرة، إلّا أن هذا الشاب وفّق فى عمله أيّما توفيق.

كيف تركت يثرب يا مصعب؟

تركتها إسلاماً والحمد للّه.. يا رسول اللّه!

وأخذت الدهشة ترتسم على جباه بعضهم: وكيف ذلك، ومنذ فترة كنا بيثرب يا رسول اللّه، ومازال اليهودى يهودياً والمشرك مشركاً والعداء بين الأوس والخزرج مستحكماً!

فيما راح مصعب يواصل إجابته: ألحمد للّهيا رسول اللّه! ما تركت بيتاً فى يثرب إلّا ويتحدث بالإسلام ويتلو القرآن.

وخرجوا بعد مضى ثلث ليل بهم مستخفين، يتسللون حتى اجتمعوا بالعقبة، وبسطوا أيديهم لرسول اللّه صلى الله عليه و آله مبايعين، وهم يقولون: بايعنا على السمع والطاعة فى يُسرنا وعسرنا، فى النشاط، والكسل، وعلى النفقة فى العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، وعلى أن نقول فى اللّه لا تأخذنا فيه لومة لائم، وعلى نصرتك إذا قدمت علينا يثرب، نمنعك مما نمنع منه أنفسنا، وأزواجنا، وأبناءنا.

وهكذا راحت هذه البلدة الطيبة تبدأ حياةً جديدة، بحلة جديدة، وعهد رائع، ودين خالد؛ فما إن حلّ نهار يوم الجمعة من شهر ربيع الأول حتى علت أصواتهم رجالًا ونساءً، صغاراً وكباراً بأنشودةٍ تبشر بقدوم رسول اللّه صلى الله عليه و آله، وتبتهج بطلعته المباركة عليهم، وتنطلق أنشودتهم الجميلة والبسمة تعلو جباههم وشفاههم:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

وجب الشكرعلينا ما دعا للّهداع

أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

إذن، هاجر رسول اللّه صلى الله عليه و آله إليهم، و أطفأ العداوة بين القبيلتين نهائياً، وصاروا بفضل اللّه إخواناً «... واذكروا نعمة اللّه عليكم إذ كنتم أعداءً فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً...»، وبدأت صفحة جديدة من تاريخ يثرب، إنه تاريخ المدينة المنورة «وألّف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألّفت بين قلوبهم ولكن اللّه ألّف بينهم إنه عزيز حكيم» (۱).

۱- الأنفال: ۶۳.

ص: ۱۸۳

ص: ۱۸۴

مكّة المكرّمة دراسة فى جغرافية المدن

الدكتور سمير الدسوقى عبدالعزيز

تعود المعلومات الواردة فى هذه المقالة إلى نهايات القرن الرابعشر الهجرى (۱۳۹۷ ه)، وقد رأت إدارة المجلّة إدراجها لما تحويه من معلومات وفوائد قيّمة.

لا تقتصر وظيفة المدن على تقديم الخدمات الاقتصادية وغيرها لسكّانها أو لسكان المناطق المحيطة فقط، فهناك مدن ذات طابع روحى تقوم على الوظيفة الدينية (۱)؛ فلقد كان الدين عاملًا هامّاً فى نشأة كثير من المدن، ولا يزال أيضاً من عوامل تطورها ونموها. فالسومريون أقاموا مدنهم للعبادة أساساً، وفى مصر واليونان سميت المدن بأسماء الآلهة: (بوصير- بويسة- أثينا)، وما كان يتأتى لمدينة طنطا ذلك الحجم الكبير لولا العامل الدينى.

وفى العصور الوسطى لعب الدين دوراً كبيراً فى نشأة كثير من المدن الأوروبية التى ظهرت كمراكز إشعاع ونشر المسيحية، بل إنّ الذى حفظ لأوروبا

۱- Beaujau - Garnier, J. and Chabot, G ۱۹۷۱ Urban Geography, London, p, ۱۶۸.

ص: ۱۸۵

مدنها خلال تلك العصور وأعاد بناءها بعدها هى الكنيسة.

وكان الإسلام بنّاءً للمدن أيضاً، فالمسجد أوّل ما يقام فى المدينة الإسلاميّة الجديدة (الفسطاط- العسكر- القطائع...)، وتحوّل اسم يثرب بعد الإسلام إلى المدينة.

وفى العصر الحديث، يمكن أن نلمس الأثر المدنى للدين أيضاً، ففى أمريكا الجنوبية، وفى الأقصاع الشبه قطبية، أقيمت المساكن حول الكنائس، حيث يتردد عليها أصحابها مرّة كلّ أسبوع، (مدن الآحاد).

وهكذا فى كل العصور، كانت فترات النشاط المدنى هى الانتفاض الدينى، وعلى العكس كانت المناطق التى تأخرت كثيراً فى حياة المدن هى التى تأخرت فى التطور الدينى، كالبربر القدماء والجرمان واليابان (۱).

ومكّة المكرّمة مدينة دينيّة وتجاريّة منذ أقدم العصور، فقد حظيت بأوّل بيت وضع للناس، وهى على الطريق الرئيسى بين اليمن والشام، ممّا أكسبها خصائص ومميزات لا تنافسها فيها مدينة أخرى فى شبه جزيرة العرب، لذلك نزلت مكّة قبائل عديدة استقرّت حول البيت الحرام الذى تفجّر إلى جواره بئر زمزم كمورد دائم للشرب فى واد مقفر غير ذى زرع.

ولقد عوّض البيت العتيق مكّة هذا النقص فى الموارد الاقتصادية، فأصبحت مركزاً هامّاً للحياة الدينية والتجارية فى الجزيرة والعالم الإسلامى فيما بعد، ونعم سكانها بالأمن والحياة المستقرة.

ولمكّة أسماء كثيرة: بكة، والباسّة، وأم القرى، وصلاح، وأم الرحم، والحاطمة. ويقال: إن بكة موضع البيت، ومكّة هى الحرم كله (۲). وهى أم القرى؛ لأن كل ما حولها أتباع لها، وقد أعلن أحد العلماء أن مكة مركز اليابسة فى الكرة

۱- جمال حمدان، ۱۹۷۲ جغرافية المدن، القاهرة، ص ۱۷۵.

۲- الأزرقى ۱۹۶۵، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ۱: ۲۸۰- ۲۸۲. مطبعة دار الثقافة بمكة.

ص: ۱۸۶

الأرضية، وذلك فى تحقيقٍ استعان فيه بالحاسب الالكترونى وبمعادلات وعمليات رياضية معقدة، أعدّ على أساسه خريطة جديدة للكرة الأرضية (۱).

وفى الكتب اليونانية، سميت «مكوربا»، وهو اسم مشتق من كلمة «مكورابا» بمعنى مقدس أو محرم (۲) ويرجع تاريخ عمارتها إلى عهد إبراهيم وابنه إسماعيل سنة ۱۸۹۲ ق. م. وفيها ولد النبى محمد، وفيها بعث وظهرت دعوة الإسلام.

الموقع والموضع

۱- موقع مكة:

تقع مكة المكرمة فى منطقة تحيط بها التلال القاحلة الجرداء (۳) على‌دائرة العرض ۲۵/ ۲۱ شمالًا، وخط طول ۴۹/ ۳۹ شرقاً، وهى عاصمة الأمارة التى تعرف باسمها فى غرب المملكة العربية السعودية. وترتفع مكة عن سطح البحر بحوالى ۳۶ متراً، كما تبعد عن ميناء جدة على ساحل البحر الأحمر بنحو ۷۳ كم.

وعلى هذا، تقع مكة ضمن سهل تهامة الساحلى (السواحل الغربية لشبه جزيرة العرب) الممتد على طول ساحل البحر الأحمر من أقصى شماله عند خليج العقبة إلى نهايته الجنوبية عند باب المندب.

ويحدّ سهل تهامة من الشرق جبال الحجاز التى تبدأ على شكل هضبة فى الشمال، تأخذ فى التقطّع والارتفاع بالاتجاه جنوباً. وهذه الجبال تتكوّن من صخور ما قبل الكمبرى التى كثيراً ما تغطيها الطفوح البركانية حيث تعرف بالحرات (۴).

ويتميز سهل تهامة بشدة حرارته وركود ريحه وبأرضه الرملية الحصوية والملحية، ولكنها لا تخلو من بعض المواضع الصالحة للزراعة، وهى تلك المواضع

۱- حسين كمال الدين ۱۹۷۷، موقع مكة من الكرة الأرضية جريدة الأهرام، القاهرة- العدد الصادر بتاريخ ۴/ ۲/ ۱۹۷۷.

۲- Encyclopedia Britannica ۱۹۶۵, prinded in the U.S.A., p.۳۰

۳- Moore, W.G. (۱۹۷۱), The penguin Encyclopedia of places, England, p. ۴۷۱

۴- Fisher, W.B. ۱۹۷۱, The Middle East, London, o. ۴۴۳

ص: ۱۸۷

التى غطّتها إرسابات رملية وطينية جرفتها الأودية إلى الساحل.

وسهل تهامة ضيّق فى معظمه لاقتراب الجبال من البحر، ولكنه يأخذ شكلًا حوضياً وسهلياً، ويتوغل نحو الداخل لأكثر من ۷۰ كيلو متراً فى منطقة مكة ليدخلها فى نطاقه.

وبذلك أصبحت مكة بساحلها على البحر الأحمر بوابةً لوسط شبه الجزيرة ومدخلًا طبيعياً إليه، هذا بالإضافة إلى أن مكة فى موضع تصل المسافة فيه بين الخليج الفارسى والبحر الأحمر إلى أدناها. وكان لهذا الموقع أهمية كبرى لحياة قريش التجارية، فاستطاعت أن تتصل بسهولة بداخل شبه الجزيرة من ناحية، وبموانئ ساحل الخليج الفارسى من ناحية أخرى. ولقد زاد من أهمية هذا الاتصال ما كانت تعانيه مكة ومدن الحجاز الأخرى من عدم قدرتها على إعالة سكانها أو الوافدين إليها للحج والتجارة، ولكنها بفضل موقعها أمكنها الحصول على كميات إضافية من الطعام مقابل الخدمات التى تقدمها للقوافل المارة.

ص: ۱۸۸

ولم یکن من حائل برّی یعوق اتصال منطقة مکة بإیران فی الشمال الشرقی، أو بالشام فی الشمال الغربی، فصحراء النفود تتدرج إلی الشمال فی رفق وسهولة، کما أن الطریق الساحلی إلی الیمن سهل ومنبسط إلی حد کبیر.

وکانت أهم الطرق التجاریة التی سلکتها القوافل فی شبه الجزیرة وتمرّ بمکة هی:

۱- الطریق الممتد علی طول خط الاستقرار الموازی لجبال السراة بین الیمن والشام، ویمر هذا الطریق بکل من نجران- الطائف- مکة- المدینة- مدائن صالح- تبوک، ثم إلی الشام.

۲- طریق یمتد من مکة نحو الشمال الشرقی متابعاً موارد المیاه فی وادی الرمة إلی رأس الخلیج الفارسی (۱).

ولهذا کان لموقع مکة أهمیة تجاریة کبری بین مناطق الاستقرار المحیطة:

فارس والروم شمالًا، والیمن وما وراءها من أرض الحبشة جنوباً (۲) وکانت المنطقة حلقة اتصال بین الحضارات الشمالیة والجنوبیة، ولم تکن فی عزلة جغرافیة کالتی عاشت فیها کثیر من مناطق الاستقرار الکبری فی آسیا الموسمیة.

وجاءت شبکة الطرق والمواصلات المدنیّة مؤکدةً لهذا المعنی، فمن أهم الطرق البریة بالمملکة العربیة السعودیة طریقان، کلاهما یمر بمکة المکرمة:

۱- طریق الدمام- جدة: طوله ۱۵۰۰ کم، ماراً بالریاض- الطائف- مکة.

وهو فی مقدمة الطرق الرئیسیة بالمملکة، سواء من ناحیة الهیکل العام أو من الناحیة الوظیفیة. وأهمیة هذا الطریق تعود إلی أنه یربط بین منطقة الخلیج الفارسی وموانئ البحر الأحمر، هذا بالإضافة إلی أنه یربط المناطق الثلاث بالمملکة الشرقیة والوسطی والغربیة بعضها البعض.

۱- Kammerer, A. ۱۹۲۹, La Mer Rouge, Le Caire, p. ۴۷.

۲- Semple, E.C. ۱۹۱۱, Intluences of Geogrephic Enviroment, London, p.p. ۴۰۴ - ۴۰۶.

ص: ۱۸۹

ثم إن الطريق يصل بين أهم موانئ المملكة (الدمام- جدة) ومراكز العمران الداخلية، وعن طريقه يتم نقل الواردات إلى الداخل، كما أنه يساعد فى توزيع فائض الإنتاج الزراعى- خاصة الخضر والفاكهة- بين المناطق، ويعمل فى خدمة الحجاج أيضاً.

۲- طريق تبوك- أبها: وطوله ۲۰۸۳ كم، ويربط بين الحدود الشمالية والجنوبية للمملكة العربية السعودية، ويعدّ من أعظم الطرق البرية فى البلاد العربية جميعاً.

ويمرّ الطريق بعدد من أكبر مراكز العمران فى المملكة وأهمها: تبوك- المدينة- جدة- الطائف- أبها- نجران- جيزان. وقد ساعد هذا الطريق على اتصال السعودية بالدول الواقعة إلى الشمال منها حتى أوروبا عبر الأردن وسوريا وتركيا، ويؤدى خدمات كبيرة فى نقل المسافرين للحج والزيارة فى الدول المجاورة. كما أنه خلال فترة إغلاق قناة السويس (۶۷- ۱۹۷۵ م) كان بمثابة الشريان الذى تم عن طريقه نقل معظم واردات البلاد التى كانت تفرغ فى ميناء بيروت، ثم تشحن إلى المملكة بواسطة سيارات خاصة (۱).

وبالإضافة إلى هذين الطريقين الرئيسين يربط بين مكة والمناطق المحيطة شبكة من الطرق، تزيد من أهمية موقعها إلى حدّ كبير، ولعل أهم هذه الطرق الطريق الذى يصل بين مكة وجدة، ميناء الحج الرئيسى على البحر الأحمر.

والطريق بين مكة وجدة يتبع طريق الحج القديم، فيبدأ من جدة مخترقاً التلال الرملية الجافة وبعض الأراضى الخصبة فى وادى فاطمة. وبعد الشميسى يمر الطريق تحت سفح سلسلة جبال الحجاز الرئيسية عبر وادى شريف الرملى أحد روافد وادى فاطمة، حيث يقوم شاهدان يشيران إلى بداية منطقة الحرم والتى

۱- محمّد الرويثى، ۱۹۷۷، الانتاج الغذائى فى المملكة العربية السعودية: ۱۴۳- ۱۴۴، رسالة ماجيستير غير منشورة قدمت لجامعة القاهرة.

ص: ١٩٠

يحرم دخولها على غير المسلمين. ثم يتابع الطريق سيره إلى أن يدخل مكة من ناحيتها الغربية. والطريق من طرق الدرجة الأولى، وطوله نحو ٧٣ كم.

وعند «الشاهدان» يخرج طريق فرعى- طريق الخواجات- ليدور حول مكة من الجنوب إلى أن يتصل بطريق مكة- الطائف خارج منطقة الحج فى منى وعرفات. ويتبع الأجانب هذا الطريق عند اتجاههم إلى مدينة الطائف.

ويربط بين مكة والطائف طريقان: الأول: الطريق الشمالى الذى يتبع وادى فاطمة ثم وادى اليمانية، وقد هجر هذا الطريق منذ عام ١٩٦٥ م عندما بدأ تشغيل الطريق الثانى.

أما الطريق الآخر، فيبدأ من شرق مكة مخترقاً منطقتى منى وعرفات، ثم يصعد منطقة الجبال بين مكة والطائف فى طريقٍ كثير الانحناءات، يتعرض للانقطاع عند سقوط الأمطار الغزيرة فوق «منطقة الهدا» التى ترتفع نحو ٥٠٠٠ قدم فوق سطح البحر قرب مدينة الطائف، فتسقط كتل من الصخر على الطريق، وتتوقف الحركة عليه. وقد يستمرّ التوقف أحياناً لعدة أيام حتى تتم إزالة الصخور وإصلاح الطريق وتأمينه للمسافرين. ويبلغ طول الطريق نحو ٨٧ كم، منها ١٧ كم فى المنطقة الجبلية.

والطريق الثانى- وهو المستخدم حالياً- لا تتوقف الحركة عليه وخاصة فى موسم الحج أو فى فصل الصيف، وهو مزوّد بوسائل الإرشاد ونقط الإسعاف، ومع ذلك فالحوادث الخطيرة كثيرة، مما دفع الحكومة لأن تعهد إلى إحدى الشركات مهمّةَ رصف الطريق الأول وإعادة تشغيله. وقد أوشكت الشركة على الانتهاء من عملها، وينتظر أن يبدأ التشغيل قريباً. والطريق طوله نحو ١۴۵ كم، ويساعد فى تخفيف الضغط على الطريق المستخدم حالياً، كما أنه يمرّ فى مناطق زراعية خصبة توفر لمدينتى مكة وجدة جزءاً من احتياجاتهما من الخضر أو الفاكهة.

كما يربط بين مكة والمدينة طريق مرصوف طوله حوالى ۴٨۵ كم (٣٣۵ كم

ص: ۱۹۱

فی خط مستقیم)، ویتبع الطریق من مکـة وادی فاطمـة إلی أن یلتقی بالطریق الموصل بین المدینـة وجـدة عند بدر تقریباً، ثم ینحرف نحو الشـمال الشـرقی مخترقاً الجبال لیـدخل المدینـة من ناحیتها الجنوبیـة الغربیّة. وظل یطلق علی هذا الطریق لفترة طویلة اسم «الدرب السلطانی» (۱).

هـذا بالإضافـة إلی عـدد آخر من الطرق التی تربـط بین مکـة والقری المحیطـة بها فی کل من وادی فاطمـة أو منطقـة خلیص الزراعیة الخصبة، وکذلک تلک التی تربط بین مکة وجعرانة، أو بین مکة ومنطقة شعائر الحج فی منی وعرفات والمزدلفة.

والطرق الأخیرة متسعة وفسیحة، أزیلت بعض التلال التی کانت تقف عقبةً فی طریقها خلال السنوات الأخیرة، وقد یصل عرض بعضها فقط لأکثر من مائـة متر. ومنذ عام ۱۹۷۲ م، بلغ عـدد الطرق الموصـلة بین مکة ومنطقة شـعائر الحج خمس طرق مزودة بجسور علویة لتسهیل حرکة الحجاج وتنقلاتهم.

وعلی هذا، یمکن أن نقول بأن مکة المکرمة ذات موقع هام فی غرب شـبه جزیرة العرب، فهی فی ملتقی طرق المواصلات بین الشمال والجنوب، وفی منطقـة تبلغ المسافـة فیهـا بین شـرق الجزیرة وغربها أقلّ قـدر لها، مما جعل منها مـدخلًا لوسـطها، کما أن توافر مصادر المیاه هیأ الاستقرار لسکانها منذ آلاف السنین.

۲- موضع مکة:

تتحـدّد مواضع المـدن الدینیـة فی العالم غالباً بأحداث أو رؤی ومعتقدات، أو بموضع قبر کان یری الناس فی صاحبه الخیر والصـلاح، أی إن مواضع هذه المدن لا تخضع للمنطق الجغرافی.

ولقـد تحـدّد موضع مکة حیث الحجر الأسود فی بطن وادی إبراهیم الذی ینحدر من الشـمال الشـرقی إلی الجنوب الغربی، وفی شـرق وادی إبراهیم یرتفع جبل

۱- عبدالعزیز کامل ۶۷/ ۱۹۶۸، جغرافیة الإسلام فی عصر النبوة: ۱۲۹، مطبوعات معهد الدراسات الإسلامیة، القاهرة.

ص: ۱۹۲

قعيقعان، وإلى الغرب منه جبل أبى قبيس. ويطلق على الجبلين: «الأخشبان» حيث لا ينمو عليهما من النبت إلا القليل، كما أن سفوحهما جرداء تتناثر فيهما المغارات التى تتفاوت عمقاً واتساعاً، ويأوى إليها البدو خلال الشتاء.

وعند حضيض أبى قبيس ترتفع ربوة صغيرة هى الصفاء تقابلها فى الجنوب الشرقى ربوة أخرى هى المروة. وفى منتصف الطريق بينهما تهبط الأرض فى بطن الوادى.

وإلى جنوب قعيقعان وغرب أبى قبيس يرتفع جبل عمر، وكان اسمه العاقر فى الجاهلية. ويطلق على الجزء الشمالى من قعيقعان «جبل الهندى» لسكنى الهنود فيه.

هذه هى الجبال الرئيسية المشرفة على مكة. ولكن إذا رجعنا إلى الخريطة الكنتورية لوجدنا جبالًا أخرى كثيرة أقل حجماً وأهمية، وبعضها أجزاء من الكتل الرئيسية الثلاث أو امتدادات لها. وقد أدى توزيع الكتل الجبلية حول مكة بهذا الشكل إلى تحديد مداخلها تحديداً دقيقاً، قصرها على ثلاثة، هى:

۱- المدخل الغربى: بين جبلى قعيقعان وعمر، وهو الموصل إلى جدة، ويعتبر أهم مداخل المدينة.

۲- المدخل الجنوبى: فى مسفلة مكة، ويسمى طريق اليمن.

۳- المدخل الشمالى: من المعلاة، ويوصل إلى منى وعرفات والطائف.

وتؤدى هذه المداخل- أو الطرق- الثلاث إلى بطن مكة، وبينها اتصالات حول جبل قعيقعان. فهناك طريق يتفرع من الطريق الغربى ويتجه شمالًا ماراً بالحجون إلى وادى فاطمة إلى الظهران، حيث يلتقى بطريق آخر يتفرع من الطريق الشمالى ويتصل طريق الحجون بطريق الشمال فى معلاة مكة بطريق كدا شمال جبل الهندى.

وتمتدّ مكة المكرمة من الشرق إلى الغرب لمسافة ستة كيلو ونصف

ص: ۱۹۳

الكيلومتر، ومن الشمال إلى الجنوب لمسافة سبعة كيلو ونصف الكيلومتر، ويبلغ إجمالى مسطح المدينة شاملًا الأراضى المستخدمة للإسكان والخدمات والمرافق العامة والجبال المأهولة بالسكان- عام ۱۹۷۴- نحو ۱۶۵۱ هكتاراً.

أما أبعاد المنطقة الحرام فغير محدّدة بمسافة معينة فى كل اتجاه، فهى تتخذ شكل المعيّن أو الشكل غير قائم الزوايا الذى يبدأ من مسافة ۴۰ كم من الشميسى- على طريق جدة- ومسافة ۱۹ كم من التناعيم- على طريق نجد-، ونفس المسافة تقريباً على طريق اليمن. هذا بينما تبدأ المنطقة الحرام فى عرفات على بعد نحو ۹ كم فقط فى اتجاه الشرق فى وادى النعمان، وفى المنطقة الأخيرة يقع مسجد نمرة.

وهكذا يمكن القول بأن مكة المكرمة تقوم فى بعض الوديان المحاطة بعددٍ من المرتفعات والتلال التى زحف عليها العمران بدورها فى كثير من أجزائها. ويعتبر وادى إبراهيم الذى يضم قلب المدينة، ويحتل وسطه المسجد الحرام (ويضم بدوره الكعبة المشرفة، وبئر زمزم، ومقام إبراهيم، ومنطقة السعى بين الصفا والمروة) أهم الوديان جميعاً، وتبدأ منابعه من جبل النار (۱۵۰ متراً فوق سطح البحر) ومجموعة المرتفعات الشمالية الشرقية لمكة بالقرب من جعرانة (۲۰ كم من مكة)، حيث الروافد من الجبال المحيطة كجبل النور (۵۶۰ متراً) وجبل تعبة (۸۷۲ متراً) ما بين منى ومجرى الوادى الرئيسى، هذا بالإضافة إلى روافد أخرى تأتى من الجبال المحيطة بمنطقة المعابدة، مثل جبل المسكين ما بين المعابدة والروضة والملاوى، ويزيد ارتفاعه على ۴۷۰ متراً.

وبمواصلة السير مع وادى إبراهيم نحو المصبّ نجد أنه يسمى بالخريق، وهى منطقة تحيط بها المرتفعات من الشرق والغرب. وتسمى المرتفعات الغربية بالحجون (وإلى جنوبها جبل المدافع). أما الشرقية فأكثر ارتفاعاً وتقطعها الشعاب، مثل شعب عامر الذى يلتقى مع وادى إبراهيم فى منطقة الغزة، وشعب

ص: ۱۹۴

على الـذى يلتقى معه فى منطقـة سوق الليل. وفى الغزة يقع جبل قعيقعان وجبل النقاء ثم جبل الهنـدى غرب الشامية، وجبل عمر الذى شقّ عبره طريق ليصل بين منطقتى الشبيكة والحفائر.

وإلى الشرق من الوادى- والحرم- يقع جبـل أبى قبيس الـذى يطلّ على شـعب على من الشـمال. أما إلى الغرب والجنوب منه فهناك جبـل خندمـة الـذى يفصـل بين منطقتى أجياد والعزيزيـة، وفى الأول تقع جبال السبع بنات والمصافى وريع بخش وسـلاسل، ويتراوح ارتفـاع هـذه الجبال ما بين ۴۲۰- ۵۹۲ م. وعلى جبـال سـلاسل تقوم قلعـة أثريـة قديمـة شـيّدها الأـتراك لتطـل على الحرم من ناحيته الجنوبية.

وفى شـمال غرب الحرم- منطقـة حارة الباب- تقوم عـدة جبال، أهمها جبل الكعبة (۴۶۷ م)، وريع الرسـان (۴۵۳ م)، وهمـا من الجبال المأهولة بالسكان؛ نظراً لقربها من الحرم وقلب المدينة التجارى.

وبعد أن يترك الوادى منطقة الحرم يخترق مسفلة مكة، حيث ينتهى فى آخرها. والمسفلة تعتبر أكثر جهات مكة انخفاضاً، ولهذا تكثر فيها الآبار، مما ساعد على كثرة البساتين التى يمتلكها بعض كبار التجار، ويجد فيها سكان مكة متنفساً لهم.

وبالإضافـة إلى وادى إبراهيم هنـاك أوديـة أخرى عديـدة، أهمهـا وادى العشـر الـذى تكـوّن من تجمّع بعض الروافـد المنحـدرة من مرتفعات شمال مكة، ويتجه فى امتداده صوب الغرب حيث طريق مكة- جدة وأحياء الشهداء والزاهر والنزهة.

ويغذى وادى العشـر أودية فرعية، منها وادى الرحا ووادى الرصيفة ووادى دبرة، ولكن أهمها وادى البحر الذى يسمى بهذا الاسم نظراً لاتساعه وغزارة المياه التى يجلبها، حيث ينبع من مجموعة جبلية يتراوح ارتفاع قممها ما بين ۷۰۰- ۹۶۰ م فى شمال الشميسى.

ص: ۱۹۵

أما وادى الرصيفة، فيمتد من العتيبية إلى جرول فالتنضباوى، حيث يصل إلى شارع منصور- أحد شوارع مكة الرئيسية-، ثم يلتقى وادى إبراهيم مع نهاية المسفلة فى منطقة الرصيفة التى استمدّت اسمها من اسم الوادى، وفى وادى الرصيفة يقع بئر طوى، ويحيط به جبل أبى لهب وجبل ربع الكحل.

ومن جبال مكة ذات الأهمية الخاصة لدى المسلمين جبل النور (۶۳۴ م) فى الشمال الغربى، وجبل عرفات، وجبل الرحمة فى الشرق (۳۴۰ م)، ثم جبل ثور فى الجنوب.

وجبل النور يقع فيه غار حراء، وقد أنشئ فى قمته خزان لتجميع مياه الأمطار، ويصل إليه طريق معبّد. أما جبل عرفات فتصعد إليه جموع المسلمين فى يوم عرف باسمه. وفى جبل ثور يقع غار الهجرة النبوية.

ومعظم جبال منطقة مكة مأهولة بالسكان، وخاصة القريبة من الحرم. أما ما يقع منها فى منطقة شعائر الحج فى منى وعرفات فتقتصر الحياة فيها على موسم الحج فقط، كما يتردد عليها الزوار فى مواسم العمرة.

وكان لموضع مكة فى منطقة سهلية منبسطة- أو حوض مغلق- تحيط به الجبال ذات الشعاب، بحيث تكاد تغلقه من كل الجهات إلا فى مخارجه الثلاثة، بالإضافة إلى حرمتها الدينية، أن أصبح المستقرون فى هذا المكان أو العابرون له فى غنى عن بناء أسوار الحماية، حيث يمكن للقافلة أن تتحصّن فى الشعاب بواسطة حراسها.

ومكة فى هذا الأمر تنفرد بهذه الخاصية عن كل محطات القوافل ومدن التجارة على طول الطريق بين الشام واليمن، والتى تتخذ من الحصون والأسوار دروعاً واقية من هجمات المغيرين. أما فى مكة فليست هناك أسوار حماية.

ومما ساعد هذا الموضع على اكتساب منزلة رفيعة مميزة تفجّر عين زمزم فى وسطه، والتى تستمد منها القوافل حاجتها من المياه. والمعروف أنه حيثما وجدت

ص: ۱۹۶

المياه الدائمة الوفيرة فى منطقةٍ صحراوية مثل مكة تحولت إلى مدن تعمل فى التجارة وخدمة القوافل، هذا بالإضافة إلى اكتساب مكة حرمةً خاصة نظراً لوجود الكعبة المشرفة بها.

وعلى هذا، لم تكن قريش والقبائل الأخرى التى استقرت بمكة فى حاجةٍ إلى تخطيطها على أساس دفاعى كما لم يكن هناك ما يدعو إلى بناء حصون أو أسوار- أبواب- ضخمة تتحكم فى الوافدين إليها أو الصادرين عنها. ومن هنا كان لتخطيط مكة طابع خاص، يعتمد على قداسة البيت والمركز الدينى المرموق، بالإضافة إلى طبيعة الموضع.

وعند هذا الحد يمكن أن نكوّن تصوراً عريضاً لموقع وموضع مكة، فهى المنطقة التى يتقابل فيها سهل تهامة الساحلى مع مجموعة الجبال والتلال الجرانيتية الظاهرة من مجموعة القاعدة الجيولوجية والتى إليها العمران فى كثير من أجزائها.

ويفصل بين التلال مجموعة من الأودية، أهمها وادى إبراهيم الذى يضم قلب المدينة التجارى والمنطقة السكنية الرئيسية، وفى مركزها المسجد الحرام.

كما يقع هنا أيضاً المنزل الذى ولد فيه النبى وعيادات الأطباء والمستشفى الرئيسى للمدينة وجبانة المعلاة والبريد والبرق.... وكانت مكة فيما مضى ملتقى القوافل المتجهة إلى الشام واليمن. يفد إليها التجار والحجاج من كل مكان فى العالم الإسلامى. وفى الوقت الحاضر تأتى مكة فى ملتقى أهم طرق السعودية التى تربط بينها وبين مختلف أنحاء البلاد وخاصة مداخلها الشمالية والجنوبية، حيث تصل جموع كبيرة من الحجاج عن طريق السيارات لأداء فريضة الحج أو العمرة.

مناخ مكة

نظراً لموقع مكة الداخلى فى نطاق الإقليم الجاف- الصحارى المدارية وشبه المدارية- فقد تميزت بالسماء الصافية. وعظم تأثير ضوء الشمس فى رفع درجات الحرارة؛ فمتوسط درجة الحرارة السنوى لا يقل عن ۲۷۱۲ م. والجدول التالى يبين

ص: ۱۹۷

درجات الحرارة العظمى والصغرى خلال شهور السنة بمنطقة مكة:

الشهر متوسط درجة الحرارة العظمى متوسط درجة المتوسط الحرارة الصغرى

يناير ۶ ر ۲۹ ۲ ر ۱۷ ۴ ر ۲۳

فبراير ۷ ر ۳۰ ۳ ر ۱۸ ۱ ر ۲۴

مارس- ر ۳۱ ۱ ر ۱۹- ر ۲۵

أبريل ۸ ر ۳۳ ۳ ر ۲۱ ۵ ر ۲۷

مايو ۲ ر ۳۴ ۲ ر ۲۳ ۷ ر ۲۸

يونيو ۸ ر ۳۵ ۱ ر ۲۳ ۴ ر ۲۹

يوليو ۶ ر ۳۷ ۲ ر ۲۴ ۹ ر ۳۰

أغسطس ۲ ر ۳۶ ۴ ر ۲۵ ۳ ر ۳۰

سبتمبر ۷ ر ۳۴ ۱ ر ۲۵ ۹ ر ۲۹

أكتوبر ۸ ر ۳۴ ۸ ر ۲۰ ۸ ر ۲۷

نوفمبر ۲ ر ۳۲ ۷ ر ۲۰ ۴ ر ۲۶

ديسمبر ۹ ر ۲۹ ۷ ر ۱۸- ر ۲۴

۴ ر ۳۳ ۵ ر ۲۱ ۸ ر ۲۷

ومن الجدول يتضح أن متوسط الحرارة خلال شـهور الصـيف (مايو- أغسطس) مرتفع، ويصل إلى نحو ۳۰ م، ثم يأخذ فى الانخفاض حتى يصل فى شهور الشتاء إلى ۲۴۱۲ م. ويلاحظ أن أكثر شـهور السنة حرارةً هو شهر يوليو (۹ ر ۳۰ م) وأقلّها حرارةً شهر يناير (۴ ر ۲۳ م). ولعل ارتفاع درجة الحرارة فى مكة طوال معظم شهور السنة يعود إلى إحاطتها بالجبال التى تمنع عنها المؤثرات البحرية. وكان لذلك أثره على الفروق الحرارية بين الصيف والشتاء، حيث تصل إلى نحو ۶ م فقط.

ومن دراسة الجدول أيضاً نلاحظ عدم وجود تغيّرات موسـمية واضحة فى درجات الحرارة، وخاصة درجات الحرارة العظمى، وهذا هو طابع الجهات المداريـة الجافة بوجه عام. أما المدى الحرارى فهو غير واضح بين الشـهور، ولكنه أكثر وضوحاً بين الليل والنهار، حيث يبلغ أكثر من عشر درجات. وسبب ذلك

ص: ۱۹۸

بطبیعهٔ الحال یعود إلی الجفاف والبعد عن المؤثرات البحریهٔ.

أما من حیث الأمطار علی منطقهٔ مکهٔ فإنه علی الرغم من قربها من البحر الأحمر والذی لا یبعد عنها أکثر من ۷۳ کم، إلّاأنه نظراً للخصائص المناخیهٔ التی تمیزه، ووجود الجبال کحاجز بینها وبینه، فإن أهمیته کمصدر للأمطار محدود للغایهٔ، بینما المصادر الحقیقیهٔ تقع فوق البحر المتوسط؛ ولذلک فإن الأمطار هنا تخضع فی سقوطها لنظام هذا البحر، إنها تسقط خلال الشتاء. أما الفترهٔ الواقعهٔ بین شهری یونیو وأکتوبر فإنها فترهٔ جافهٔ عدیمهٔ الأمطار. والتباین فی کمیهٔ المطر الساقطهٔ خلال الشهور أکثر وضوحاً کلما قلّت کمیهٔ الأمطار السنویهٔ. ویمکن أن نرجع ضآلهٔ الأمطار أیضاً إلی الانخفاض النسبی الذی یمیز الجبال المحیطهٔ بالمنطقهٔ، سواء فی اتجاه الهضبهٔ الداخلیهٔ أو فی اتجاه البحر بوجه عام.

ومعظم میاه الأمطار تنصرف عبر الأودیهٔ، خاصهٔ وادی إبراهیم، مما ینتج عنه أحیاناً بعض السیول المدمرهٔ، آخرها تلک التی حدثت فی عام ۱۹۷۴ م وشهدها الباحث، وتسبّبت فی وقوع خسائر جسیمهٔ فی الأرواح والأموال، وتبذل الجهود لمواجهۀ مثل هذه السیول المفاجئهٔ والمدمرهٔ بإقامهٔ عدد من مصارف الأمطار، خاصهٔ فی منطقتی الحرم والمسفلهٔ، أکثر جهات مکهٔ انخفاضاً.

ص: ۱۹۹

والرياح الشمالية هى الرياح السائدة خاصة فى الشتاء سرعتها فى هذا الفصل بين ۴۰- ۶۰ كم/ ساعة، ويزيد من حدة تأثيرها صفاء السماء وقت الهبوب، وكذلك اختلاف اتجاهاتها بصورة فجائية بسبب عامل التضاريس المحلية، مما يسبب أضراراً بالغة للزراعات القليلة بالمنطقة، وبخاصة زراعات الخضر والفاكهة وأشجار النخيل؛ نتيجةً لجفافها وإثارتها للغبار المتراكم فوق التلال المحيطة بالمنطقة.

وفى فصل الصيف، تهبّ على منطقة مكة نوع من الرياح المحلية تعرف برياح السموم، تشبه فى خصائصها رياح الخماسين فى مصر إلى حد كبير، حيث تؤدى إلى رفع درجة الحرارة بشكل واضح، ولكنها فى نفس الوقت تساعد على نضج ثمار النخيل.

مصادر المياه فى مكة

وهى من أهم مشكلات مكة باعتبارها مدينة حج فى بيئةٍ جافة، ومع ذلك تشهد طوفاناً بشرياً فى موسم معين من السنة. ولما كان نمو المدن يتأثر كثيراً بمقدار ما يمكن تدبيره من مياه لاستخدامات السكان المتعددة، والتى تتمثل أساساً فى الاستخدامات الشخصية، ثم فى النواحى الاقتصادية- وأهمها الصناعة- فإنه بالنسبة لمكة نجد أن الاستخدامات الأولى تمتص النسبة الكبرى من مواردها المائية، بالإضافة إلى بعض الزراعات الصغيرة، فى مدينة لا تضم سوى بعض الصناعات الخفيفة أو اليدوية التى لا تستهلك من الماء إلّاالقليل، ثم تأتى بعدها الأغراض الأخرى.

وتواجه مكة المكرمة مشكلة مياه متجددة مرتبطة بنموّها السكنى والسكانى، خاصة وأنه قد صاحب ذلك تعدد ونمو فى وظائفها، وذلك بسبب اعتمادها القديم والدائم على مجموعةٍ معينة من الآبار، ومن مستوى ماء باطنى ثابت قليل العمق غالباً.

ص: ۲۰۰

وتحصل مكة على المياه من مصدرين:

۱- مصادر تملكها الدولة (إدارة عين زبيدة والعزيزية).

۲- مصادر خاصة يتملّكها الأفراد ممثلةً فى عدد من الآبار داخل مكة أو بالقرب منها.

ومعظم استهلاك مكة من الماء تحصل عليه من المصادر الأولى (عين زبيدة والعزيزية)، وتسحب المدينة نحو ۶۰۰ ر ۲۱ م ۳ من المياه يومياً، أو ما يعادل ۸ مليون متر مكعب فى السنة حسب البيان التالى:

المصدر نوعهمتوسط الكمية الوادى ملاحظات يومياً بالمتر المكعب

عين زبيدة نبع ۳۵۰۰ النعمان تنقل المياه إلى مكة بواسطة قناة من الحجارة مغلفة بالبلاط فى بعض أجزائها.

عين العزيزية نبع ۳۶۰۰ فاطمة تستهلك الزارعة المحلية كمية مماثلة لاستهلاك المدينة من هذين المصدرين.

عين صلاح نبع ۲۰۰۰ فاطمة

عين مودى نبع ۵۰۰۰ فاطمة

عين القشاشية بئر ۶۵۰۰ فاطمة تعمل عليه مضختان.

بئر العابدية بئر ۲۰۰۰ النعمان تعمل عليه مضخة واحدة.

وجميع هذه المصادر تبعد عن مكة مسافة تتراوح بين ۲۲- ۲۸ كم.

وباستثناء عين زبيدة التى تنقل مياهها عن طريق قنوات مغطاة أنشأها الأتراك، فإن مياه العيون أو الآبار الأخرى تنقل إلى مكة بواسطة سيارات أعدت لهذا الغرض.

أما مصادر المياه الخاصة، فيبلغ عددها ۲۰۶ آبار، تزوّد المدينة بمصدر إضافى للمياه يعتمد عليه نحو ۱۵٪ من سكانها. وبالرغم من عدم معرفة كمية المياه التى تتدفق من هذه الآبار على وجه الدقة- لعدم وجود بيانات- إلّاأنها لا تقل بحال عن مليونين من الأمتار المكعبة سنوياً. والجدول التالى يوضح مواقع الآبار

ص: ۲۰۱

الخاصة فى مكة:

الموقع عدد الآبار الموقع عدد الآبار

المسفلة... ۳۴ المعابدة... ۲۹

جرول... ۷۳ شارع المنصور... ۲۳

أجياد... ۲۰ النزهة وأم الدرج... ۱۵

الشهداء... ۱۲ جملة... ۲۰۶

ويستفاد من بيانات مصلحة عين زبيدة والعزيزية والدراسة الميدانية أن متوسط استهلاك الفرد من المياه يومياً يقدر بنحو ۶۸ لتراً، وهو معدل منخفض حتى إذا ما قورن بمعدلات الاستهلاك الفردى فى البلدان ذات المستوى الصحى المقبول، وهو لا يقل عن ۹۰ لتراً فى اليوم للشرب والطبخ والاستحمام وغسل الأوانى وفى دورات المياه.

وهذا الاستهلاك الفردى المنفخض ظاهرة تدعو إلى القلق خاصة من ناحية الصحة العامة فى مدينة تشهد تزايداً سكانياً مستمراً وحركة عمران واسعة، كما يفد إليها أعداد هائلة من الحجاج والمعتمرين من مختلف البلاد والجنسيات.

ويتم توزيع المياه على سكان مكة بعدة طرق:

۱- التوصيلات المباشرة بواسطة شبكة أنابيب المياه، وهى تزود ما يقرب من ۵۳٪ من السكان بحاجاتهم من المياه.

۲- سيارات نقل الماء (الوايتات)، وتقوم بنقل المياه لنحو ۱۵٪ من سكان المدينة.

۳- مراكز التوزيع للجمهور مباشرة أو عن طريق السقايين، ويحصل على المياه بهذه الطريقة باقى السكان (۳۲٪).

ص: ۲۰۲

ويختلف سعر الماء فى مكة حسب طريقة التوزيع:

أ- فهو يبلغ نصف ريال/ م ۳ من الماء الذى ينقل بواسطة شبكة الأنابيب للمشتركين.

ب ثلاثة ريالات/ م ۳ ينقل عن طريق الوايتات.

ج- خمسة ريالات/ م ۳ من الماء يتم ضخّه من الآبار الخاصة.

د- أما المياه التى توزع من مراكز أو نقاط التوزيع فلا تتقاضى إدارة عين زبيدة ثمناً لها.

وتهدف المشروعات (الجارى تنفيذها حالياً) إلى تعميم نقل المياه عن طريق المواسير، والقضاء على ظاهرة السقايين بوجه خاص، منعاً للتلوث، والحفاظ على الصحة العامة. وقد بدأت شركة متخصصة فى مد مواسير المياه إلى المنازل، وإنشاء عدد من الخزانات الضخمة على أطراف المدينة. وبدأت دراسات جادة للوصول إلى مصادر أخرى ثابتة للمياه لسدّ احتياجات المدينة مستقبلًا. ويبدو أن هناك اتجاهاً إلى زيادة طاقة محطة تحلية مياه البحر فى جدة لإمداد مكة باحتياجاتها، أو إنشاء محطة أخرى تخصّص لمدينة مكة وحدها، كما تجرى دراسة للمياه الجوفية حول مكة.

نمو المدينة وتطورها

مكة المكرمة من أهم مدن السعودية وأقدمها سكناً، وهى ثالثة مدن المملكة من حيث السكان (۳۳۶۸۰۱ نسمة حسب تعداد عام ۱۹۷۴ م) بعد كل من الرياض وجدّة.

فمنذ أسكن إبراهيم أهله فى هذه المنطقة والناس يتوافدون عليها، خاصة بعد بناء الكعبة، وتفجّر بئر زمزم إلى جوارها.

وكان العرب وغيرهم يتوافدون على مكة للحج والتجارة، مما ساعد على زيادة عدد السكان واتساع مساحتها كثيراً تبعاً لذلك، وظهور أحياء عديدة فى

ص: ٢٠٣

مختلف العصور.

وقـد عنى الجغرافيون العرب بوصف مكـة على عهـد النبى، فـذكروا أن الحرم كان مركز الحياة الاجتماعية والدينية والاقتصادية، شأنها فى ذلك شأن مـدن العصور الوسـطى التى كانت الكاتدرائيـة أو الكنيسـة فى وسـطها، وإلى جانبها أسواق المدينـة المركزية ومساكن الحرفيين ومحلا ـتهم (١). فكـان يحيـط بالكعبـة منازل قريش مقسّ ـمة على أساس النسب، فكان شـعب بنى هشام مثلًا فى شـمال شـرق الحرم، وبهذا كان أقرب إلى المعلاة، وكانت المساكن تبنى على سفوح المرتفعات المشرفة على الوادى وشعابها.

ويقول القرطبى فى كتابه «الإعلام»: «إن مكة كان مبدؤها المعلاة، ومنتهاها من جهة المسـفلة لصق مجرى العيون، ونهايتها الشبيكة من جهـة جدة، وعرضـها وجه جبل يقال له- فى عهده- جبل جزل، وقد سـماه الأزرقى الجبل الأحمر» كما ذكر القرطبى بأن مكة لم تكن مسوّرة (٢).

وعلى نحو ما ذكر ابن حوقل فى كتاب المسالك والممالك: «يبلغ طول مكة من المعلاة إلى المسـفلة نحو ميلين، ومن أجياد إلى ظهر قعيقعان نحو ١١٣ ميل، والمسجد الحرام وسط مكة، والكعبة فى وسط المسجد، وبهذا فقط أحاطت مكة بالبيت الحرام، وترتفع الجبال على جانبى الوادى وتحيط به بحيث تحدد مداخله، ولذا لا تشاهد أبنية مكة للقادم عليها إلّاوهو على أبوابها».

وقد تركز السكان حول الكعبة، فمعظم من سكن مكة قديماً عاش بالقرب منها حتى يسهل الاتصال بالحجاج أو الوافدين إلى المدينة، وكذلك حتى يكون قريباً من بئر زمزم مصدر المياه الوحيد تقريباً فى ذلك الوقت.

ولكن ما لبث أن تضخّم حجم المدينة، وزاد اتساع رقعتها كثيراً، نظراً

١- Feeman, T.W. ١٩۶٨, Geography and Planning, London, P.١٩.

٢- أحمد السباعى ١٣٨٢ ه، تاريخ مكّة: ١٠٢، الطبعة الثانية، مكّة.

ص: ۲۰۴

للزيادة السكانية الهائلة والمستمرة، وكذا لاهتمام الدولة بإعادة تخطيط مكة وشق الطرق الحديثة وخاصة الموصلة منها إلى الحرم أو منطقة مشاعر الحج، وما لبثت أحياء جديدة أن ظهرت فى اتجاه كل من جدة والطائف.

والكعبة أول ما شيد فى مكة المكرمة، ثم ما لبثت القبائل أن توافدت عليها للإقامة أو التجارة، واتخذت كل منها مكاناً حول الكعبة وبالقرب من بئر زمزم، وعمرت مساحة محدودة من جبل هندى والقشاشية والمسعى وأجياد والسدّ والمصافى حتى المسيال وجزء من المسفلة صغير. أما الأحياء الأخرى البعيدة عن الحرم فقد تأخر تعميرها أو سكناها نظراً لصعوبة شق الطرق إليها لبعدها عن بئر زمزم.

وعندما حاول الناس البناء بجوار الكعبة خط لهم ابن كلاب خطاً حولها عليهم أن يبنوا دونه، وأمر أن تكون هناك طرق بين هذه البيوت تؤدى إلى ساحة الحرم، كما أمرهم كذلك ألا ترتفع مساكنهم عن الكعبة لتظل مشرفة.

وكانت حدود مكة فى القرن الثانى الهجرى كما يلى:

من جهة الشرق: القشاشية، وشعب على، وشعب عامر، والمعلاة حتى حدود المعابدة.

ومن الشمال: الشامية والفلق وجبل هندى

وفى الغرب: حارة الباب وجزء ضئيل من المسفلة، وجبل عمر.

وفى الجنوب: حى أجياد بكامله.

ولم يطرأ على هذه الحدود تغيير يذكر فى عهد الأمويين أو العباسيين، إلّاأنه فى عهد الأمويين شيدت أسوار (أبواب) لمكة فى المعلاة والشبيكة والمسفلة.

وفى عهد العثمانيين، لقيت مكة عناية فائقة، فمدّت إليها المياه العذبة من أماكن بعيدة كعين زبيدة مثلًا، وكذلك عنى بالمسجد الحرام، وبنى بناية إسلامية، وتم تزيينه بالنقوش التى لا تزال ظاهرة حتى اليوم فى البناء الداخلى للمسجد.

ص: ٢٠٥

وفى عهد الأشراف، ظهرت أحياء جديدة فى مكة، لعل أهمها جرول والزاهر، وتزايدت مساحة كل من المسفلة والمعابدة.

وفى ظل حكم السعوديين، ساعد اكتشاف البترول فى المملكة وتدفقه بكميات ضخمة على ظهور أحياء جديدة أخرى أكثر اتساعاً ورفاهية، وامتدت المدينة على الطرق المؤدية إلى كل من جدة والطائف.

ويقدر أن مكة المكرمة قد تضاعفت مساحتها خلال نصف القرن الأخير، كما تم وضع تخطيط لها أعدّه مكتب تخطيط المدن بالمملكة. وقد اتسعت المدينة بذلك إلى مشارف منى، وضمت منطقة الحوض (العزيزية) والعدل والخانسة والزهراء....

ويرى الباحث أن نمو المدينة خلال الفترة الأخيرة وخاصة منذ بداية الخمسينات من القرن الحالى وتطور العمران بها يعود إلى الأسباب الآتية:

١- العامل الاقتصادى

٢- العامل الدينى والثقافى

٣- توافر الأمن والاستقرار بالمملكة.

أولًا: العامل الاقتصادى

كانت على طريق التجارة بين الشام واليمن (١) مدينة مكة المكرمة منذ بداية تعميرها محطة، وقد استدعى ذلك ضرورة توفير الأماكن المناسبة لسكنى التجار وإقامتهم، وعلى هذا فقد نشطت حركة العمران بالمدينة منذ نشأتها.

وفى الوقت الحاضر ازدحمت مكة المكرمة بمئات المحال التجارية وتوكيلات الشركات العالمية وفروع البنوك المختلفة، هذا بالإضافة إلى قيام بعض الصناعات

١- نعيم زكى فهمى، ١٩٧٣، طرق التجارة الدولية و محطاتها بين الشرق والغرب: ١١٥- ١٨٨، الهيئة المصريةالعامة للكتاب، القاهرة.

ص: ۲۰۶

الخفيفة التى تخدم الوظيفة الدينية للمدينة. كما أدى ارتفاع دخل الفرد فى المملكة، وزيادة قدرته الشرائية وإقباله الشديد على استخدام كل أجهزة العصر التى توفر له الرفاهية والتقدم، إلى اتساع رقعة المدينة واتجاه السكان إلى البناء خارجها.

ويتخذ نمط التخطيط فى الضواحى الجديدة شكل الفيلات التى تحيط بها الحدائق الواسعة.

ثانياً: العامل الدينى والثقافى

ويعتبر من أهم عوامل نمو المدينة وتطورها، وذلك نظراً للزيادة المضطردة فى أعداد حجاج البيت والمعتمرين إليه كل عام، مما استلزم ضرورة إقامة الفنادق والمساكن لإيوائهم، وشق الطرق المرصوفة والواسعة إلى منطقة الحج فى منى أو إلى جبل النور وغيره من المعالم الإسلامية بمكة.

وفى سبيل تحقيق ذلك، قامت الحكومة السعودية بنزع ملكية مساحات هائلة من الأراضى، وهدم آلاف المساكن التى كانت تعيق التخطيط الحديث للمدينة، وتعويض أصحابها عنها بمبالغ ضخمة حتى يمكنهم إنشاء مساكن أخرى فى مناطق التعمير الجديدة على أطراف المدينة، والتى زوّدتها الحكومة بمختلف الخدمات التعليمية والصحية وغيرها، وشقت إليها الطرق المرصوفة.

ولما كان موسم الحج يعتبر من مصادر الدخل الهامة لسكان المدينة فقد اهتم المطوفون والتجار بصفة خاصة بإنشاء عمارات حديثة خصّصت لسكنى الحجاج خلال موسم الحج فقط، بينما تظل شبه مغلقة بقية شهور السنة. وفى هذا نلاحظ الارتباط الوثيق بين الدين والأعمال التجارية، وهو يشبه ما حدث فى أوائل العصور الوسطى فى أوروبا عندما كانت الهيئات التجارية تحاكى المنظمات الدينية فى تنظيم قواعدها التجارية، والتى كانت قائمةً على أسس ديرية، وكانت تقتضى ذات الانقطاع الشديد ولكن ابتغاء للربح المادى، وكان من المهام الرئيسية لفرسان المعبد () أن يؤدوا عمل وكلاء النقل ورجال المصارف.

ص: ٢٠٧

أما عن أثر العامل الثقافى فى نمو المدينة، فلقد كان للنهضة التعليمية التى شملت المملكة، والاهتمام المتزايد بإنشاء المدارس والجامعات، أثره الكبير فى اتساع رقعة مكة، لما استلزمه ذلك من إقامة مدارس ابتدائية ومتوسطة وثانوية، ثم إنشاء جامعة الملك عبدالعزيز (كليتى التربية والشريعة) فى منطقة الحوض، وتخصيص مساحات كبيرة لمنشآتها المختلفة، وكذلك إنشاء معهد المعلّمين بالقرب من الجامعة. وقد تبع ذلك- بطبيعة الحال- إقامة مساكن للطلبة، مما كان له أثره فى ازدهار المدينة عامةً، ومنطقتى الحوض والعزيزية خاصة.

ثالثاً: توافر الأمن والاستقرار

ولا شك أن هذا العامل له أثر كبير فى نمو مدينة مكة وتطوّر العمران بها، وخاصة منذ ولى السعوديون حكم البلاد، فلم تكن سيطرة السابقين لهم لتمتد إلّا على مساحات قليلة حول مراكز الاستقرار فى البلاد؛ ولذلك فقد اتجه السكان- بعد أن اطمئنوا إلى حكامهم وعلى أموالهم- إلى التوسع فى البناء على أطراف المدينة وعلى طول الطرق المؤدية إليها، وكان للحكومة جهد وافر فى هذا المضمار

ص: ۲۰۸

بمساهمتها فى توفير المساكن لغير القادرين أو إنشاء مساكن للذين أزيلت مساكنهم لشق الطرق الجديدة وإتمام مشاريع توسعة الحرم الشريف.

ومن خريطة اتجاهات النمو العمرانى للمدينة نستطيع أن نلمح تأثير المظاهر الطبوغرافية المحلية على شخصيتها؛ فقد اتخذت رقعة البناء الأساسية من الوديان والشعاب مستقراً لها؛ نظراً لسهولة البناء وشق طرق المواصلات، وكذلك للقرب من مصدر المياه الرئيسى (بئر زمزم) فى وادى إبراهيم، ثم اتجه البناء بعد ذلك إلى التلال المحيطة بالحرم طلباً للحرارة المعتدلة والأمن، بالإضافة إلى القرب من الحرم- مصدر الرزق لمعظم سكان المدينة- وفى الفترة الأخيرة اتجه التعمير نحو الأراضى السهلية فى أم الدود والحوض بسبب توافر أجهزة التكييف وانخفاض أسعار الكهرباء واستقرار الأمن؛ وهكذا نزلت المدينة هابطة من الكنتورات العالية إلى الكنتورات المنخفضة، أو من المناطق التلية إلى المناطق السهلية.

اتجاهات النمو

تتجه مكة المكرمة فى توسّعها العمرانى على محورين رئيسيين:

الأوّل: ويتبع الطريق إلى مدينة جدة، حيث ظهرت عدة أحياء جديدة، أهمها الزاهر والزهراء والنزهة، وتشكل مساحات هذه الأحياء حالياً نحو ثلث مساحة مكة بأكملها، رغم أنه لم يبدأ تعميرها إلّامنذ منتصف القرن الحالى تقريباً.

الثانى: ويتبع الطريق إلى الطائف ممثلًا فى أحياء الششة والعزيزية والفيصلية.

وتشكل هذه الأحياء أيضاً مساحة كبيرة من المدينة.

ومن أسباب اتجاه نموّ المدينة على المحور الأول أنه المدخل الرئيسى لها من ناحية القرب، حيث ميناء مكة الهام- جدة- على البحر الأحمر، والذى يصل عن طريقه حجاج البحر الذين يمثلون غالبية الحجاج، كذلك فإن ميناء جدة من أهم موانئ المملكة، وتصل عن طريقه معظم البضائع الواردة إليها. وجدة أيضاً متنفس طبيعى لسكان مكة، وإليها يتجهون فى أسفارهم إلى خارج المملكة، وكذلك

ص: ٢٠٩

لزيارة الأطباء وقضاء كثير من متطلباتهم.

وكان من أسباب اتجاه نمو المدينة على هذا المحور أيضاً توافر مياه الآبار والعيون بالمنطقة، وخصوبة التربة فى الوديان والشعاب الموجودة بها.

أما اتجاه نمو مكة على المحور الثانى فهو على الطريق إلى منطقة شعائر الحج، بالإضافة إلى استواء السطح بها... ووجود بعض المزارع والبساتين بالمنطقة، كذلك فإن اختيار موقع كليّتى التربية والشريعة ثم معهد المعلّمين فى هذه المنطقة كان له أثر كبير فى جذب العمران إليها، وما تبع ذلك من تعبيدٍ للطريق أو إنشاء خدمات، ثم تواتر أصحاب المحال التجارية إليها وإنشاء بعض المستشفيات بالمنطقة ومصنع للثلج وكثير من المقاهى والمتنزهات. هذا بالإضافة إلى أن مدينة الطائف هى مصيف لسكان مكة وللحكومة كذلك، مما زاد فى أهمية الطريق إليها، وبالتالى شهد حركةً عمرانية واسعة خاصة فى السنوات الأخيرة، حيث تمثل حالياً ما يقرب من ثلث مساحة مكة بأكملها.

وهكذا، فإننا نستطيع القول بأن أكثر من نصف مساحة المدينة هى بنت نصف القرن الأخير من نموها.

مورفولوجية مكة

ظهرت مكة المكرمة مع بناء البيت، وارتبط تاريخها بتاريخه، كما أن تخطيط المدينة منذ إنشائها له طابع خاص، يعتمد على قداسة البيت والمركز الدينى المرموق لأهل الحرم فى شبه الجزيرة.

ولا شك أن البيت الذى تجسدت فيه الوظيفة الدينية للمدينة كان بمثابة النواة التى تضبط اتجاهات نمو المدينة وامتدادات شوارعها، ويظهر أثرها واضحاً فى تركيب المدينة خلال مراحل تطورها المختلفة.

وليس هناك أى موضع يمكن أن ينافس هذه النواة من حيث قوة جاذبيتها وسيطرتها على أى تخطيط يمكن أن يوضع للمدينة حالياً أو مستقبلًا.

ص: ۲۱۰

وتتمثل أهمیة ملامح ترکیب مکة فیما یلی:

۱- الکتلة السکنیة للمدینة: تبدو مندمجة أقرب إلی الشکل الدائری الذی یتوسّطه الحرم، تفصل بینها الحارات الضیقة والأزقة المتعرجة، ولا- تترک بینها وبین الحرم سوی رقعة صغیرة من الأرض تعرف حالیاً بالمکاف. وقد حرص الناس فیما مضی علی أن تکون أبنیتهم فی شکلٍ دائری حتی لا تشبه بناء الکعبة المربعة، وأن تکون تلک الأبنیة أقل ارتفاعاً من الکعبة، فکانت المنازل بمثابة السور الذی یحیط بالبیت.

ولم یکن للحارات من وظیفة سوی تیسیر حرکة المشاة، والوصل بین أحیاء المدینة التی کان یمثل کل منها قسماً مستقلًا تقریباً، شأنه شأن المدینة ککل. ولما کانت صلتها بالخارج قد تحددت مع وظیفتها الدینیة وتداعیاتها، فقد کانت الرغبة فی إبراز أهمیة قلبها الدینی وراء ترکیبها العمرانی حیث یظهر المسجد الحرام محاطاً بسلسلة من الحلقات غیر المنتظمة التی تکتنف القلب وتحمیه، علی حیث تجعل الوصول إلیه أقرب منالًا عن طریق حارات ملتویة، وتشکل محیطها مع بروزات موضعها- وإن اتخذ عامة- شکلًا مستدیراً شأن مدینة العصور الوسطی عامة (۱)

والمنازل تصطفّ بحیث تؤلف إطاراً لوحدة سکنیة مغلقة لا تعلو عن طابقین أو ثلاثة غالباً، تستمد بنائها من التربة والصخور المحلیة، فهی من الأحجار المسقوفة بجذوع النخیل، تتوزع داخلها الأسواق، متخذةً أشکالها القدیمة ذاتها، ومتبعةً نمط معاملاتها الموروثة.

۲- فی مکة أسواق عدیدة، منها اثنتان للحیوان- إبل وماعز وضأن- فی المعابدة وجرول، واثنتان للخضر والفاکهة فی النقا وجرول. أما أسواق الأقمشة

۱- Robert, E. Dickinson ۱۹۶۵, "The Growth of the Historic city", in "Readings in Urban Geography", Edited by: Harold, M. Mayer and Clyde, F. kohn, The Univ. of Chicago Press, PP. ۶۹-۸۴.

ص: ۲۱۱

والملبوسات والأدوات الكهربائيـة ففى المنطقة المحيطة بالحرم مباشـرة فى أحياء النقا والقرارة والغزة وأجياد. وأسواق الحيوان أقدمها، وكانت فيما مضـى خارج المدينـة قبل زحف العمران إلى المناطق الجديدة، ويباع فيها أيضاً ما يجلب إلى مكة من منتجات البادية من صوف ووبر.

۳- جبانـة المعلاـة- مقبرة مكـة الوحيـدة- تنقسم إلى قسـمين، بينهما شارع رئيسـى، وكل من القسـمين مسوّر، وفى القسم الأقرب إلى الحرم مظلة للعزاء وإدارة لخدمة الموتى.

۴- الجزء القـديم من المدينـة يتميز بعدم الانتظام، وفوق كل هذا ليس هناك تنسـيق أو تخطيط معين للطرق أو المبانى التى احتشدت معاً فى فوضى واختلطت بغير انتظام، وأصبحت الفراغات بينها أزقة المشاة والعربات، وارتفعت كثافة السكان.

وهناك إحساس باسـتمرار الازدحام والاضطراب (۱)، كمـا لم تكن هناك حاجـة إلى مراعاة مطالب مـد أنابيب المياه أو المجارى أو الكهرباء. وكان من مظاهر الاتساق مع خصائص الموضع مراعاة خطوط الكنتوريـة بـدلًا من محاولـة تهـذيبها، أى كأن هناك نوعاً من التخطيط العضوى وهو ذلك التخطيط الـذى لا يبـدأ باسـتهداف غرض محـدد سـلفاً، بل ينتقل من حاجـة إلى حاجـة ومن فرصـة إلى فرصـة فى سلسلة متصلة من الملاءمة مع ظروف الموضع.

لقد كانت «وحدة الجوار» السـمة الرئيسـية فى تركيب المدينة الداخلى، وظلت الكعبة قلبها الخافق، بينما انقسمت كتلتها إلى أحياء شبه مكتفيـة بـذاتها، وانقسـمت الأحياء إلى أحواش. وكان بالمدينـة عـدد من المـدارس وعـدد أكبر من مكاتب الصبيان ومكاتب القراءة، بالإضافة إلى عدة مكاتب لتعليم البنات. أما الأربطة والزوايا فكثيرة، وظلت بعض المكتبات عامرةً، ومن أشهرها مكتبة الحرم.

۱- Lowry, J.H., ۱۹۷۵, "World City Growth", London, PP. ۲۴-۲۶

ص: ۲۱۲

۵- يتضح من شكل الشوارع فى الأحياء القديمة أن وظيفة الشارع فيما مضى تختلف عنها فى عصرنا الحالى، فكانت دروب السير على الأقدام فى الداخل هى التى يسلكها السكان يومياً، ولذا فلم تكن هناك ما يمكن تسميته «شبكة طرق لحركة المرور»؛ لعدم وجود حركة مرور دائبة من ناحية، ولأن الشارع كان ضيقاً تلبية لوظيفة محددة، وهى تنقلات السائرين على أقدامهم من ناحية أخرى، ولم تكن الشوارع ضيقة وفى حالات كثيرة غير منتظمة فحسب، بل كانت تكثر بها المنحنيات الحادة والسدات، وكان من شأن ذلك أن يحدّ من قوة الريح، ويقل شدة التعرض لخطر الغرق بالفيضان (۱).

لقد كنت الكتلة السكنية المتجمعة- بما فيها من مساكن وحوانيت ومبان للحرفيين- هى التى تحدد امتدادات الشوارع، وكان من شأن اتجاه المساكن نحو الالتفاف حول النواة، أن يعيق ظهور ونمو نسق الوحدات السكنية، وكانت الجبال هى الحد الذى يحدد فى الأصل التكوين المادى للمدينة.

۶- يتميز التركيب الحالى لمدينة مكة المكرمة بأنه أكثر تعقيداً وأقل ثباتاً مما كانت عليه فى الماضى القريب، وذلك نتيجةً لمجموعة من العوامل سبق الإشارة إليها من قبل.

وقد حققت هذه العوامل نجاحاً ملحوظاً فى توظيف اليد العاملة فى نواحى نشاط أكثر تنوعاً، كما ساهمت وسائل المواصلات الحديثة فى عملية نقل حضارى عميقة الأثر، كما ساعد تكوين المدينة القابل للامتداد على اتساع مساحتها كثيراً، بحيث تستطيع تلبية واستيعاب الحاجات المتغيرة. وكان من جراء نشوء وظائف اقتصادية ومهام اجتماعية جديدة ظهور التخصص بدرجة أوضح فى وظائف مبانيها، كما أنها قد أدخلت على هذه المبانى من ضروب التميز ما أكسبها- معمارياً- أشكالًا تعبر عن تباينها ومرحلة نموها.

۱- جمال حمدان، بدون تاريخ، أنماط من البيئات: ۸۸، القاهرة.

ص: ۲۱۳

لقد امتدت كتلة المدينة السكنية مع محاور مواصلاتها إلى جدّة والطائف، وأصبحت هذه المحاور بمثابة إطار يحدد اتجاهات نموها وشكلها المورفولوجى فى المستقبل.

۷- مع نموّ المدينة المتزايد والمستمر، نجد أنها قد انقسمت إلى مناطق سكنية تحيط بالحرم، وممتدة فى الفترة الأخيرة مع شوارعها الجديدة، ونامية بمعدل سريع نحو المواضع الفسيحة على الطرق المؤدية إلى الطائف أو جدة. وتظهر المنطقة التجارية مرتبطة بوسط المدينة، وهى المنطقة المحيطة بالحرم، مع امتدادات أقلّ كثافةً على طول الشوارع الحديثة، وهو ما يؤكد وظيفة القلب فى هذه المدينة المقدسة، باعتباره يمثل النبض اليومى لجملة وظائفها، كما تظلّ المقبرة التاريخية فى موقعها إلى الشمال من الحرم، وتبدو بقية وظائف المدينة الحديثة كمركز للخدمات الإدارية والفعلية موزعة على أبعاد متفاوتة من القلب متناثرة على طول محاور نموها الرئيسية.

۸- رغم مظاهر النموّ الحديثة فى تركيب مكة ووظائفها، إلّاأنها ما تزال لم تتجاوز كثيراً خصائص موضعها الطبيعية، كما أنها ما تزال أقرب للاندماج بنواتها، ويظهر وادى إبراهيم كخط طبيعى يحدّد موضعها، كما أن الجبال المحيطة تمثل حدودها. ويظهر التداخل بين مورفولوجية المدينة وطبوغرافيتها فى تلك الامتدادات السكنية فوق التلال المتداخلة فى منطقة مكة كرؤوس من جبالها.

والواقع أن أهم مظاهر التغير الحديثة فى مكة المكرمة قد بدت فى اتجاهين:

يتصل الأول بالتركيب، والثانى بالوظائف (۱). وقد بدأت هذه التغيرات تخضع

۱- Chauncy, D. Harris And Wdward, E. Ullman, ۱۹۶۵, The Nature of Cities, in Reading in Urban Geography Edited by: Harold, M. Mayer and Clyde, F. kohn The Univ. of Chicago Press Chicago, pp. ۲۲۷/۲۹۸ ۲۱۳

ص: ۲۱۴

حديثاً لنوع من التخطيط لم تتضح أبعاده النهائية بعد.

۹- يلاحظ أن جوهر التغيرات فی تركيب المدينة المعاصر هو اتجاهها لكی تتحول إلى مدينة الشوارع التجارية، مع التمسک بالقلب الدينی الذی ضبط نموّها فی الماضی والحاضر من ناحية، وشبكة الشوارع التجارية العريضة من ناحية ثانية. وهناک من الدلائل التی ترجّح هذا التصور أهمها ما يتصل بعملية خلخلة المنطقة الوسطى، وخطة إنشاء شبكة الشوارع التجارية العريضة. كما تشمل أيضاً المرافق العامة وتجميل المدينة.

أ- خلخلة المنطقة الوسطى: وهی المنطقة التی تضم ما تبقى من المدينة القديمة وبؤرة التجارة المركزية وأحياء السكن الداخلية حول الحرم، ولقد أزيلت الكثير من معالم مكة القديمة، كما أضيفت أجزاء منها إلى المسجد، ودخلت فی مساحاته خاصة بعد التوسعة السعودية الأخيرة، وأجزاء أخرى استخدمت فی شق شوارع جديدة أو فی توسيع أخرى قائمة.

ولما كانت المنطقة الوسطى تضم نسبةً كبيرة من خدمات المدينة، وأكثر من ثلث سكانها، وعدداً كبيراً من المساجد الأثرية والمبانی القديمة، فإن الاتجاه إلى إزالتها قد يؤدی إلى الإخلال بالتوازن المورفولوجی فی تكوين المدينة، والقائم على أساس التفاف مبانی المدينة حول الحرم.

لقد تجلّت محاولات خلخلة المنطقة الوسطى فی تهيئة مجموعة من أهم الشوارع، تنتهی جميعاً إلى الحرم، ونقل معظم مراكز الخدمات الموجودة بها إلى هوامشها.

ب- تجنح التصميمات الحديثة للميادين والشوارع نحو الاتساع والانبساط متميزةً بالمساحات المفتوحة والميادين المستديرة، وما يتفرع منها من شوارع وطرق عريضة، تشق اتجاهاتها وسط تراكمات سكنية قديمة.

ج- اتجه التخطيط الجديد لمكة إلى إحاطتها بالطرق العريضة المرصوفة

ص: ٢١٥

، وهـذه قـد حـددت شـكلها مورفولوجيـاً، وأصـبحت بمثابـة محـاور للنمو العمرانى حاليـاً وفى المسـتقبل، وهى تصب غالباً فى الطرق الخارجية التى تربطها بأنحاء الدولة.

د- لقد صـحب امتداد المدينة الأفقى ارتفاع واضح فى مسقطها الرأسي، وظهرت الأحياء الجديدة كإطارات تحيط بنواة وأجزاء مهدّمة واطئـة. وعـدد طوابق المنازل لا يتجاوز أربع طوابق فى المنطقـة الوسـطى، ويتجه إلى التزايـد ليصل إلى ما بين ۶- ۸ طوابق على طول محاور السـكن والطرق الحديثـة، ثم يهبط إلى ما بين دور ودورين فى هوامش المدينـة. وهناك مجموعـة من العوامل تراعى فى هـذا المجـال، منهـا الضوابـط الخاصـة بوصـول الميـاه إلى الأـدوار العليـا، وكـذلك وظـائف المبـانى وتوزيع مواقف السـيارات فى المنطقة المحيطة بالحرم. ولكن مما لا شك فيه أن ارتفاع المبانى سـيكون ضرورياً خاصة بالنسبة لمواجهة تزايد عدد زوار المدينة الذى وصل متوسّطه فى السنين الأخيرة إلى نحو مليون زائر.

هـذا، ويسـتخدم فى البنـاء الأحجـار التى يمكن الحصول عليهـا من المرتفعـات المحيطـة بمكـة، وكـذلك الرمـال والزلط من الجهات المحيطـة بها. وبـدأ منـذ سـنوات قليلـة اسـتخدام المساكن سابقـة التجهيز فى البناء، مما يوفر جهـداً ووقتاً كبيراً، كما أنها اقتصاديـة فى استخدام الأيدى العاملة عن الطريقة التقليدية فى البناء.

١٠- لعلّ الشـكل الحاضـر لشـبكة الطرق والشوارع فى مكـة هو أبرز ما طرأ على تكوينها القـديم من مظاهر التحـديث والتخطيط، لقد أنشـئت طرق تصل بين معظم مناطقها السـكنية، ومـدّت الشوارع التى تفتت القلب المندمـج، وتمنحه شـرايين أفضل، وهيئت الميادين، ومهـدت الأزقة وعبّدت، وامتدت ضـمن خطة مسـبقة لتصل إلى أحياء السـكن الحديثة، ولم تكن هذه التغيرات وغيرها مما هو مكمل لها إلّا انعكاساً لتغير وظائف الطرق والشوارع، وتعبيراً عن دخول المدينة ككل

ص: ۲۱۶

مرحلة جديدة من حياتها.

ويعدّ الشارع العريض من أهم رموز المدينة التجارية (۱)، ويمثل الحقيقة الرئيسية فيها، وليس من الميسور دائماً وضع تصميم للمدينة طبقاً لطراز معين، بيد أنه مع تخطيط بضعة شوارع جديدة عريضة كان يتسنى- عامة- إعادة تحديد طابع المدينة، لقد أتيح فى التخطيط الجديد استخدام الخطوط المستقيمة، ووحدات للمبانى ذات مسقط رأسى مرتفع، منتظمة الشكل متماثلة المساحة عموماً، إلا حينما كان انحراف اتجاه الشوارع سبباً فى جعل أشكال الوحدات متعدّدة الأضلاع والزوايا، لقد أصبحت الشوارع العريضة تمثل الإطار الأفقى للمبانى الرئيسية التى تحدّد معالم مكة، وضحّى بالكثير من خصائص المدينة القديمة من أجل أغراض حركة المرور والتجارة، وأصبح الشارع هو وحدة التخطيط وليست منطقة الجوار أو الحيّ، ووسعت وشقت عدة شوارع. وقد تم الانتهاء من توسعة الحرم، وذلك بإزالة جميع المبانى التى كانت تتصل بالمسجد أو قريبة منه.

المرافق العامة:

وتعد المرافق العامة من أهم مظاهر التغير فى التركيب المعاصر للمدينة، فهى تحظى باهتمام كبير، يتمثل فى اعتمادات مالية ضخمة بهدف متابعة معدلات نمو عمران المدينة من ناحية، وتحقيق مستوى عال من أداء هذه المرافق من ناحية ثانية. ورغم ذلك فهى عامة تواجه عدداً من المشكلات، ويشمل مصطلح المرافق العامة: «المياه والمجارى، وتصريف مياه السيول، والكهرباء».

وقد سبق دراسة موضوع المياه عند دراسة موضع مكة، ولذلك سنركز هنا على دراسة المرفقين الآخرين:

۱- Berry, B. J. L. ۱۹۶۳, Commercial Structure and Commercial Blight, Chicago, p. ۳۷

ص: ٢١٧

أ- المجارى وتصريف مياه السيول:

قطع تنفيذ شبكة المجارى المدنية فى مكة شوطاً كبيراً، ويسير العمل نحو إنجاز الخطوط الفرعية والتوصيلات المنزلية.

وليس من شك فى أهمية مشروع المجارى الحديثة بالنسبة لرفع المستوى الصحى وحماية المبانى والمنشآت العامة والمحافظة على سلامة أساساتها فضلًا عن المظهر الحضارى للمدينة.

وبالنسبة لتصريف مياه السيول فهى تشبه تماماً عملية تصريف المجارى إلّا أنها لا تحتاج إلى عملية تنقية، بل تجمع فى أنابيب تسير فيها المياه بالاعذار الطبيعى إلى خارج مكة، أو تحويل مجارى السيول إلى مناطق بعيدة عنها. ويدخل ذلك أيضاً ضمن مشروعات المحافظة على الصحة العامة، حيث إن عدم تصريف السيول يجعلها تتجمع فى الأجزاء الوطيئة مسببة وجود مستنقعات تصبح مباءات لتوالد البعوض، فضلًا عن إعاقتها للمرور والمواصلات، حيث يتسبب عنها تكاثر الأوحال، خصوصاً فى الطرق الترابية والمنافذ الضيقة فضلًا عما تسببه من أضرار لأساسات المبانى.

ب- الكهرباء:

تتركز مسؤولية توزيع القوة الكهربائية فى مكة فى الشركة السعودية الوطنية للقوى الكهربائية، وهى شركة خاصة (الجفالى)، تأسست عام ١٣٧١ ه.

وتأتى القوة الكهربية من محطة واحدة على طريق التناعيم خارج حدود منطقة الحرم، ويتم تزويد منى من هذه المحطة أيضاً، والتى تبلغ طاقتها الإنتاجية ٣٩ مليون واط، وتعمل المحطة على الديزل. ويستفاد من الإحصاءات أن:

٧٢٪ من مساكن مكة ومرافقها المختلفة تحصل على الكهرباء من الشركة مباشرة بواسطة عدادات المشتركين.

١٪ من المساكن تحصل على الكهرباء من أجهزة خاصة لتوليد الكهرباء،

ص: ۲۱۸

ومعظمها يقع فى أطراف المدينة.

٪۳۷ من المساكن لا تحصل على الطاقة الكهربائية، وتتركز بصفة خاصة فى ضواحى مكة والجبال المحيطة بها.

أسعار الأرض فى مكة

لما كانت مكة فى منطقة جبلية تخترقها عدة أودية ضيقة، فقد كان لهذا تأثيره الكبير على أسعار الأرض بها، فالطلب على الأرض يزداد باستمرار نظراً لنمو المدينة من جهة، وازدياد أعداد السكان من جهة أخرى عاماً بعد عام، سواء المقيمون بها أو الوافدون إليها فى موسم الحج. وهذا يتطلب مزيداً من الأراضى- المحدودة أصلًا- سواء بالتوسع الأفقى أو الرأسى.

ومن دراسة ميدانية قام بها الباحث تبين أن هناك عدة عوامل تتحكم فى تباين واختلاف أسعار الأراضى فى مكة المكرمة هى:

١- البعد عن الحرم: يتناسب سعر الأرض تناسباً طردياً مع زيادة القرب من الحرم، فالمعلوم أن مكة قامت أصلًا لتكون مدينةً دينية حول المسجد الحرام، لذلك فإن السكان وكذلك الحجاج الذين يقدمون إلى مكة يختارون أقرب منطقة من الحرم، مما أدى إلى رفع أسعار الأراضى فى المناطق المحيطة به. لذلك نجدها تمثل رأس القائمة فى سعر الأرض فى مكة، حيث يتراوح المتر المربع ما بين ٨- ١٢ ألف ريال. وهذه أسعار مرتفعة جداً ليس لها مثيل فى أى منطقة أخرى. ولا عزاء إذا ما ارتفعت الأسعار إلى أكثر من هذا.

٢- الأسواق التجارية: وهو عامل مكمل أحياناً للعامل الأول، حيث تتركز معظم الأسواق التجارية فى مكة حول الحرم، مما أدى إلى ارتفاع أسعار الأرض للفرص الكبيرة فى بناء محلات تجارية عليها وتأجيرها، كما هو الحال فى منطقة الغزة حيث يتراوح سعر المتر بين ۴- ۶ آلاف ريال. إلى جانب وجود بعض الأسواق فى أحياء أخرى مثل أجياد والشبيكة والسوق الصغير، مما يضفى عليها

ص: ۲۱۹

أهمية وإقبالًا يرفع من أسعار الأراضى القائمة عليها أو المحيطة بها.

۳- الموقع والواجهات على الشارع الرئيسى: مما لا شك فيه أن الأراضى التى لها واجهة أو أكثر على شارع رئيسى تكون أسعارها أكبر من تلك التى ليس لها واجهة على الشارع الرئيسى. ويلاحظ ذلك من خريطة أسعار الأرض، حيث نجد أن الأراضى الواقعة على الشارع أعلى فى أسعارها بكثير من تلك الأراضى الداخلية.

۴- توفير الخدمات العامة: مثل الكهرباء والماء والمواصلات... ففى أطراف المدينة يتجلى أثر هذا العامل واضحاً، كما أن المواصلات بصفة خاصة لها تأثير بالغ، فالمناطق الجبلية يصل سعر المتر المربع فيها إلى أدنى حد له (من ۱۰- ۱۰۰ ريال) على الرغم من قربها من الحرم، ولكن صعوبة الوصول إليها، وقلة ورود الماء لها، وصعوبة إقامة المساكن فيها، أدى إلى انخفاض سعرها بهذا الشكل. وهنا يمكن ربط هذا العامل بعامل آخر جديد وهو طبيعة السطح، فالمناطق المستوية أعلى سعراً من المناطق العالية المتضرسة.

ص: ۲۲۰

وثمة جانب آخر هو أن تحسين الطرق أدى إلى ارتفاعٍ فى أسعار الأرض، فشقّ الطرق وتزفيتها وإقامة خزانات المياه يعملان على رفع السعر على جانبى الطريق، وإذا نظرنا إلى خريطة أسعارٍ الأرض فى مكة نجدها تتفق إلى حد كبير مع العوامل السابق ذكرها. وتتراوح أسعار الأرض ما بين ١٠ إلى ١٢ ألف ريال للمتر المربع. ويمثل الرقم الأول (١٠ ريالات) المناطق التى تحتل أعالى الجبال البعيدة عن مركز المدينة، بينما يمثل الرقم الثانى المناطق المجاورة للحرم مباشرة، حيث تتوافر العوامل المختلفة من قربٍ للحرم، وقرب للأسواق التجارية، ووجود الشوارع الرئيسية التى تشبه الشرايين الكبيرة التى تسير عليها مواصلات المدينة وتوفر الخدمات العامة الأخرى.

ويمكن التدليل على ذلك من أن سعر المتر فى الشامية (أقرب الأحياء إلى الحرم) يصل إلى سبعة آلاف ريال، ولكنه ينخفض فى المناطق الداخلية فى الفلق والقرارة إلى ثلاثة آلاف ريال. كما أن من عوامل ارتفاع السعر فى الشامية وكذلك المناطق الأخرى المحيطة بالحرم تركّز العمائر السكنية الكبيرة التى تستخدم فى معظمها لسكنى الحجاج.

كما أنه فى كل من الغزة والشبيكة يصل السعر من خمسة إلى ستة آلاف ريال للمتر المربع، ولكنه ينخفض بالبعد عن الحرم.

أما القشاشية وسوق الليل فإن سعر المتر فيهما مرتفع جداً نظراً للقرب الشديد من الحرم، ولوجود الأسواق التجارية بها أو بالقرب منها.

وفى شعب على يصل سعر المتر فى الأجزاء المتاخمة للشارع الرئيسى إلى ٣ آلاف ريال، ولكن السعر ينخفض كلما تراجعنا نحو الداخل، حيث يصل إلى ألف ريال فقط.

أما فى حى أجياد جنوب الحرم فترتفع أسعار الأرض (بين ۴- ۶ آلاف ريال)، وهى منطقة واسعة تمتاز بأنها منطقة سكنية إلى جانب أنها منطقة فنادق

ص: ۲۲۱

ومنطقة تجارية أيضاً.

هذا بالنسبة للمناطق المحيطة بالحرم، أما إذا استعرضـنا بقية أحياء مكة فإننا نلحظ تناقصاً مسـتمراً فى سعر المتر، فيما عدا المناطق التى توافرت لها بعض العوامل وأكسبتها أهميةً ما، فارتفعت أسعار الأرض بها.

ففى حى المسـفلة يبلغ متوسط سـعر المتر ۱۵۰۰ ريـال، ولكنه فى بعض المنـاطق القريبـة من الحرم أو التى تقع على شارعٍ رئيسـى يبلغ سعر المتر أكثر من ۳۵۰۰ ريال، بينما قـد يقل السـعر عن ألف ريال فى المناطق الداخلية من الحى أو تلك التى تتميز بوعورتها وعدم توافر الخدمات العامة بها، وفيما يلى متوسط أسعار الأرض فى بعض أحياء مكة:

شعب عامر ۲۰۰۰ ريال الملاوى ۱۰۰۰ ريال

الفلق ۲۵۰۰ ريال الخانسة ۷۰۰ ريال

القرارة ۳۰۰۰ ريال العدل ۵۰۰ ريال

السليمانية والحلقة القديمة ۲۰۰۰ ريال

الروضة والششة ۴۰۰۰ ريال

الجميزة ۱۵۰۰ ريال الجعفرية ۱۵۰۰ ريال

ويعتبر الجزء الأوسـط من المعابـدة منطقـة تجاريـة وسوقـاً رئيسـية هامـة للأحيـاء المجاورة مثل الملاوى والخانسـة والروضـة والعـدل، ولذلك فإن سعر المتر بها لا يقل عن ۲۵۰۰ ريال.

أما الروضة والشـشة فإن ارتفاع سـعر المتر يعود إلى أنها من مناطق السـكنى المفضـلة والحديثة التعمير، والتى يُقبل عليها تجار المدينة وأثرياؤها، بالإضافة إلى قربها من منطقة شعائر الحج، وتفضيل الحجاج الإيرانيين، الإقامة بها، وارتفاع قيمة الإيجارات.

أمـا الأحيـاء الواقعـة إلى الغرب والشـمال الغربى من الحرم، والتى تضم كلًا من الحجون والعتيبيـة والأبيارى وجرول والتيسـير والزهراء والنزهة وشارع منصور،

ص: ۲۲۲

فإننا نلاحظ بصورة واضحة انخفاض قيمة الأرض فيها عن تلك الأحياء الواقعة إلى الشرق أو الشمال الشرقى من مكة، بالرغم من تساوى المسافة عن الحرم، ووجود الأسواق والخدمات بنفس النسبة تقريباً.

ويمكن تعليل ذلك بوقوع الأحياء الأولى قريبةً من المشاعر المقدسة مثل منى والمزدلفة، وذلك بعكس الأحياء الأخرى التى تقع فى الجانب الآخر، وعلى كل فإنه فى لقاء مع رئيس لجنة التقديرات التابعة لأمانة العاصمة أجاب بأن أعالى مكة خير من أسافلها، حسبما ورد فى بعض الأحاديث (على حدّ قوله)، ولذلك فالناس يقتدون بما وصلهم من أحاديث عن الرسول صلى الله عليه و آله.

وفى حى العزيزية، نلاحظ إقبالًا شديداً على البناء وشراء الأراضى، ويرجع ذلك إلى رصف الطرق، ووضع تخطيط جيد للمنطقة، وتوافر الخدمات بها، وخاصة بعد إنشاء خزان للمياه يكفى احتياجات الحى، هذا بالإضافة إلى قيام جامعة الملك عبدالعزيز فى المنطقة وكذلك معهد المعلّمين، ووجود بعض المستشفيات الخاصة. ويقدّر سعر المتر حالياً فى حى العزيزية بنحو ۳۰۰۰ ريال، ولم يكن يتجاوز ۵۰ ريالًا منذ ست سنوات فقط.

عدد الطوابق: يلاحظ بأن عدد الطوابق ينحدر تدريجياً من قلب المدينة إلى الأطراف، فعدد الطوابق يصل إلى عشرة أدوار أحياناً فى وسط المدينة بالقرب من الحرم، حيث الاستخدام الكثيف للأرض وسعرها المرتفع، وينخفض إلى دور أو دورين فى الأحياء البعيدة عنه حيث الكثافة السكانية المنخفضة وسعر الأرض القليل نسبياً.

استخدام الأرض فى مكة المكرمة

ونعنى هنا استخدام الأرض فى إقامة المساكن أو مراكز الخدمات العامة (تعليم- أمن- مواصلات- صناعة- زراعة- محلات تجارية- أماكن عبادة...).

ومن دراسة استخدام الأرض فى مكة المكرمة يتبين لنا أنه قد طرأ عليها كثير

ص: ۲۲۳

من التغيرات، خاصة بعد امتداد كتلتها السكنية مع محاور مواصلاتها الحديثة، وتضخم عدد سكانها، وزيادة الاهتمام بالتعليم والمرافق العامة وخدمة زوار البيت الحرام.

وتنقسم مكة المكرمة إلى مناطق سكنية تحيط بنواتها القديمة (الحرم الشريف)، وممتدة مع شوارعها الجديدة المرصوفة نحو أحيائها الحديثة التعمير، وهو ما يؤكد وظيفة القلب فى هذه المدينة، باعتباره يمثل النبض اليومى لجملة وظائفها الرئيسية: التجارية، والدينية، والسكنية، وتظلّ مقبرتها التاريخية المعلاة فى موقعها إلى الشمال من الحرم... وتبدو بقية وظائفها الحديثة كمركز للخدمات الإدارية والتعليمية موزعةً على أبعاد متفاوتة من القلب متناثرة على طول محاور نموها الحديثة.

وتستوعب المنطقة الوسطى لمكة نحو ثلث سكان المدينة، كما أن مساكنهم والمرافق التابعة لها تحتل نحو ۷۰٪ من المساحة المبنية الحالية.

وبالنسبة للسكن فإن نحو ۴۰٪ من جملة وحداته تحتاج لتغييرات أساسية، وهناك فرصة لنقلها إلى المساحات الفضاء فى الشرق والشمال والغرب من المنطقة الوسطى وعلى طول امتدادات محاور نمو المدينة.

والمعروف أن الأصل فى وظيفة المركز العمرانى غالباً هو السكن، ولكن بتطور وسائل الحياة تنقسم هذه الوظيفة الأصلية إلى وظائف أخرى، تتعلق بالتخصص الحرفى مثل التجارة والصناعة والحرف الأخرى، وكذلك بالخدمات الإدارية والتعليمية والثقافية والدينية وغيرها... ومن هنا تقوم مع المساكن محلات لممارسة هذه الوظائف الجديدة التى طرأت على المدينة أو القرية... ومدينة مكة نشأت فى موقع ممتاز من الناحية التجارية، كما أنها أيضاً قامت فى موقع مقدس وهام... وبعد استقرار الأمن بالبلاد بدأت مساكن المدينة تنساح فى مناطق جديدة، مما أدى إلى اتساع رقعتها كثيراً، وانتشرت الخدمات والأسواق

ص: ٢٢٤

والمساجد وغيرها فى هذه الجهات. يضاف إلى ذلك أن أجهزة التخطيط بدأت تشق الشوارع فى المبانى المتوسطة والقديمة باتساع واضح، وبدأت تضع مخططاً جديداً أيضاً يتلاءم مع تطورات المستقبل. ومعنى ذلك أن الأحياء القديمة المحيطة بالحرم بدأت تحدث فيها عمليات تغير واضحة من شق شوارع جديدة واسعة إلى إقامة محلات جديدة وغير ذلك.

ويمكن أن نصف استخدام الأرض فى مكة كما يلى:

أولًا: المساكن: وتؤلف القسم الأعظم من المدينة القديمة وجزءاً كبيراً من المدينة الحديثة، وهناك توسّع فى الوقت الحالى فى عمليات البناء فى الشرق والغرب والشمال نتيجةً للظروف الطبيعية والتجارية التى أشرنا إليها فيما سبق.

ولكن يلاحظ أن المبانى الحديثة تسير وفق مخطط عمران وسعته البلدية، وتسير على هداه الأجهزة المختصة وكذلك الأهالى، والمساكن إما أن تكون طينية قديمة أو مسلحاً وهى ملك لأصحابها، وحوالى ۵٪ منها بالإيجار نتيجةً لتزايد عدد العاملين فى الدوائر الحكومية والقادمين من خارج مكة.

ثانياً: أماكن التجارة: وتتركز فى المنطقة الوسطى القريبة من الحرم، أى فى المنطقة التى تصل بين المبانى القديمة (النواة) وبين المبانى المتوسطة، وتتركز فى شارع الغزة أساساً.

وتشمل التجارة هنا محلات الأجهزة الكهربائية والملبوسات والبقالة والسجاجيد وغيرها، كذلك يوجد أسواق للحيوانات والدواجن ومحلات بيع اللحوم فى وسط المدينة. ولا يقتصر وجود المحلات التجارية على هذه المنطقة، وإنما توجد مبعثرةً فى أماكن أخرى كذلك، ولكنها تتركز فى هذه المنطقة الوسطى من المدينة.

ثالثاً: مناطق الصناعة: ويطلق عليها المنطقة الصناعية، ولكنها ليست صناعية بالمعنى المعروف، إذ إنها لا تعدو أن تكون مجموعة من الورش لتصليح

ص: ٢٢٥

السيارات وعمليات اللحام، كذلك توجد بعض محلات النجارة، وتقع هذه فى الجهة الغربية من مكة.

رابعاً: المبانى الإدارية: وتنتشر فى مختلف أنحاء المدينة، ولكنها تتركز فى المبانى المتوسطة. كما أن هناك بعض الإدارات (مثل إدارة تعليم البنات) التى توجد فى الأحياء الجديدة، يضاف إلى ذلك أن الكثير من قطع الأراضى فى المناطق الجديدة قد حجزت للأغراض الإدارية، ومن الملاحظ أن مكة المكرمة- باعتبارها عاصمة للأمارة- يوجد بها فروع لكافة الدوائر الحكومية فيما عدا وزارة الخارجية.

خامساً: المبانى التعليمية: يوجد فى مكة مدارس عديدة، تشمل كافة مستويات التعليم العام الابتدائى والمتوسط والثانوى، ويلتحق بها البنون والبنات، وكذلك يوجد بها كليتا التربية والشريعة التابعتان لجامعة الملك عبدالعزيز، ولكل منها قسم للبنات.

سادساً: المبانى الخاصة بالخدمة الصحية: يوجد بمكة مستشفيان رئيسيان وثلاث مستوصفات ومنطقة تشرف على الشؤون الصحية بالأمارة. وأهم المستشفيات مستشفى أجياد بالقرب من الحرم، هذا بالإضافة إلى مستشفى للطوارئ وعدد من المستشفيات الخاصة.

سابعاً: المبانى الدينية: تنتشر المساجد فى كافة أحياء المدينة، ولكن الحرم هو أهم المبانى الدينية جميعاً، وتقام فيه صلاة العيد. كما يوجد بالمدينة مركز لهيئة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. والمساجد جميعاً مبنية بالطوب أو الحجر، ومسقوفة بالمسلح أو الأخشاب وبها مراوح لتجديد الهواء،

ثامناً: المقابر: توجد بمكة مقبرة واحدة هى مقبرة المعلاة، وإن كانت مقسّمة إلى جزئين بينهما شارع مرصوف وكلاهما حوله سور.

تاسعاً: الترفيه والرياضة: وتقتصر على نادى الوحدة فى غرب مكة ومتنزه

ص: ۲۲۶

كبير (متنزه البلدية)، وبعض الكازينوهات والمقاهى فى منطقة الحوض، ويشمل المخطط الجديد مساحات مخصصة للحدائق والمتنزهات.

عاشراً: الطرق: وأهمها الطريقان الرئيسيان إلى جدة- الطائف، ثم تأتى بعد ذلك الطرق الرئيسية داخل مكة، وأهمها: شارع الغزة (الذى يبدأ من الحرم إلى مركز البريد)، وشارع المنصور، وشارع الجفاير، وتتصل هذه الطرق الرئيسية بالطرق الأخرى الفرعية، مكونةً شبكةً داخل المدينة. وتجرى الآن عمليات شق الشوارع وفق المخطط المقترح الجديد، كما أن طريق مكة- منطقة شعائر الحج أصبح من طرق الدرجة الأولى المرصوفة، مما سيكون له أثر كبير على التطور العمرانى لمدينة مكة، حيث إنه يساعد على تنشيط الحركة بين مكة والطائف على نطاق واسع، هذا بالإضافة إلى الطريق الدائرى حول مكة الذى يربط بين أحيائها فى سهولةٍ ويسر.

حادى عشر: المزارع: وهى عبارة عن بقع متفرقة على أطراف مكة ملك للأفراد يتخذون منها متنزهات خاصة، يزرعونها بالنخيل والخضروات والفاكهة.

ثانى عشر: أراضى فضاء: توجد أراضى فضاء بجوار مكة من الناحيتين الشرقية والغربية بصفة خاصة، وكذلك داخل المدينة، وهى أراضى مقسّمة ومخططة، وتتم فيها حركة توسّع المبانى على نطاق واسع فى الوقت الراهن.

ثالث عشر: الفنادق: هناك عدة فنادق من الدرجة الأولى بمدينة مكة بالقرب من الحرم، بالإضافة إلى عدة فنادق أخرى من الدرجة الثانية معظمها قريب من الحرم.

مخطط مكة الجديد

أعد مخطط جديد لمدينة مكة قامت بتصميمه الشركات الاستشارية مع مهندسى البلدية، وقد أقر هذا المخطط من جانب مكتب تخطيط المدن، ويشمل كافة الخطط التى طورت، وتشمل منطقة واسعة من الأراضى فى الغرب والشرق.

ص: ۲۲۷

ومن التغيرات الهامة فى هذا المخطط إزالة جزء كبير من المنطقة القديمة والوسطى، وشق طرق حديثة ومتنزهات بدلًا منها، وإقامة ميادين رئيسية لتسهيل حركة السكان والحجاج. وبدون شك فإن عملية التنفيذ سوف تستغرق وقتاً من الزمن، ولكن تنفيذ المخطط سوف تنعكس آثاره على التوسع العمرانى نتيجةً للنشاط الاقتصادى الذى سوف يزداد بشكل واضح.

وظائف المدينة

مهما اتسعت المدينة وازداد حجمها وتعقد تركيبها السكانى والعمرانى فإنها تظل- رغم ذلك- تمثل وحدةً مركبة من مجموعة من الوظائف (۱)، فالنواة القديمة للمدينة هى الأصل وهى مركزها العصبى المتمثل فى شوارعها التجارية وأسواقها الرئيسية، ومع التجارة وازدهارها المستمر طال يوم العمل بالمدينة، وخاصة بعد إدخال الكهرباء، وأعربت الوظيفة التجارية عن نفسها عن طريق مضاعفة أنوار الشوارع ونوافذ عرض السلع. ومع التجارة أو قبلها أو بعدها تمثل الوظيفة الإدارية للمدينة ملمحاً من أهم ملامحها المورفولوجية، فالإدارة وظيفة للمدينة، تعنى مبانى ومؤسسات ومكاتب وعاملين، وهى كذلك نشاط اقتصادى يتخذ شكل الخدمات له تداعياته، وبذلك فإن التجارة والإدارة وما يتبعهما من ظهور الخدمات والصناعة تمثل الوظائف الرئيسية المؤثرة فى شكل المدينة وتركيبها، فضلًا عن كونها تمثل نبض المركز اليومى فى المدينة وأساس سيولتها الإقليمية التى تجعل من المدينة ومنطقتها إقليم حركة، وتحقق السيولة الإقليمية الفعالة فى تجانس الإقليم و التقريب حضارياً بين المدينة و ريفها وباديتها (۲).

ويسود فى الوقت الحاضر تحليل التركيب الوظيفى للمدينة إلى الوظائف

۱- Ernest, W. Burges, ۱۹۲۵, The Growth of the City in The City, ed. Robert, E. Park.

۲- Robert, E. Dickinson ۱۹۴۷, City Region and Regionalism, London, p. ۹۶.

ص: ۲۲۸

الأولية، وهى تمثل أصل قيام المدينة ومبرر ظهورها، وهى بالنسبة لمكة تتمثل فى الوظيفتين الدينية والتجارية، ثم الوظائف التالية التى نشأت بعد ذلك كتداعيات ضرورية مرتبطة بالوظائف الأولية بدرجات شتى، وتتمثل هنا فى الإدارة والخدمات بأنواعها. وفيما يلى تحليل لأهم وظائف مكة المكرمة: «الدينية، التجارية، الخدمات».

أ- الوظيفة الدينية:

وهى لم تمنح المدينة مركزاً مدنياً عالمياً فحسب، بل حفظتها أيضاً مذكورةً مشهورة، وتعد الكعبة المشرفة نواة هذه المدينة وقلبها، فمع نبض حركة الحج إليها والمترددين عليها استمرت مكة تؤدى وظيفتها هذه منذ رفعت قواعد البيت. لقد تغيرت عمارة الكعبة واتسعت، وتأثرت بمجالاتها الحديثة واتجاهات نموها، فالتفّ حولها عمران مكة يكتنفها ويحميها، واتجهت إليها شوارعها وحاراتها، وتداخلت معها أحياؤها. فالحرم شكل تكوين مكة، فهو أهم مكوناتها تأثيراً ووجوداً، ولم يقتصر دور الحرم تاريخياً على مدرسته الدينية والثقافية وما تمثله، بل هو بلا شك أنموذج انتشر فى العالم الإسلامى فيما بعد.

ص: ۲۲۹

وتتضح أهمية الوظيفة الدينية للمدينة المقدسة من زيادة الاهتمام بها، وتخصيص إحدى الوزارات للاهتمام بوظيفتها- وزارة الحج والأوقاف- وكذلك فى الاهتمام بشق الطرق إلى الحرم والمساجد الأخرى فى مكة المكرمة التى أصبحت نوايات أحيائها، وأحياناً شارعاً من شوارعها، وهى تشغل من الأحياء قلبها- تكرار الصورة المدنية ككل- ومن الشوارع رؤوسها ومن الميادين وسطها، وهى معالم الأحياء وأسماء الشوارع، إليها تتجه الطرق، وحسب مواضعها توضع خطط المبانى وتنظيم المداخل، فهى نوايات تخطيطية ليس من اليسير تجاوزها، وتظهر حولها الأسواق، وتتحدد أثمان الأراضى وهى عن بعد تمثل خط أفق المدينة.

وهناك نحو سبعة مساجد كبيرة فى مكة، عدا عدد آخر أكبر بكثير من المساجد الصغيرة والزوايا.

كما يؤكد الأهمية الدينية للمدينة أيضاً الزيادة المستمرة فى عدد الحجاج القادمين إليها، والذى بلغ فى عام ۱۳۵۵ ه نحو ۴۹۵۱۷ حاجاً، ارتفع إلى ۳۱۶۲۲۶ حاجاً عام ۱۳۶۰ ه، ثم إلى ۱۰۰۵۷۸ حاجاً عام ۱۳۷۰ ه، ۲۹۴۱۱۸ حاجاً عام ۱۳۸۵ ه ونحو ۶۴۵۱۸۲ حاجاً عام ۱۳۹۲ ه. ويقدر بأن عددهم قد بلغ نحو مليون حاج فى العام ۱۹۷۷ م، وذلك فإن تخطيط مكة لابد أن يراعى فيه محاولة الوصول إلى تحقيق المدينة لوظيفتها بكفاءة عالية، وأن يستوعب الحرم أكبر عدد ممكن من المصلّين. وزيادة الاهتمام بتوسعة مساحات وتهيئة أماكن لوقوف السيارات، فضلًا عن دورات المياه ومناهل لمياه الشرب.

ولا شك أن تهيئة الفنادق المناسبة والمنازل الكافية من أساسيات توفير الراحة لمئات الألوف من الزوار. وهكذا تتداعى عن الوظيفة الدينية مجموعة أخرى من المهام التى لا يجدر إغفالها عند التخطيط لمستقبل مكة.

ويمكن القول بأن أكثر من نصف سكان مكة يعيشون على الوظيفة الدينية

ص: ۲۳۰

للمدينة، سواء المشتغلون منهم بتلك الوظيفة مباشرةً مثل المطوفين أو خدمة المسجد والعاملين بجمعية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أو بالوظائف الأخرى المترتبة عليها.

ب- الوظيفة التجارية:

من أقدم وظائف مكة المكرمة، وهى قد تراوحت خلال الزمن ما بين تجارة ذات مدى إقليمى محدود يشمل نجداً والحجاز، إلى المشاركة فى حركة التجارة العالمية إبان ازدهار طريق التجارة القديم بين الشام واليمن. وفى العصور الحديثة عادت إليها وظيفتها التجارية الإقليمية المحدودة، وهى الآن- ومنذ ربع قرن- قد تهيأت لتصبح سوقاً لشتى البضائع العالمية، ومن شوارعها ومحلاتها يمكن شراء مجموعات متنوعة من سلع أرقى الدول الصناعية المعاصرة.

وتستوعب هذه الوظيفة- ما بين تجارة جملة وتجزئة ووساطة ووكالات- نسبةً هامة من سكان مكة العاملين؛ فقد تبين للباحث أن مجموع المؤسسات التجارية والمتصلة بها (النقل والتخزين- العقارات وخدمات الأعمال- المؤسسات المالية والعقارية) قد بلغ ۳۴۸۲ مؤسسة، بنسبة ۷۴٪ من جملة عدد المؤسسات بمكة. وبالنسبة لعدد العاملين فإن نسبة العاملين فى التجارة تصل إلى نحو ۳ ر ۷۲٪ من مجموع العاملين بها، وإذا ما أضيف إليها العاملون فى الأنشطة المتصلة بها والسابق ذكرها، فإنها ترتفع إلى نحو ۷۷٪ كما يتضح موقف تجارة التجزئة الهام، فهى وحدها تستوعب نحو ۴۷٪ من جملة العاملين فى الأنشطة الاقتصادية بمكة (۱۰۹۸۶ عاملًا).

والمؤسسات المستقلة- مركزها الرئيسى مكة وليس لها فروع خارجها- هى السائدة. وهذا يتفق مع سيادة تجارة التجزئة على كافة أنواع التجارة الأخرى، كما يؤكد الدور التجارى المحدود للمدينة. ولكنها من ناحية أخرى أشد جاذبية لإنشاء فروع المؤسسات التجارية لأسباب تتصل بوظيفتها الدينية، وهذا هو

ص: ۲۳۱

السبب فى نقص عـدد مؤسّـسات تجارة الجملة وقلّة عدد العاملين بها بالنسبة لتجارة التجزئة. فمدينة مكة إذاً تتبع تجارياً مراكز أخرى فى الدولة مثل جدة والرياض والدمام، فهى سوق استهلاكية أكثر منها توزيعية أو إنتاجية.

ولا ـ شك أن لهـذه الحقيقـة انعكاساتهـا بالنسبة لأشكال الأسواق فى مكـة وتركيبهـا، فهى تتخـذ من حيث الشكل والتـوزع نمطين أساسيين: الأول: هو السوق بشكله التقليـدى القـديم فى حارات النواة القديمـة وأزقتها، والبواكى التقليدية والمناضد المرصوصة أمام الدكاكين الصغيرة مع العرض المزدحم للسلع.

ومن الأمثلة سوق الليل ومحال الأحياء القديمة حول المسجد الحرام.

أمـا النمـط الثـانى للأسواق فيتمثل فى محلات الشوارع التجاريـة الحديثـة، سواء فى المناطق التى أعيـد تخطيطها فى وسط مكـة أو فى مناطق التعمير الحديثة بالمدينة.

وهى أكثر تخصّـصاً وتنظيماً. ويمكن ملاحظـة ذلك من طريقـة عرض السلع بالفترينات أو بالـداخل، وكذلك من الإضاءة الكهربائية والإعلانـات فى محـاور الغزة والقرارة وأجياد وغيرها من الشوارع الحديثـة الواسعة. وكان من شأن ذلك أيضاً الاتجاه نحو بسط نطاق السوق على امتـداد خطوط الحركـة بـدلًا من توفير مواقع محليـة للأسواق، أو تتخـذ إحـدى العمائر كسوقٍ ضخم مثل عمارة عبـداللَّه الفيصل فى الغزة.

وإلى جانب هـذين النمطين، يطرح التخطيط الحـديث للمدينة نمطاً ثالثاً يتمثل فى إقامة سوق مركزية مجمعة، يقترح لها مكان المبانى القديمة التى تزال فى سوق الليل والقرارة. وكذلك يتضمن التخطيط إنشاء عدد من الأسواق الصغيرة فى أحياء المدينة المختلفة.

ولقد ارتبط بالوظيفتين الدينية والتجارية للمدينة مجموعة من الخدمات والوظائف أهمها ما يلى:

۱- الطوافة: وهى من أهم مهن السكان بمكة المكرمة باعتبارها مدينة حج،

ص: ۲۳۲

ويعمل بهذه المهنة ويستفيد منها أكثر من نصف السكان. وقد نشأت مهنة الطوافة فى عهد المماليك الشراكسة فى عام ۷۸۵ ه، والذين كانوا يجهلون اللغة العربية، ومن ثم كانوا بحاجة إلى من يلقنهم الأدعية على مشاعر الحج. وقد استشهد السباعى على ذلك عندما أورد قصة حج السلطان المملوكى قايتباى فى ۸۸۴ ه، حيث تقدم القاضى إبراهيم بن ظهيرة لتطويفه. ولم يذكر المؤرخون مطوفاً فى مكة قبل القاضى.

ويشترط على من يمتهن الطوافة أن يكون آباؤه وأجداده قد مارسوها قبله، وأن تتوافر فيه الأمانة والمعرفة التامة بأمور الدين. والمطوّف مسؤول عن راحة الحجاج التابعين له، ويوفر لهم المسكن المناسب، ويقوم على تطويفهم وتعريفهم بمناسك الحج أو العمرة، كما يقوم على إجراءات تصعيد الحجاج إلى المشاعر المقدسة فى منى وعرفات والمزدلفة، وإنهاء إجراءات سفرهم إلى بلادهم. ويكون المطوّف مسؤولًا أمام الجهات الرسمية فى حالة تخلّف الحاج أو وقوع أية أضرار تلحق به. ومقابل ذلك يعطى له مبلغاً من المال تقرره الهيئة المسؤولة عن شؤون المطوّفين.

وحتى وقتٍ قريب كانت كل مجموعة من المطوفين مسؤولة تماماً عن حجاج بلدان إسلامية معينة، ولكن هذا النظام ألغى وأصبح الحاج حراً فى اختيار مطوّفه، عدا حجاج الشيعة الذين لا يحق لهم النزول إلّاعند مطوفيهم الذين لا يزيد عددهم عن عشرة.

وعدد المطوّفين حوالى ۹۰۰ مطوف ومطوفة، ويتركز معظمهم فى الأحياء القريبة من الحرم، مثل أجياد والقشاشية والمصافى والفلق والشامية. ويواجه المطوفون بعدة مشاكل، أهمها عدم توافر السكن المناسب للحجاج بأعدادهم المتزايدة بالقرب من الحرم، ومما اضطرهم فى السنوات الأخيرة إلى استئجار مساكن فى ضواحى المدينة وأطرافها. كذلك يعانون من مشكلة توفير وسائل

ص: ۲۳۳

المواصلات وارتفاع أسعارها، ومشكلة توفير المياه للحجاج فى منى وعرفات.

ومن الطريف أن الشخص الذى يقوم بالطوافة يختلف الاسم الذى يطلق عليه من جنس إلى آخر، فالعرب يطلقون عليه اسم «مطوف»، والهنود يطلقون عليه اسم «معلم»، أما الأتراك فيدعونه «بالدليل»، بينما يطلق عليه الإندونيسيون لقب «شيخ».

۲- البنوك: كان الصرافون يقومون باستبدال العملات للحجاج، بالإضافة إلى بعض أعمال البنوك فى نطاق محدود. ولكنه فى عام ۱۹۴۵ م أنشىء فرع للبنك الأهلى التجارى بمكة يؤدى جميع الأعمال المصرفية والاقتصادية للتجار والمترددين على المدينة. وفى سنة ۱۹۵۲ م أنشىء فرع مؤسسة النقد السعودية ليقوم بأعمال البنك المركزى (وهى مؤسسة حكومية للأعمال المصرفية)، ويقوم بأعمال البنوك من تمويل للمشروعات، أو قبول للودائع، وصرف الشيكات، وفتح الحسابات الجارية...، وفى سنة ۱۹۵۴ م أنشىء فرع بنك الرياض بمكة، ليقوم بالأعمال المصرفية المعتادة. وتقوم جميع البنوك بالمدينة فى الحى التجارى بالقرب من الحرم الشريف.

۳- الفنادق: ولا تخفى أهميتها بالنسبة لمدينة مكة المكرمة. وكان أول فندق حديث بها هو فندق بنك مصر (الكعكى حالياً) فى حى أجياد بالقرب من الحرم، وكان يعمل فى موسم الحج فقط، ولكنه الآن يعمل طوال العام. وفى الفترة الأخيرة أنشئت فنادق أخرى من الدرجة الأولى، مثل فندق الحرم أو فندق مكة، وغيرهما، ومنذ عام تقريباً بدأ تشغيل فندق مكة أنترناشيونال المجهز بكل أسباب الراحة والرفاهية، وتعقد فيه المؤتمرات أيضاً. هذا عدا عدة فنادق أخرى من الدرجة الثانية موزعة على شوارع مكة الرئيسية: شارع الغزة وشارع المسفلة.

۴- شركات نقل الحجاج: تأسست فى عام ۱۹۳۴ م، ويبلغ عددها الآن ثلاث هى: الشركة العربية، وشركة المغربى، وشركة التوفيق. وتعمل فى نقل

ص: ۲۳۴

حجاج البيت الحرام إلى منطقة شعائر الحج، أو إلى المدينة المنورة بأجور محددة من قبل الجهات الرسمية. وسيارات الشركات الثلاث فى حالة جيدة.

ج- الوظيفة الثقافية:

تبذل الدولة ممثلةً فى وزارة المعارف جهوداً واسعة لنشر التعليم بأنواعه، فهناك ۶۴ مدرسة نهارية، و ۲۱ مدرسة ليلية تضم ۸۳۰ فصلًا. ويهدف التعليم هنا إلى فهم الإسلام ونشر تعاليمه وتطوير المجتمع فى مختلف النواحى الاقتصادية والاجتماعية والعلمية وغيرها.

والمدارس الابتدائية منتشرة فى جميع أحياء مكة، أما المدارس المتوسطة فهى تتركز فى أحياء جرول والقرارة والششة والمعابدة والمسفلة والشبيكة وشعب على والنزهة. وفى مكة أيضاً ثلاث مدارس ثانوية، هى: الفلاح الثانوية (مدرسة أهلية)، ومكة الثانوية (فى حى الزاهر)، والعزيزية الثانوية (فى حى العزيزية).

كما تهتم وزارة المعارف السعودية بمكافحة الأمية وتعليم الكبار، وتدعم هذا النوع من التعليم فنياً ومالياً وإدارياً، لذلك أنشأت العديد من المدارس الابتدائية والمتوسطة والثانوية الليلية لكى يستطيع الكبار مواصلة تعليمهم فيها. وتعنى الدولة أيضاً بالمعوقين ذهنياً أو جسمانياً، وتعمل على رعايتهم من خلال معهد النور بمكة.

ونظراً للعادات والتقاليد التى تتميز بها السعودية، فقد أنشأت إدارة خاصة بتعليم البنات تتبع وزارة المعارف لتشرف على تعليم البنات. وفى مكة ۵۶ مدرسة ابتدائية، وسبع مدارس متوسطة، ومدرستان ثانويتان لتعليم البنات، تضم ۷۳۳ فصلًا (۲۵۳۴۷ تلميذة).

وفى مكة كليتان من كليات جامعة الملك عبدالعزيز، هما كليتا الشريعة والتربية، ولكل منهما قسم للبنات. وتضم كل كلية نحو ۶۰۰ طالب وطالبة،

ص: ۲۳۵

وتقـدّم الجامعة مساعدات مالية للطلاب تتراوح ما بين ۳۰۰- ۵۲۵ ريال لكل طالب شـهرياً، تشـجيعاً لهم على مواصلة الدراسة. ويعمل بالجامعة عدد كبير من الأساتذة فى مختلف التخصصات.

بالقرب من الجامعة معهد للمعلّمين فى منطقة الحوض، يلتحق به الحاصلون على شهادة الدراسة الثانوية، ومدة الدراسة بالمعهد عامان، يتخرج بعدها الطالب معلّماً بالمدارس الابتدائية.

وفى مكـة عـدة مكتبات، أهمها مكتبـة الحرم، وهى المكتبـة الرئيسـية بالمدينة (دار الكتب بالقاهرة)، وقد أنشأت فى سـنة ۱۲۵۷ ه فى عهد السـلطان العثمانى عبدالحميد. وتتبع المكتبة الرئاسة العامة للإشراف الدينى، وتضم أكثر من ۲۵ ألف كتاب بمختلف اللغات، من بينها ۲۰۰۰ مخطوط نادر، وكذلك مجلدات للصـحف السـعودية وغيرها. ويتردد على المكتبة للاسـتعارة أو الاطلاع أعداد تتزايد كل يوم، معظمهم (حوالى ۸۰٪ منهم) من طلبة كليتى التربية والشريعة.

د- الوظيفة الإدارية:

تنقسم المملكة العربية السعودية- إدارياً- إلى خمس مناطق هى:

۱- المنطقة الشمالية.

۲- المنطقة الجنوبية.

۳- المنطقة الشرقية.

۴- المنطقة الغربية.

۵- المنطقة الوسطى.

وكل من هذه المناطق الخمس تنقسم بدورها إلى أمارات رئيسية، فأمارات تابعة. وأمارة مكة المكرمة تتبع المنطقة الغربية التى تضمها وأمارة المدينة المنورة.

ويتبع أمارة مكة مجموعة من الأمارات التابعة. وقد بلغ عدد سـكان مدينة مكة فى نفس الإحصاء ۳۳۶۸۰۱ نسمة، فيكون نحو ۲۰٪ من مجموع سكان الأمارة.

ص: ۲۳۶

وتضم مكة عدداً من الخدمات الإدارية على رأسها الأمارة التى تقع فى شارع الروضة، وتمثل السلطة المشرفة على المصالح الحكومية بالمدينة وملحقاتها، وبها رئاسة البلدية التى تقع فى حى الزاهر، وهى من أقدم بلديات الدولة، وتقوم بالإشراف على الخدمات العامة كالكهرباء والمياه والمجارى وتنفيذ المشروعات ومراقبة الطرق والترخيص، والإشراف على الأسواق والشوارع وتتبعها المطافىء، ويمثل المجلس الإدارى سلطة هامة داخل مكة.

ويتألف من أعضاء يمثلون جميع إدارات المدينة فيها. ومن إداراتها أيضاً دائرة الجوازات والجنسية، ومركز إحصاء النفوس، والأوقاف والمحكمة الشرعية... وتشمل المحكمة المستعجلة وكتابة العدل ومأمورية لبيت المال وإدارة شؤون الموتى. وأقامت الأمارة مركزاً للخدمة الاجتماعية بمكة لدراسة المشكلات الاجتماعية التى تواجه سكان المدينة. وقد ساهم المركز فى إقامة عدد من المؤسسات الاجتماعية ودور للعجزة والأندية الرياضية ومؤسسات للتدريب على صناعات ومهن مختلفة، كما يشرف المركز على دار للتربية الاجتماعية التى تضم مدرسة للأيتام، ويصرف المركز مساعدات مالية للمستحقين.

ويشرف على الأمن فى مكة ستة مخافر للشرطة تتوزع فى مناطقها المختلفة. والمرجح أن يتزايد عدد المراكز الإدارية الحكومية بالمدينة تبعاً لإمكانيات نموها العالية ولاحتمالات تنمية منطقتها التابعة فى المستقبل.

ص: ۲۳۷

ولا شك أن وضع مكـة كمركز إدارى يتطلّب تركيزاً شديـداً فى الخـدمات عاليـة المستوى، فهو يفرض توزيعاً عادلًا للخـدمات حتى يتحقق الأداء بفاعلية خلال هذه المنطقة الواسعة المبعثرة السكان والسكن. وهذا يتطلب تيسير سبل الوصول من وإلى أنحاء الأمارة إلى عاصـمتها، وهو هـدف اتجهت برامـج إنشاء الطرق إلى تحقيقه من خلال خطـة لتنمية مناطق الريف والبادية فى السـعودية. وذلك عن طريق ربط أجزاء الدولة الواسعة بشبكة جيدة من الطرق.

ه الوظيفة الصناعية:

ولا تمثل سوى جزء ضئيل من التركيب الوظيفى للمدينة، ومعظم الصناعات هنا صناعات استهلاكية ليس لها أية دلالة إقليمية كبيرة.

ولما كانت صناعات المدن تتحدد تبعاً لعدة عوامل، منها تركيب سكان المدينة ووظائف المدينة ثم إمكانيات المدينة ومنطقتها، وهى تهـدف إلى سـد احتياجـات سـكان المدينـة والإقليم التـابع الـذى تسـتمد منه المـادة الخـام فى أغلب الأحيـان. فمن الطبيعى أن تمثل صناعـات السوق الاسـتهلاكية (الملابـس- المشـروبات- الطباعـة- المواد الغذائيـة- الأثـاث- البلاستيـك...) المـادة الأولى فى قـائمة الصـناعات بمكـة مع التأكيـد على ضآلـة نصـيبها من جملـة النشـاط الاقتصـادى العـام وذلـك بالمقارنـة مع التجارة، خاصـةً من ناحية المؤسسات أو عدد المشتغلين بها.

والصـناعات الاستهلاكية المشار إليها يمكن اعتبارها أيضاً ضمن صناعة الخدمات، حيث يمثل التسويق جزءاً هاماً من اقتصادياتها، كما أنها تتم فى السوق أو بالقرب منه، وتمثل حاجة مشتركة لجملة السـكان. ومن المتوقع أن يتزايد عدد المؤسسات الصناعية الاستهلاكية بالمدينة تبعاً لتزايد دخول الأفراد وارتفاع مستوى معيشتهم.

وتمثل مؤسسات المواد الغذائية والمشروبات والتبغ أكبر عدد من المؤسسات

ص: ۲۳۸

الصناعية فى مكة (۱۸۲ مؤسسة- ۵۸۰ عاملًا)، يليها المؤسسات العاملة فى المنسوجات والملابس الجاهزة والجلود (۱۴۲ مؤسسة- ۲۷۲ عاملًا)، ثم مؤسسات الأثاث (۴۳ مؤسسة- ۱۰۲ عاملًا)، والطباعة والنشر (۱۶ مؤسسة- ۳۸ عاملًا)، ثم صناعات البلاستيک (مصنع واحد- ۲۳ عاملًا).

ويلاحظ أن صناعة الطباعة والنشر بمكة جاءت لارتباطها بوظيفة المدينة كعاصمة إدارية وكمركز تجارى وبؤرة للخدمات التعليمية والثقافية، وما يتطلبه ذلک من طبع للإعلانات والفواتير والأغلفة والمنشورات والكراسات وغير ذلک.

كما أن من الصناعات الاستهلاكية ما ظهر كضرورة لأحوال المناخ بالمنطقة أو كضرورة للعمل على راحة الحجاج مثل صناعة الثلج التى أنشأت وأنشىء لها مصنع كبير على الطريق إلى منى. وهكذا فإننا نجد أن بعض الصناعات بمكة قد ظهرت كتداعيات لوظائف المدينة الأخرى المتعددة، وهذا بدون شک مفيد من الناحية الاقتصادية. وهذه الصناعات ترتبط فى نموها بنمو وظائف المدينة كماً وكيفاً.

أما مصنع البلاستيک بمكة المكرمة فهو مصنع صغير أنشىء فى عام ۱۹۷۲ م فى منطقة التناعيم، وينتج الأكياس البلاستيک والأكواب وجراكل المياه...

وإنتاجه لا يكفى احتياجات المدينة المتزايدة، وهناک مشروع لإنشاء مصنع آخر.

والجدير بالذكر هنا أن معظم ما يطلق عليه اسم «مصنع» فى مكة ليس إلّا دكاكين صغيرة موزعة فى أنحائها، ولا يزيد عدد العمال فى أى منها- غالباً- عن خمسة أفراد. وهذا يجعلنا نؤكد مرة أخرى بأن الصناعة فى مكة لا تمثل إلّاظلًا باهتاً فى اقتصادياتها، ولا تستخدم من الأيدى العاملة إلا عدداً ضئيلًا.

سكان مكة المكرمة:

كان سكان مكة فى بدء ظهورها يعملون فى خدمة القوافل وزوار البيت، وكان عددهم ضئيلًا تبعاً لإمكانيات الموضع المحدودة. وعندما جاهر الرسول

ص: ۲۳۹

بدعوته وهاجر وأصحابه إلى المدينة المنورة، انخفض عدد سكان مكّة بشدة، كذلك انخفض عددهم مرةً أخرى بسبب خروج معظمهم للجهاد ونشر الدعوة.

وقد مرت مكة بعد ذلك بعدة ظروف، جعلت سكانها يتأرجحون بين الزيادة والنقصان، إلّاأن عددهم بلغ حوالى مائة ألف نسمة فى عام ۱۹۵۰ م، يتوزعون على أحيائها القديمة المحيطة بالحرم مثل أجياد والقرارة والشبيكة والمسفلة وغيرها. ثم ارتفع عددهم بمعدلات سريعة بعد ذلك، نتيجة لاهتمام الدولة بالمدينة المقدسة باعتبارها مدينة حج وعاصمة لأهم أماراتها، والتوسع السكنى بالمدينة، مما ساعد على ظهور أحياء جديدة مثل العزيزية والنزهة، بالإضافة إلى توافر الخدمات والمرافق الحيوية بالمدينة.

وقد أجرى أول تعداد للسكان فى السعودية فى عام ۱۹۷۴ م (۱۳۹۴ ه)، وكان الغرض منه وضع حد للتقديرات المختلفة عن عدد السكان، والاستفادة منه فى خطط التنمية فى شتى المجالات.

وقد أوضحت البيانات الأولية التى نشرت عن هذا التعداد أن سكان السعودية بلغ ۷۰۱۲۶۴۲ نسمة (۱)، إلّاأن نتائج التعداد التفصيلية لم يعلق منها سوى بيانات توزيع السكان على المدن الرئيسية والأمارات والمناطق، أما النتائج التفصيلية الأخرى عن التركيب العمرى والنوعى والاقتصادى والتعليمى وغيرها فلم تعلن حتى الآن على الرغم من مرور أربع سنوات على إجرائه، الأمر الذى يخشى معه أن يحلّ به ما حدث لحصر السكان عام ۱۹۶۲ م.

ومن تعداد ۱۹۷۴ م يتبين أن عدد سكان مكة قد بلغوا ۳۶۶۸۰۱ نسمة، وبذلك فهى ثالثة مدن السعودية من حيث عدد السكان بعد كل من الرياض (۶۶۶۸۴۰ نسمة) وجدة (۵۱۶۱۰۴ نسمة)، ولكنها تسبق الطائف من حيث

۱- المملكة العربية السعودية، مصلحة الإحصاء العامة ۱۳۹۶ ه، التعداد العام للسكان لعام ۱۳۹۴ ه، البيانات‌الأولية: ۳، مطابع المنطقة الوسطى، الرياض.

ص: ۲۴۰

عدد السكان (۲۰۴۸۰۷ نسمة) والمدينة (۱۹۸۱۸۶ نسمة).

وكانت مكـة المكرمـة وحتى وقت قريب أكبر مـدن السـعودية من حيث عـدد السـكان، إلّاأنّ اتخاذ مدينـة الرياض عاصـمةً للمملكة، وازدهار ميناء جـدة تبعاً لازدياد النشاط العمرانى والاقتصادى فى المملكـة، بالإضافة إلى أنها مقرّ البعثات الدبلوماسـية، دفع بالمدينتين (الرياض وجدة) إلى المركز الأول والثانى بين مدن السعودية من حيث عدد السكان.

ومع هـذا، فقـد شـهدت منطقـة مكـة زيـادة سـكانية ضـخمة لم تشـهدها منطقـة أخرى فى السـعودية، مما جعلها إقليم النقل السـكانى بالمملكـة. ويعود ذلـك إلى الموقع الجغرافى المميز، والمركز الـدينى المرموق الـذى يتفرد به، بالإضافـة إلى برامـج التنميـة ومشاريع التعمير بالمنطقة.

وحتى منتصف الثلاثينيـات لم تكن هناك مـدن بالمفهوم الحقيقى لمعنى حضـر سوى بعض المـدن الحجازيـة مثل: مكـة، والمدينـة، والطائف، وما عـدا ذلك فيعـد فى حكم البلـدان أو القرى. ولكن كان لاكتشاف بترول المنطقـة الشـرقية أثر فى ارتفاع معدلات النمو السـكانى فى السـعودية عامـة، والمنطقـة الشـرقية بوجه خـاص، ممـا أدى إلى ظهور مـدن الزيت- الـدمام، والخـبر، والظهران، وأبقيق، والخفجى- وتحوّل أعداد كبيرة من البدو الرحّل إلى سكان مستقرين.

ص: ۲۴۱

وفی أوائل الخمسینیات لم تكن هناك سوی مدینة واحدة فی المملكة التی تجاوز عدد سكانها مائة ألف نسمة هی مكة المكرمة، أما الریاض وجدة فلم یكن عدد السكان فی أیهما یتجاوز الثمانین ألفاً من السكان.

وقد قدر عدد سكان المدن السعودیة فی عام ۱۹۶۲ م بحوالی ۹۶۹۱۳۴ نسمة، وفی عام ۱۹۷۴ م بلغ عدد ۲۶۶۴۲۲۰ نسمة، أی عدد سكان المدن بالمملكة ازداد خلال ۱۲ سنة ۱۶۹۵۰۸۶ نسمة، وكانت نسبة التغیر خلال الفترة (۱۷۵٪) وبزیادة سنویة قدرها ۵ ر ۱۴٪، وقد سجلت كل من الریاض والطائف والدمام وجدة أعلی نسبة (۸ ر ۲۰- ۵ ر ۲۴٪)، ثم المدینة (۶ ر ۱۴٪)، ومكة (۹ ر ۱۰٪)، ونجران (۶ ر ۹٪)، وبریدة (۳ ر ۸٪)، وأبها (۶٪) أما كل من الهفوف وجیزان وحائل وعنیزة فقد سجلت كل منها أقل من ۴٪.

وعلی هذا، فإنه حسب إحصاء ۱۹۷۴ م لا تضمّ السعودیة سوی مدینتین نصف ملیونیة، هما الریاض وجدة، كما أن المدن التی یزید عدد سكان كل منها علی ۲۰۰ ألف نسمة تتركز فی غرب المملكة، وتطل علی البحر الأحمر أو بالقرب منه فیما عدا الریاض.

وحسب إحصاء ۱۹۷۴ م أیضاً فإن السعودیة تضم أكبر عدد من البدو فی العالم، وأعلی نسبة منهم أیضاً بالقیاس إلی جملة السكان. فعددهم یصل إلی ۱۸۸۳۹۸۷، بنسبة ۸ ر ۲۶٪ من جملة السكان. ولكن توجد عدة مشروعات لتوطین البدو فی السعودیة، یمكن أن تؤدی إلی تقلیل أعدادهم ونسبتهم تدریجیاً، كما یلاحظ أن حیاتهم بدأت تتحول بالفعل. فوسائلهم فی الحصول علی المیاه أدركها تغیّر كبیر، وبعضهم یستخدم سیارات نقل المیاه فی جلب میاه الشرب اللازمة لقطعانه من الآبار، ویستخدم السیارات فی الحصول علی حاجته من الأخشاب بدلًا من استخدام الإبل فی ذلك أو نقل قطعانه إلی موارد المیاه (۱).

۱- أحمد علی إسماعیل، ۱۹۷۶، أسس علم السكان وتطبیقاته الجغرافیة: ۱۴۸، القاهرة.

ص: ۲۴۲

ورغم أن التوزيع النوعى للسكان غير معروف إلا أن النسبة النوعية بين الذكور والإناث تتراوح بين ۱۱۰- ۱۳۰ فى كل من الرياض وجدة ومكة والمدينة والطائف، حيث تزيد نسبة الذكور على نسبة الإناث فيها جميعاً. وهذا يرجع إلى تدفق المهاجرين إلى هذه المدن سواء من داخل السعودية أو خارجها. وكانت نسبة توزيع السكان حسب فئات العمر فى مكة كما يلى عام ۱۹۷۴ م مقارنةً بالنسبة العامة فى المملكة.

أقل من ۱۰ سنة من ۱۰- ۲۹ ۳۰- ۴۰ أكثر من ۵۰ سنة

مكّة ۵ ر ۳۵ ۵ ۳۸ ر ۱۹ ۷

المملكة ۸ ر ۳۷ ۵ ر ۳۰ ۴ ر ۲۱ ۱۰

ويرجع ارتفاع نسبة الفئتين: الأولى والثانية عن معدل السعودية إلى أن منطقة مكة المكرمة بما تشهد من مشاريع عمرانية ضخمة، وتوسع فى إنشاء المعاهد والكليات، تعد من مراكز جذب الشباب للعمل أو التعلم.

وقد بلغ معدل نمو السكان السنوى فى المملكة فى منتصف الستينيات (۱۹۶۵ م) نحو ۷ ر ۲۰٪، وعلى هذا قدر عدد السكان سنة ۱۹۶۵ م بحوالى ۵۳۶۲۲۸۶ نسمة. ولكن معدل النمو ارتفع فى أوائل السبعينيات إلى ۹ ر ۲٪، وارتفع تبعاً لذلك عدد السكان عام ۱۹۷۰ م إلى ۶۱۹۹۱۷۶ نسمة، وأصبح معدل النمو السنوى فى منتصف السبعينيات ۳٪، ولذلك ينتظر أن يرتفع عددهم إلى نحو ۸ مليون نسمة فى عام ۱۹۸۰ م.

والسبب فى هذه الزيادة المطردة للسكان يعود إلى انتهاء عصر المجاعات والأوبئة، وظهور البترول عام ۱۹۳۸، ثم دخول البلاد فى مرحلة من التنمية الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية كما أن البلاد لم تشهد خلال هذه الفترة هجرةً واسعة للخارج، وذلك لتوافر كثير من العوامل المشجعة على الاستقرار والبقاء،

ص: ۲۴۳

کما أنه بالنسبهٔ للمنطقهٔ الغربیهٔ بالـذات، فکان للرخاء الاقتصادی والنشاط العمرانی الکبیر بها، وقیام کل من مکهٔ المکرمهٔ والمدینهٔ المنورهٔ فیها، ما جعلها عرضهٔ لزیادهٔ غیر طبیعیهٔ کبیرهٔ.

وتختلف نسب توزیع السکان بین مستقرین ورحّل إلی حد کبیر بین مکهٔ وجملهٔ الأمارهٔ، فبینما تصل نسبهٔ السکان المستقرین فی مکهٔ إلی نحو ۷ ر ۹۹٪ (۳۶۶۰۱۲ نسمهٔ)، فإن نسبهٔ المستقرین فی جملهٔ الأمارهٔ تبلغ ۲ ر ۸۶٪ (۱۵۱۳۶۳۴ نسمهٔ)، أما الرحّل فإن عددهم فی قلهٔ ۷۸۹ نسمهٔ (۳.٪)، وفی جملهٔ الأمارهٔ ۲۴۰۴۷۴ نسمهٔ (۸ ر ۱۳٪) متوزعون علی عدد من المدن الصغیرهٔ والقری ومحلات الرحل.

وحسب تعداد ۱۹۷۴ م فإن عدد الأسر فی مکهٔ یبلغ ۶۷۹۴۷ أسرهٔ، ومتوسط عدد أفراد الأسرهٔ الواحدهٔ ۴ ر ۵ فرداً. ونسبهٔ غیر السعودیین بمکهٔ ۶ ر ۲۶٪ من جملهٔ عدد السکان بها. وتشهد المدینهٔ زیادهٔ سکانیهٔ هائلهٔ فی موسم الحج یقدّر بثلاثهٔ أضعاف عدد سکانها الأصلیین.

ومن خلال الدراسهٔ المیدانیهٔ (۷۴/ ۱۹۷۵ م) أمکن للباحث تقدیر عدد السکان والکثافهٔ

الحی المساحهٔ (بالهکتار) عدد السکان (بالألف) الکثافهٔ (نسمهٔ/ هکتار)

المعابدهٔ.... ۱۸۶ ۶ ر ۱۷ ۶ ر ۹۴

الفیصلیهٔ.... ۹۶۲ ۴ ر ۲۴ ۴ ر ۲۵

الجمیزهٔ... ۴۵ ۸ ر ۱۵ ۱ ر ۳۵۱

شعب عامر... ۴۶- ر ۲۷ ۵ ر ۴۵۶

السلیمانیهٔ... ۴۵ ۸ ر ۱۴ ۹ ر ۴۲۲

سوق اللیل... ۲۵ ۸ ر ۷- ر ۳۱۲

القشاشیهٔ... ۳ ۸ ر ۳ ۵ ر ۴۱۲

النقا... ۳۱ ۲ ر ۵ ۷ ر ۱۶۷

جرول ۹۶- ر ۲۰ ۳ ر ۲۰۸

التنضباوی... ۲۳۰- ر ۴۶- ر ۲۰۰

الهنداویهٔ... ۱۲۷ ۸ ر ۲۵ ۱ ر ۲۰۳

ص: ۲۴۴

القرارة... ۶ ۵ ر ۷ ۵ ر ۹۱۶

الشامية... ۲۶ ۲ ر ۴ ۸ ر ۳۱۵

أجياد... ۱۰۵ ۵ ر ۲۲ ۳ ر ۲۱۴

المسفلة... ۲۱۱- ر ۴۳ ۸ ر ۲۰۳

العتيبية... ۱۲۴ ۲ ر ۳۱ ۶ ر ۲۵۱

الشبيكة... ۱۶ ۲ ر ۱۰- ر ۶۰۰

حارة الباب... ۲۱ ۷ ر ۶- ر ۳۱۹

الزهراء... ۱۰۶- ر ۴ ۷ ر ۳۷

النزهة... ۱۱۰ ۸ ر ۲ ۵ ر ۲۵

الزاهر... ۱۳۵- ر ۳۱ ۵ ر ۲۲۹

ومن الجدول السابق يتضح أن أكبر عدد للسكان يتركز فى أحياء التنضباوى (۴۶ ألف نسمة)، والمسفلة (۴۳ ألف نسمة)، والعتيبية (۲ ر ۳۱ ألف نسمة)، والزاهر (۳۱ ألف نسمة)، والهنداوية (۸ ر ۲۵ نسمة)، أما أقل عدد للسكان ففى النزهة (۲۸۰۰ نسمة)، والقشاشية (۳۳۰۰ نسمة)، والزهراء (۴۰۰۰ نسمة)، والنقا (۵۲۰۰ نسمة)، والقرارة (۵۵۰۰ نسمة).

ومن الجدول أيضاً يلاحظ بأن أعلى كثافة سكانية تقع فى أحياء القرارة (۷ ر ۹۱۶ نسمة/ هكتار)، والشبيكة (۶۰۰ نسمة/ هكتار)، وشعب عامر (۵ ر ۴۵۶ نسمة/ هكتار)، والسليمانية (۹ ر ۴۲۲ نسمة/ هكتار)، والقشاشية (۵ ر ۴۱۲ نسمة/ هكتار)، أما أقل كثافة للسكان ففى أحياء الفيصلية (۴ ر ۲۵ نسمة/ هكتار)، والزهراء (۷ ر ۳۷)، والمعابدة (۶ ر ۹۴).

وعلى هذا، فإنه على الرغم من أن القرارة ليست أكبر الأحياء من حيث عدد السكان، إلا أنها أعلاها من حيث الكثافة السكانية (۷ ر ۹۱۶ نسمة/ هكتار)، وذلك يرجع إلى أن القرارة أصغر أحياء مكة مساحة (۶ هكتار فقط)، وأقربها إلى الحرم فى نفس الوقت. على حين أن حيّ التنضباوى أكبر أحياء مكة المكرمة من حيث عدد السكان (۴۶ ألف نسمة) ليس كذلك من حيث الكثافة، إذ يأتى ترتيبه

ص: ۲۴۵

السادس عشر (۲۰۰ نسمة/ هكتار)، والسبب فى ذلك يعود إلى اتساع مساحته (۲۳۰ هكتار)، بالإضافة إلى أنه يضم عدداً من الجبال والتلال، وبُعده عن الحرم قلب المدينة وقوامها.

إقليم مكة المكرمة:

تميل كل مدينة كبيرة إلى تنظيم إقليمها الذى تقوم بينها وبينه علاقات مشتركة. وهناك معايير عديدة يمكن الاعتماد عليها فى تحديد إقليم المدينة، يتمثل بعضها فى تسهيلات النقل، وفى كثافة وحركة السكان، والمدى الذى تصل إليه خدماتها التعليمية والصحية والترفيهية والثقافية وغيرها (۱).

ولا شك أن مكة المكرمة تسيطر سيطرةً تامة على إقليمها، وتقوم بينها وبينه علاقات مشتركة واسعة، فإليها يأتى أبناء المناطق المحيطة للعمل والتعلم، وإليها أيضاً يأتى المزارعون فى الوديان القريبة لتسويق منتجاتهم، وشراء ما يلزمهم من أسواق المدينة، أو للتردّد على المصالح الحكومية وعيادات الأطباء.

ولكننا هنا إزاء مدينة لها شأن كبير ليس فى المملكة العربية السعودية فحسب، بل فى العالم كله عامة، والعالم الإسلامى والعربى بصفة خاصة نظراً لوضعها الدينى كمدينة حج الإسلام. ولذلك فإننا نقصر الدراسة هنا على تحديد الإقليم الدينى للمدينة اعتماداً على الإحصاء الخاص بالحجاج حسب جنسياتهم عام ۱۳۹۲ ه.

فمن واقع الإحصاء المذكور بلغ عدد الحجاج ۶۴۵۱۸۲ حاجاً، منهم ۲۸۳۷۰۱ من البلاد العربية، والجدول التالى يبين عدد حجاج كل دولة عربية عام ۱۳۹۲ ه.

اسم الدولة	عدد الحجاج	اسم الدولة	عدد الحجاج
الأردن	۱۲۸۵۱	لبنان	۵۳۵۵
الجزائر	۲۲۹۴۵	ليبيا	۳۰۷۰۵

۱- محمد محمد سطيحه، ۱۹۷۱، خرائط التوزيعات الجغرافية: ۷۵- ۷۶، القاهرة.

ص: ۲۴۶

السودان ۳۳۲۲۲ مصر ۳۶۴۵۲

العراق ۳۵۵۶۷ الجنوب العربى ۲۴۹۶

الكويت ۶۵۱۴ أبو ظبى ۸۰۶

المغرب ۱۴۹۲۳ البحرين ۲۰۵۶

اليمن ۵۴۰۸۲ دبى ۲۸۵

تونس ۸۱۶۸ عمان ۳۳۸۴

سوريا ۱۰۴۴۸ أمارات أخرى ۱۰۰۸

فلسطين ۱۱۳۵ أمارات أخرى ۳۴۳

موريتانيا ۹۵۶ مجموع حجاج البلاد العربية ۲۸۳۷۰۱

ومن الجدول يتبين بأن أكبر عدد يأتى من اليمن (۵۴۰۸۲ حاجاً)، ثم مصر (۳۶۴۵۲ حاجاً)، والعراق (۳۵۵۶۷ حاجاً)، يليهم السودان (۳۳۲۲۲ حاجاً)، ثم ليبيا (۳۰۷۰۵ حاجاً). ولكن إذا عرفنا بأن السعودية تعمل على تشجيع اليمنيين على الحج والعمل فيها، وتعفيهم من رسوم الدخول إلى المملكة، فإن هذا يضع مصر فى المركز الأول من حيث عدد الحجاج إلى مكة المكرمة.

أما أقلّ عدد من الحجاج- بالنسبة للدول العربية- فيأتى من دبى (۲۸۵ حاجاً)، وأبو ظبى (۸۰۶ حاجاً). ويمثل حجاج الدول العربية- قلب العالم الإسلامى- ۹ ر ۴۳٪ من مجموع عدد الحجاج سنة ۱۳۹۲ ه (۱۹۷۴ م).

والجدول التالى يبين أعداد حجاج أهم دول العالم سنة ۱۳۹۲ ه فيما عدا الدول العربية.

الدولة عدد الحجاج الدولة عدد الحجاج

اتحاد ماليزيا ۱۲۹۸۳ إثيوبيا ۳۶۵۹

أفغانستان ۶۲۲۰ السنغال ۳۲۳۳

الهند ۱۹۸۷۹ النيجر ۲۴۵۴

إندونيسيا ۴۰۶۶۸ الصومال ۲۸۴۲

إيران ۵۷۲۳۰ الكامرون ۲۲۴۵

باكستان ۶۵۸۶۶ تشاد ۲۷۹۸

تركيا ۳۶۲۵۸ غينيا ۲۸۰۲

ص: ۲۴۷

دول أسيوية أخرى ۵۲۹۱ نيجيريا ۳۸۸۶۹

مجموع حجاج آسيا ۲۴۴۴۰۴ أوغندا ۲۷۷۴

بريطانيا ۱۶۲۸ جنوب أفريقيا ۲۸۴۰

فرنسا ۵۰۲ دول إفريقية أخرى ۹۹۸۱

اليونان ۳۹۰ مجموع حجاج إفريقيا ۷۴۴۹۷

إسبانيا ۲۰۰ الدول الأمريكية ۹۹

مجموع حجاج أوروبا ۴۹۸۰ مجموع الحجاج ۳۶۱۴۸۱

ومن الجدول السابق يتضح أن عدد الحجاج من خارج الدول العربية قد بلغ ۳۶۱۴۸۱ حاجاً، يمثلون ۱ ر ۵۲٪ من المجموع العام للحجاج فى عام ۱۳۹۲ ه، وقد أتى معظمهم من الدول الآسيوية (۲۴۴۴۰۴ حاجاً، يمثلون ۶ ر ۶۷٪ من مجموع الحجاج خارج الدول العربية، ۸ ر ۳۷٪ من المجموع العام للحجاج، يليهم حجاج إفريقيا (۷۴۴۹۷ حاجاً يمثلون ۶ ر ۲۰٪ من مجموع الحجاج خارج الدول العربية، ۵ ر ۱۱٪ من المجموع العام للحجاج. هذا بينما يمثل حجاج دول أوروبا وأمريكا نسبةً ضئيلة، ولا يزيد عددهم على ۵۰۹۷ حاجاً.

ومن بين دول آسيا، فإن الباكستان هى أكبر الدول إرسالًا للحجاج (۶۵۸۶۶ حاجاً)، بل إنها أول دول العالم فى هذا الشأن، يليها إيران (۵۷۲۳۰ حاجاً) التى تحتل المركز الثانى بين دول آسيا ودول العالم أيضاً، ثم تأتى كل من تركيا والهند فى المركزين الثالث والرابع على الترتيب.

أما دول إفريقيا، فإن نيجيريا أول الدول من حيث عدد الحجاج (۳۸۸۶۹ حاجاً)، يليها كل من إثيوبيا (۳۶۵۹ حاجاً)، والسنغال (۳۲۳۳ حاجاً).

وعلى هذا، يتبين لنا أن إقليم مكة الدينى يضم البلاد العربية جميعاً والدول الآسيوية المحيطة بها، حيث يأتى منها كل عام ما يزيد على ۹۵٪ من عدد المترددين على المدينة لتأدية فريضة الحج أو التجارة، ويبقى منهم بالمدينة كل عام أعداد لا يستهان بها، وخاصة من الحجاج اليمنيين الذين تصرّح لهم السلطات السعودية بالعمل فى أراضيها.

ص: ۲۴۸

خاتمة

مما سبق يتضح لنا مدى الأهمية الدينية لمكة المكرمة، المدينة التى يفد إليها فى موسم الحج من كل عام أكثر من ستمائة ألف نسمة بخلاف أعداد كبيرة أيضاً من المعتمرين على مدار السنة يقدرهم البعض بما يقرب من ربع مليون نسمة، يأتون إلى المدينة من مختلف أنحاء العالم.

وهذا دون شك ألقى مسؤولية كبيرة وعبئاً ضخماً على كاهل القائمين بالأمر فى المملكة العربية السعودية، مسؤولية إعاشة الأعداد الهائلة من البشر، وتهيئة سبل الإقامة والراحة لهم، وعبء انتقالاتهم من مكان إلى آخر داخل المملكة.

ولذلك خصّصت وزارة للحج والأوقاف، كما أنشىء جهاز يتولّى كل ما يتعلق من مشروعات خاصة بتوسعة الحرمين (الرئاسة العامة لتوسعة الحرمين الشريفين).

وعلى الرغم من أن هناك بعض المراحل لتوسعة الحرم قد تمت بالفعل، إلّاأنه من المؤكد أن مشروعات التوسعة لن تنتهى، فهى تستأنف مرحلة بعد أخرى مع تزايد أعداد المسلمين والأفواج الهائلة من الحجاج. فعند آخر توسعة تمت بالمسجد الحرام فى زمن الخليفة المقتدر باللَّه ظلّت مساحة المسجد كما هى بدون زيادة أكثر من ألف عام، واستمر البناء حوله حتى اتصلت به المنازل، لدرجة أن المبانى الخاصة قد فصلت ما بين المسعى وبين المسجد نفسه، حتى أصبح المسعى عبارة عن طريق ضيقة، تقوم على جانبيها المحلات والمنازل، وكانت مساحة المسجد لا تتعدى ۲۹ ألف متر مربع. ولكنه فى عام ۱۹۵۵ م- ۱۳۷۵ ه بُدىء فى التمهيد لأعمال توسعة المسجد، وتحويل الطريق ومجرى السيل فى وقت واحد، فتم هدم جميع المبانى اللازمة فى المرحلة الأولى، ثم حفرت أساسات الجدار الخارجى للتوسعة فى القسم الأكبر من منطقة المسعى، وفى أجياد من جانب المسعى إلى ما يقابل باب أم هانىء. ولكى تتحقق التوسعة كان لابد من ضم المسعى إلى المسجد، وإلغاء الطريق الذى يخترق المسعى وتحويله إلى ما وراء الصفا خارج

ص: ۲۴۹

حدود الحرم.

ولقد بلغ طول المسعى من الداخل ما بين الصفا والمروة ۳۹۵ متراً، ومن الخارج ۴۰۰ م. وعرضه ۲۰ م، وارتفاع طابقه الأول ۱۳ م. أما الطابق الثانى للمسعى الذى خصص للصلاة تابع للمسجد، فبلغ ارتفاعه ۹ م. وأما المبنى القديم فقد أبقى عليه كأثر من الآثر القديمة، وتم تنميق القديم والجديد من جميع الجهات تقريباً.

وتبلغ مساحة الحرم بعد انتهاء أعمال التوسعة حوالى ۱۹۰ ألف متر مربع، ويتسع حالياً لأكثر من ۶۰۰ ألف مصلٍّ. ومن المشاريع المتمّمة للتوسعة مكتبة خاصة للحرم الشريف تسمى مكتبة مكة المكرمة، أختير لها المكان المقابل لباب الملك عبدالعزيز.

وتحت الدراسة الآن عدة مشاريع، أهمها مشروع توسعة المطاف بحيث تعادل مساحته ضعفى المساحة الحالية، ومشروع تكييف المطاف، ومشروع توسعة زمزم مع تكييف منطقة البئر وتبريد مياهه.

وعلى الرغم من ضخامة المشاريع الجارى تنفيذها أو المقترحة، فإن الباحث يرى بعض الاقتراحات التى يمكن إجمالها فيما يلى:

۱- فيما يختصّ بالحرم نقترح عمل توسعة جديدة له بما يعادل نصف مساحته الحالية على الأقل لمواجهة الأعداد المتزايدة من الحجاج أو المعتمرين، خاصة وأن هناك مساحات من الأراضى المجاورة التى يمكن استخدامها فى التوسعة المقترحة.

كما نرى ضرورة توسعة الشوارع المحيطة بالحرم والتى تشهد فى موسم الحج ازدحاماً كبيراً بسبب عرقلة حركة المرور بالمنطقة، ويمكن هنا إنشاء بعض الشوارع العلوية مما يحقق سيولة الحركة بالمنطقة.

۲- فيما يختصّ بمدينة مكة المكرمة نقترح سرعة الانتهاء من إتمام مشاريع الصرف الصحى بالمدينة، وتوصيل مياه الشرب إلى المنازل عن طريق المواسير

ص: ۲۵۰

بـدلًا من اسـتخدام الوايتات أو السـقايين، وهـذا يساعـد على الحـدّ من انتشار الأمراض والأوبئة خاصة فى‌موسم الحج، حيث يأتى إلى المدينة حجاج من مختلف الجنسيات والبيئات.

كـذلك نقترح إعـداد تخطيـط جديـد للمدينـة ككـل، يتمشـى مع متطلبات المدينـة الحديثـة ويحافظ على آثارها الإسـلامية القـديمة وطابعها المميز فى نفس الوقت.

ونقترح أيضاً ضرورة البحث عن مصادر جديدة للمياه لمواجهة احتياجات السكان المتزايدة ومشاريع التعمير.

كـذلك يجب الاهتمـام بإنشـاء الفنادق والمساكن، سواء على أطراف المدينـة أو فى منى؛ لاستيعاب أكبر عـدد من الحجاج، والتقليل قدر الإمكان من استخدام الخيام منعاً للحرائق والأمراض.

ص: ۲۵۱

رمزية حجّة إبراهيم عليه السلام فى التاريخ

عبدالمجيد معاديخواه

رمزية أم القرى

كم هى حافلة بالأسرار والرموز هذه الأرض الجافة والمحرقة، أرضٌ تقع فى وادٍ لا يرتفع عن سطح البحر أكثر من ۳۰ متراً، وعلى خطّ العرض ۲۱ درجة و ۲۸ دقيقة، وخطّ الطول ۴۰ درجة و ۹ دقائق مكة التى سمّتها أدبيات القرآن الكريم ب «بكة» (۱) ولقبتها باسم (أم القرى) وما فيه من أسرار تثير الأسئلة (۲)، فى وادٍ ضيّق تحيط به الجبال من كل ناحية. وكأن الطبيعة تريد أن تترك فى نفس كل ناظر إظهار ما تتمتع به هذه الأرض من أمن!

قد لا نستطيع أن نجد حدثاً تاريخياً يوازى بالأهمية من بين الأحداث التى شهدتها مكّة على مرّ التاريخ، حدث نزول القرآن الكريم، على‌الرغم من أن كل تلك الأحداث تستحق التوقف عندها، بحيث نرى أن الزمان والمكان قد توافقا، وبتقديرٍ إلهى، لاحتضان أهم حدث يجمع بين مكة ورمضان مع المعجزة الخالدة

۱- آل عمران: ۹۶.

۲- الأنعام: ۹۲.

ص: ۲۵۲

لأعز أبناء مکهٔ وهویهٔ الکتاب المقدس.

هنا سأسعی- وبالاستفادهٔ من نحو مائهٔ آیهٔ قرآنیهٔ- للإطلالهٔ علی موقع مکهٔ ودورها من رؤیهٍ قرآنیهٔ.

رمز شرف مکهٔ وعزتها

یمکن القول- و من دون تردد-: إن الذی میّز مکهٔ، هذه الأرض الملیئهٔ بالأسرار، وأعطاها الشرف الرفیع بالمقارنهٔ مع أیّ أرض مقدسهٔ أخری، لم یکن سوی وجود الکعبهٔ المکرمهٔ فیها، إضافهً إلی أنّها المکان الذی ولد فیه خاتم‌الأنبیاء صلی الله علیه و آله الذی یعدّ بنفسه میزهً لا یمکن التغاضی عنها:

«لا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ* وَ أَنْتَ حِلٌّ بِهذَا* الْبَلَدِ وَ والِدٍ وَ ما وَلَدَ» (۱)

ولست هنا، فی صدد الحدیث حول ما دار من آراء وشکوک، ولکن أشیر إلی دور الکعبهٔ والمسجد الحرام فی تمیّز مکهٔ، وبتعبیر أوضح، العمل علی تصفیتها من آراء الشک والتردید. علی‌الرغم من أن لهذه الأرض ممیزات أخری لا یجب الاستخفاف بأیّ منها، خصوصاً ولادهٔ حضرهٔ الرسول صلی الله علیه و آله الذی طهّر مکهٔ والکعبهٔ من لوث الشرک، وأعلن الکعبهٔ رایهٔ الإسلام الدائمهٔ، وقد توقفت عند هذه المیزهٔ علی وجه التحدید؛ لأن القرآن الکریم قد أکد علیها بوضوح، وإذا ما أغضینا النظر عن هذه النقطهٔ، فإنّنا لا نقلّل لأیّ سبب من قیمهٔ الامتیازات الأخری لمکهٔ، من هبوط آدم علیه السلام، إلی هجرهٔ إبراهیم علیه السلام وهاجر علیها السلام، وولادهٔ إسماعیل علیه السلام، والأخبار المتعلقهٔ بتضحیته، وصولًا إلی البعثهٔ النبویهٔ ونزول القرآن الکریم.

لا أرید أن أحوّل هذا الموضوع أو البحث القرآنی إلی موضوعٍ سیاسی، ولیس لدیّ دوافع فی هذه الفرصهٔ لأربطه بتقییم الحضارهٔ الغربیهٔ فی الدفاع عن

۱- البلد: ۱- ۳.

ص: ۲۵۳

حقوق الإنسان؛ لأن بحث هذه المسائل وتقییم عمل القوی الغربیة الغاشمة فی هذا الإطار یختلف وله مجاله المختلف.

علی الرغم من ذلـک، عنـدما نتأمـل فی دور الکعبـة ومکّـة من وجهـة نظر القرآن الکریم لا ـ یمکننا التغاضـی عن الآیـة التی تحـدّثت بصراحة عن أنّ أول مرکز قام أو أسّس علی فلسفة حمایة حقوق الإنسان هو بیت اللّه وبشکل یشمل العالم کلّه.

أرید أن ألفت النظر لمسألة واضحة، حیث نری اختلافاً واضحاً بین الآیات التی تتحدث عن المسؤولیات المتعلّقة بالکعبة، بالمقارنة مع الآیـات التی تتحـدث عن التکـالیف، مثل الصـلاة والصیام والزکاة والجهاد؛ إذ إن مخاطب القرآن الکریم فی مثل هـذه التکالیف هم المؤمنون، فیما المخاطب فیما یتعلّق بالحج والکعبة هم الناس:

«إِنَّ أَوَّلَ بَیْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ...» (۱)

«وَ لِلَّهِعَلَی النَّاسِ حِجُّ الْبَیْتِ...» (۲)

«جَعَلَ اللَّهُ الْکَعْبَةَ الْبَیْتَ الْحَرامَ قِیاماً لِلنَّاسِ...» (۳)

«وَ إِذْ جَعَلْنَا الْبَیْتَ مَثابَةً لِلنَّاسِ وَ أَمْناً...» (۴)

لا أریـد هنا أن أبنی هذا البحث القرآنی علی الاسـتحسان الذوقی، لکن لابد أن أتوجّه إلی الباحثین والعلماء الإسـلامیین لأسألهم: هل من الممکن عـدم الاعتقاد بوجود حکمة من وراء کل هذه التأکیدات المتکررة للقرآن الکریم؟ إن البحث الدقیق حول هذه الملاحظة والجواب الأکثر إتقاناً علیهـذاالسؤال یکمن فی التقسیم الدقیق لمخاطبی القرآن الکریم؛ فأحیاناً یکون الناس هم المخاطبون، وأحیاناً أخری المؤمنون، ومرةً أهل الکتاب، وتارةً الیهود والمشرکون، إلی جانب المخاطبین

۱- آلعمران: ۹۶.

۲- آلعمران: ۹۷.

۳- المائدة: ۹۷.

۴- البقرة: ۱۲۵.

ص: ۲۵۴

الخاصّین، وخصوصاً المجموعةالعظیمة من الآیات التی تخاطب شخص الرسول صلی الله علیه و آله.

فی هذه العجالة، لا یمکن التطرّق إلی الأسئلة والأجوبة، التی وضمن النظرة التطبیقیة، تفترض التعاطی مع کمّ هائل من الآیات التی لکلّ مجموعةٍ منها مخاطب أو مخاطبین خاصّین، مع ذلک، أعتقد- وبالتوقف أمام الآیات المتعلقة بالکعبة ومکّة و فلسفة الحج- أننا ندرک بوضوح أن وجودهما أوسع وأبعد من مصالح و منافع العالم الإسلامی، وتدخل فیهما مصلحة الإنسان بشکل عام.

وأکتفی هنا بما تمّت الإشارة له فیما سبق، علی أمل أن یستطیع العلماء الکبار والمفکرون الملتزمون فی العالم الإسلامی یوماً القیام بهذا الدور اللائق بهم.

کیف یمکن القبول بهذا الهوان، بأن یتولّی آخرون الدفاع عن حقوق الإنسان وأن یحقروا العالم الإسلامی أحیاناً؟ ألا یجب علی العالم الإسلامی أن یعلن مرفوع الرأس أن أوّل مرکز بنی علی أساس الدفاع عن حقوق الإنسان هو فی أرضٍ مبارکةٍ اسمها مکة؟ ألا یجب أن نسعی للتذکیر بهذه الحقیقة المنسیة وأن ندفع ضریبة ذلک حتی؟

الخبز والأمن للجمیع

أتوقف هنا عند مسألة جاءت فی دعاء إبراهیم علیه السلام خلیل اللّه، محطّم الأصنام الکبیر وبانی الکعبة، الذی طلب من ربّه فی دعائه أن یوفّر الأمن والرزق لجمیع المؤمنین الذین سیعیشون فی مکة، وفی جوابٍ علی دعائه، نتوقف عند نقطة لا یجب التجاوز عنها ببساطة:

«وَ إِذْ قالَ إِبْراهِیمُ رَبِّ اجْعَلْ هذا بَلَداً آمِناً وَ ارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَراتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ قالَ وَ مَنْ کَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِیلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلی عَذابِ النَّارِ وَ بِئْسَ الْمَصِیرُ» (۱).

۱- البقرة: ۱۲۶.

ص: ۲۵۵

فى القراءة الدقيقة لهذه الآية، نرى أن إبراهيم الخليل عليه السلام قد طلب الرزق لجميع الذين يعتقدون باللّه وباليوم الآخر، ومن دون شك، فإن اللّه فى الردّ على دعاء خليله قال: حتى الكافرين منهم، لن أمنع عنهم الرزق، وهذا ما يستدعى التأمل والتفكير الكبيرين، وهنا أكتفى بما ورد وأشير إلى أنّه كلما ذكر دور مكة تمّ التأكيد على موضوع الأمن، وحلّ مشكلة الجوع أكثر من مرة، وهذا ما نشاهده فى سورة قريش بتعبير واضح:

«فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هذَا الْبَيْتِ* الَّذِى أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ» (۱).

أعتقد أن الجوع والخوف من أهم المشاكل التى تواجهها أية حضارة، والأدبيات القرآنية أكّدت على هاتين المقولتين باعتبارهما وسائل تدخل فى خدمة السياسة والثقافة الشيطانية:

۱- قريش: ۳- ۴.

ص: ۲۵۶

«الشَّيْطانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَ يَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشاءِ...» (۱).

إن الحكومة الشيطانية استغلّت حالات الفقر والجوع من أجل استعباد الإنسان، وإذا ما استطعنا القضاء على الفقر والخوف فى العالم، فلن يعود هناك مكان للظالمين وتجبّر الفراعنة، إذ إن توفير الأمن والرزق الكثير ينتهى بالقضاء على سلطة فرعون وقوّته.

أعتقد أنّه كلّما نظرنا إلى أسباب ونتائج الفقر والخوف من رؤية قرآنية فإننا نتوقف أمام مكة الّتى امتازت بالأمن وكثرة الرزق بشكلٍ مختلف، وفى هذه النظرة، يأخذ الأمن والرزق الكثير فى هذه المدينة المقدسة- حول الكعبة- مفهوماً رمزياً لا تحدّه أرض!

أبعاد الأمن فى أرض مكّة وحرمها

لا بد قبل طرح مسائل أخرى حول مكة والكعبة، أن أشير إلى ضرورة عدم اعتبار أمنها مسألةً بسيطة؛ لأن أمن هذه الأرض ملىء بالأسرار والرموز؛ إذ يشمل ما هو أبعد من الإنسان والحيوان، وبغض النظر عن كلّ الأسئلة الفقهية، أستذكر الآيات التى تحذّر كلّ محرم من صيد أىّ حيوان، وتفرض على كل مرتكب لمثل هذا الجرم عقوبةً:

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعامِ إِلَّا ما يُتْلى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى الصَّيْدِ وَ أَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ ما يُرِيدُ* يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعائِرَ اللَّهِ وَ لَا الشَّهْرَ الْحَرامَ وَ لَا الْهَدْىَ وَ لَا الْقَلائِدَ وَ لَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَ رِضْواناً وَ إِذا حَلَلْتُمْ فَاصْطادُوا وَ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ أَنْ تَعْتَدُوا...» (۲).

۱- البقرة: ۲۶۸.

۲- المائدة: ۱- ۲.

ص: ۲۵۷

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَ أَنْتُمْ حُرُمٌ وَ مَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزاءٌ مِثْلُ ما قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْياً بالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعامُ مَساكِينَ أَوْ عَدْلُ ذلِكَ صِياماً لِيَذُوقَ وَبالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَ مَنْ عادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ» (۱).

مشاهد الحج المتكررة

فى الحـديث عـن الشـعائر المتعلقـة بمكـة وتمايزهـا عـن العـالم الإسـلامى لاحتضانهـا الكعبـة ماجعلهاتشـهد طـوال السـنةحضور ملايينالأشخاص العاشقين، وأىّ مكانٍ للعبادة يمكن مقارنته بالكعبة، بحيث يطوف حوله العاشقون طوال السنة؟ ولا يترك الطائفون تطوافهم سوى خمس مرات- عند إقامة الصلوات الخمس- ليفسحوا المجال أمام المصلّين.

لاحقاً، وفى الجزء المخصص ل (القبلة)، سأذكر علاقةً أخرى بين مكة والكعبة مع العالم، إذ لا مجال لذكرها هنا.

إن الحديث هنا عن ملايين العاشقين الذين- وتلبيةً لدعوة إبراهيم عليه السلام- يبتعدون عن بيوتهم وأوطانهم ويسارعون نحو مكّة.

«وَ إِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَ طَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْقائِمِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ* وَ أَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالًا وَ عَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ* لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَ يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ فَكُلُوا مِنْها وَ أَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِيرَ* ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَ لْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَ لْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ» (۲).

تأمل فى التضحية

كتب الكثير عن فلسفة الحج، وقد سعى مفكّرون كُثُر لإزاحة اللثام عن الأسرار المجهولة للحج! لذلك لم أدخل هنا فى هذا الجانب، لأشير إلى المشهد

۱- المائدة: ۹۵.

۲- الحج: ۲۶- ۲۹.

ص: ۲۵۸

العظيم للحج الذى تشهده مكّة كلّ سنة كما لو أنّه المحشر.

فالحضور المتكرر لملايين الموحّدين فى هذه الشعائر العظيمة، يساعد على إيجاد الترابط بين الأجيال والعصور، وأحياناً يبرزه، وهو الذى استمرّ من عصر إبراهيم عليه السلام إلى يومنا هذا، وسيستمرّ فى المستقبل، احتفالٌ للدفاع عن الحق ورفض الظلم على طول التاريخ، لا يمكن أن يتراجع أو ينكسر أو يهزم، ومكّة من زاوية النظر هذه محيطٌ عظيم، تتحوّل إلى طوفان مع كلّ فصلٍ للحج، وتفتح أفقاً واضحاً أمام المفكّرين؛ أفق واضح يبشر باليوم الذى سيختبر فيه الإنسان حياةً أخرى ينتشر فيها الأمن، ولا يستسلم أىّ إنسان فيها أمام الظالمين بسبب الخوف والجوع!

أكتفى بهذا القدر عن مناسك الحج؛ لأشير إلى نقطة تتعلّق بالتضحية؛ ففى فلسفة التضحية، لا يجب أن ننسى البعد القرآنى فى الإشارة لموضوع التضحية فى حياتنا اليومية، إذ علينا التفكير فى رمزية الامتياز الذى أعطى لنا بالتضحية بالحيوانات لتأمين ما نحتاجه.

بتعبير أوضح، يجب أن نسأل أنفسنا: كيف أن الإنسان يعطى لنفسه الحق أن يضحّى بالحيوانات فى سبيل تغذية نفسه؟

لا ـ يجب العبور عن هذا السؤال عبور الكرام؛ لأن منطق أولئك الذين يرفعون شعار حقوق الإنسان ويصرّون على فصله عن علاقته بالاعتقاد الذى يتجاوز الإنسان، أعتقد أنّهم هنا يواجهون مشكلة.

من دون أن أدخل فى مسائل لا علاقة لها بالموضوع مباشرةً، أشير إلى الآية الأولى من سورة المائدة التى تتضمّن عدة عبارات، لا يبدو أنّ هناك رابطاً بينها ظاهرياً:

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعامِ إِلَّا ما يُتْلى عَلَيْكُمْ...».

ص: ۲۵۹

ما هی العلاقة بین التأکید علی الوفاء بالعقود وبین جواز تغذّی الإنسان من لحم البهائم؟ ألا یعتبر هذا الحدس منطقیاً أو عقلیاً، أی إن الأرضیة لمشروعیة التضحیة بالبهائم- فی سبیل تأمین حاجات الإنسان الغذائیة- لیست سوی امتیاز الإنسان المؤمن أو الملتزم؟

بتعبیر أوضح، إنّه امتیاز الإنسان الملتزم بالعهد الذی ارتقی به إلی مستوی أعلی جعل من التضحیة بالمخلوقات الأخری من أجله مشروعاً وعقلانیاً.

أری أنّنا- ومن أجل البحث حول مثل هذه الأسئلة والأجوبة المعقّدة- بحاجة إلی فرصةٍ أوسع، ومع ذلک، فالدافع الذی حدا بی للإشارة إلی هذه النقطة، التذکیر بأسرار ورموز فی فلسفة التضحیة التی لم أر حتی الآن أنّ أحداً من المفکّرین قد تطرّق إلیها.

کلّما نظرنا إلی العلاقة بین التزام الإنسان وامتیازه- فی أکل اللحم- من هذه الزاویة، نجد فرصةً جدیدة أو أخری للنظر إلی عید الأضحی ومراسم التضحیة، وفی هذه النظرة، عید الأضحی هو أیضاً احتفال بأکل اللحم! لیس من أجل التلذذ بطعمها، بل من أجل التذکیر بالمکانة الرفیعة للإنسان.

لکن لا- یجب أن ننسی أنّه إذا کنا نحتفل بمشروعیة التغذیة بلحم البهائم- کدلیلٍ علی علوّ الإنسان- فیجب أن نعلم أن هذا العلوّ مرتبط بالتزام الإنسان! الالتزام الذی یفرض علیه احترام حقوق الآخرین، وأکل اللحم لا- یمکن فصله عن إطعامه للجائعین، ومن الممکن أن یکون هذا سبباً فی أن الآیات القرآنیة علی الدوام- فیما یتعلّق بالتضحیة- قد تحدثت عن أکل اللحم مقروناً بإطعامه للجائعین.

«وَ لِکُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَکاً لِیَذْکُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلی ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِیمَةِ الْأَنْعامِ فَإِلهُکُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَ بَشِّرِ الْمُخْبِتِینَ* الَّذِینَ إِذا ذُکِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَ الصَّابِرِینَ عَلی ما أَصابَهُمْ وَ الْمُقِیمِی الصَّلاةِ وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ یُنْفِقُونَ* وَالْبُدْنَ جَعَلْناها لَکُمْ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ لَکُمْ فِیها خَیْرٌ فَاذْکُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَیْها صَوافَ

ص: ۲۶۰

فَإِذا وَجَبَتْ جُنُوبُها فَکُلُوا مِنْها وَ أَطْعِمُوا الْقانِعَ وَ الْمُعْتَرَّ کَذلِکَ سَخَّرْناها لَکُمْ لَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ* لَنْ یَنالَ اللَّهَ لُحُومُها وَ لا دِماؤُها وَ لکِنْ یَنالُهُ التَّقْوی مِنْکُمْ کَذلِکَ سَخَّرَها لَکُمْ لِتُکَبِّرُوا اللَّهَ عَلی ما هَداکُمْ وَ بَشِّرِ الْمُحْسِنِینَ» (۱).

العلامات والرموز فی أرض مکهٔ

التضحیهٔ- التی ذکرت بوصفها من شعائر اللَّه- حالُها کباقی مناسک الحج الأخری التی یعتبر إحیاؤها دلیلًا علی القلوب المفعمهٔ بالتقوی، بلا شک فإن کل واحدهٔ توحی بمفاهیم سامیهٔ أبعد من أی لون من ألوان الارتباط أو التعلق، إلهیهً وغیر محدودهٔ (أو لا یمکن حدّها)! فما یجری أیام عید الأضحی فی منی یعبّر عن ثقافهٔ تبرز فی سورهٔ المائدهٔ؛ ثقافهٔ الالتزام والمسؤولیهٔ فی العلاقهٔ بالآخرین والابتعاد عن النظرهٔ الضیقهٔ والتفرد الذی یجعل قسماً من عباد اللَّه محرومین من المائدهٔ الواسعهٔ لنعمه.

وکلما کنا غیر غرباء عن هذه الثقافهٔ وأدرکنا منطقها جیداً، فإن علینا إعادهٔ النظر فی وضعنا الحالی، فطالما نشاهد علامات الجوع والخوف والتمییز الظالم والفشل الإنسانی فی العالم الإسلامی، فإن علینا الاعتراف بالغربهٔ عن ثقافهٔ الحج! لا یمکن القبول فقط بأن نسوق أعداداً کبیرهٔ من الأضاحی إلی المذبح.

بلا شک، إن مراسم احتفال الأضحی العظیم من المفاخر الکبری للعالم الإسلامی، وتعطی الدلیل علی الحضارهٔ والثقافهٔ المغایرهٔ للخوف والجوع.

من خلال التوقف أمام سورهٔ المائدهٔ والرسائل المحوریهٔ لها- المنعکسهٔ أیضاً فی اسم السورهٔ- لا یبقی مجال للتردّد أو الشک، إن مشروعیهٔ تغذیهٔ الإنسان من لحم المخلوقات الأخری مرتبط بالالتزام، أفهل یعقل أن یوجد إنسانٌ متدین وملتزم بلا موقف فی مقابل جوع الآخرین؟

۱- الحج: ۳۴- ۳۷.

ص: ۲۶۱

إن مائدة النعم الإلهية واسعة ومليئة بالنعم والخيرات، لدرجة أنّه إذا لم يتطاول عليها المتسلّطون الأنانيون ويضيّقوا المكان أمام الآخرين، فلا إمكان أن نشاهد ضائقة أبداً، أناساً إلى جانب هذه المائدة يجترّون مرارة الجوع!

نتجاوز عيد الأضحى ومنى والهدى، نقول: هناك فى كل أنحاء مكة علامات جلية لا يجب العبور عن رمزيتها وأسرارها ببساطة! مقام إبراهيم عليه السلام، موطىء أقدام بانى الكعبة العظيم- فى إعادة بنائها- كلّها تشى بعلوّ مكانة الإنسان؛ فعندما يتحدّث القرآن الكريم عن العلامات الجلية للّهفى أرض مكة، فإنّنا بلا شك ندرك خصوصية مقام إبراهيم عليه السلام وكأنّه أبرز العلامات التى توحى بالعلاقة الحميمة بين اللّه وهذا البحّاثة المميز عنده، وهنا يواجه العقل سؤالًا وهو:

ما هى الحكمة والفلسفة من تأكيد القرآن على مقام إبراهيم عليه السلام؟ ولماذا نحن مطالبون- بعد الطواف حول الكعبة- بالصلاة بالقرب من هذا المقام؟

«وَ إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثابَةً لِلنَّاسِ وَ أَمْناً وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى» (۱).

لا أريد أن أتطرق مرّةً أخرى إلى جزء من فلسفة الحج، وما أستذكره هنا مجبراً، الضرر الذى تسبّبه الغفلة والتفكير المبسط الذى نرى آثاره فى تصرفاتنا، ألا يجب علينا أن ننتقد تصرفاتنا المتحجرة، التى تدفعنا إلى التكلّف والألم- نحن والآخرين- عند الصلاة بالقرب من مقام إبراهيم من دون أن يكون لدينا همّ التأمل فى هذه العبارة القرآنية!

من دون شك ليس هناك خوف إذا حدث أثناء الحج- فى الصلاة بعد الطواف- أن ابتعدنا عدّة أقدام عن مقام إبراهيم عليه السلام، فالخوف الكبير هو من الغفلة التى بسببها ابتعدنا فراسخ عن مقام إبراهيم عليه السلام من دون أن نهتمّ أو يكون لدينا همّ ذلك!

۱- البقرة: ۱۲۵.

ص: ۲۶۲

التأکید المتکرّر للقرآن الکریم فی اتّباع دین إبراهیم علیه السلام، یدلّل علی الاهتمام بتعمیم وتعمیق ثقافهٔ إبراهیم علیه السلام:

«وَ مَنْ یَرْغَبُ عَنْ مِلَّهِٔ إِبْراهِیمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَ لَقَدِ اصْطَفَیْناهُ فِی الدُّنْیا وَ إِنَّهُ فِی الْآخِرَهِٔ لَمِنَ الصَّالِحِینَ، إِذْ قالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعالَمِینَ» (۱).

عندما أتحدّث لاحقاً عن مکّهٔ سأرکز علی خاصیّهٔ وجود قبلهٔ المسلمین فیها، وسأذکر خصائص أخری عن دین إبراهیم علیه السلام وثقافته، أمّا الآن فأتوقف عند الإشارهٔ إلی نقطهٍ حول الصفا والمروهٔ.

موطیء أقدام السیدهٔ الکبیرهٔ بالقرب من الکعبهٔ!

بالتأمل فی شعیرهٔ الصفا والمروهٔ والسعی بینهما بعد الطواف، ألا یمکن الوقوف علی محصّلهٔ: أن القرآن الکریم فی ثقافته وأدبیاته لم یحصر القیم الإنسانیهٔ فقط بالرجل!

«مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَکَرٍ أَوْ أُنْثی وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْیِیَنَّهُ حَیاهًٔ طَیِّبَهًٔ...».

إذا کان الاختلاف فی الجنس قد أوجد الأرضیهٔ للاختلاف فی دور المرأهٔ والرجل، فلا یوجد أیّ اختلاف بین الجنسین إذا أردنا الاستفادهٔ من نبع الحیاهٔ الصادق! ففی مکهٔ، نشاهد مقام إبراهیم علیه السلام علی بُعد خطواتٍ من الکعبهٔ، وعلی بعد خطواتٍ أخری، نشاهد الصفا والمروهٔ التی تذکّر بسعی الأم التی ربّت إسماعیل فی حضنها.

«إِنَّ الصَّفا وَ الْمَرْوَهَٔ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَیْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُناحَ عَلَیْهِ أَنْ یَطَّوَّفَ بِهِما...» (۲).

ألا یمکننا أن نجد فی هذا التعبیر القرآنی الذی استخدم الطواف للتعبیر عن

۱- البقرهٔ: ۱۳۰- ۱۳۱.

۲- البقرهٔ: ۱۵۸.

ص: ۲۶۳

السعى دليلًا على اهتمام القرآن الكريم واحترامه لجهد تلك السيدة العظيمة؟ وبما أنّنى آليت على نفسى أن ألتزم بحدود ما جاء فى القرآن الكريم، أجد نفسى مجبراً على التغاضى عن الإجابة على مثل هذه الأسئلة، وعلى‌الرغم من ذلك، أغتنم الفرصة لأردّ على المشكّكين الذين يتهمون الإسلام والقرآن الكريم بالتمييز الجنسى.

وللإشارة، إلى أنّه كلّما تأملنا فى تاريخ الأنبياء فى القرآن الكريم، نواجه حقيقةً مهمة غير معروفة فى السلسلة العظيمة للأحداث، إذ نرى أن نساءاً عظيمات فى لباسٍ من العفاف قد لعبن دوراً مميزاً، أليست سلسلة تاريخ الأنبياء قد أنتجت حلقةً من تاريخ الإسلام بدأ من ثورة موسى بن عمران وصولًا إلى المسيح بن مريم الذى أكملها؟ أليس أيضاً فى تتبع مواطىء أقدام موسى، قد جرى الحديث عن دور الأم التى ربته؟ (۱) والأوضح من ذلك، دور زوجة عمران التى هزّت العرش الإلهى بدعائها! وكانت نتيجته وجود مريم التى أوجدت تحولًا كبيراً! (۲) فى خلاصة ما تمّت الإشارة إليه، يمكن القول: إن الاختلاف الوحيد بين الرجل والمرأة، هو ستر أو حجب دور النساء الكبار اللاتى لم يتواجدن على مسرح الأحداث علناً، قد يكون ممكناً من خلال التفكير العميق فى هذه المسألة، أن نتوصل إلى رمز الإختلاف بين مقام إبراهيم عليه السلام ومواطىء أقدام زوجه التى صنعت تاريخاً أيضاً. ومن دون الإطالة فى هذه النقطة كثيراً، أعتبر أن البحث حول علاقة الصفا والمروة بدور هذه‌المرأة العظيمة من أهم ضروريات البحث والتحقيق.

الحج، رمزٌ لعلاقة الإنسان باللّه

إذا صرفنا النظر عن الأسرار والرموز المعروفة وغير المعروفة لعرفات والمزدلفة والمشعر الحرام ومنى، فى النتيجة يمكن القول: إنّه عندما نقوم بمناسك

۱- القصص: ۷.

۲- آل عمران: ۳۵.

ص: ۲۶۴

الحج على أكمل وجه، يجب أن نرى أنفسنا- بعد إتمامها- فى ظلّ الولاية الإلهية.

«أَلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُوماتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَ لا فُسُوقَ وَ لا جِدالَ فِي الْحَجِّ وَ ما تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَ تَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى وَ اتَّقُونِ يا أُولِي الْأَلْبابِ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرامِ وَ اذْكُرُوهُ كَما هَداكُمْ وَ إِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفاضَ النَّاسُ وَ اسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ فَإِذا قَضَيْتُمْ مَناسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آباءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا وَ ما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَ قِنا عَذابَ النَّارِ أُولئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسابِ» (۱).

لا أريد هنا أن أتناول جميع النقاط التى وردت فى هذه الآيات من القرآن الكريم حول الحج، فالحديث هنا عن انتهاء مناسك الحج، عندما يبدأ حجاج بيت اللّه بالعودة، لقد كانت قريش فى الجاهلية لوّثت مراسم ومناسك الحج بالتمايز الطبقى، وإنّنا نرى بوضوح تأكيد القرآن الكريم المكرّر على المساواة- خصوصاً فيما يتعلق بالكعبة- ولندع مسألة كم لحق بمفهوم المساواة الذى كان أحد شعارات الرسول صلى الله عليه و آله الأساسية والمحورية من أضرار أثناء الفتن فى التاريخ الإسلامى!

أختصر تشعبات هذا البحث فى نقطة وهى: إن القرآن الكريم قد ذكّر الحجاج بكثيرٍ من الصراحة والشفافية أنّه عند الإنتهاء من مناسك الحج يجب أن يُشعِروا أنفسهم وكأنهم فى فضاء ولاية اللّه، وفى الحدّ الأدنى أن يعتبروا علاقتهم باللّه مثل علاقة الولد بوالده، وإذا طبقنا الحج على هذا المستوى فلا يمكن تسويغ قبول العالم الإسلامى بنفوذ وتسلّط الآخرين!

كيف يمكن القبول بأن لا يعمد ممثلو الملايين من العالم الإسلامى- بعد انتهاء

۱- البقرة: ۱۹۷- ۲۰۲.

ص: ۲۶۵

مناسك الحج- إلى اختبار الولاية الإلهية، ومن دون أن يخطو خطوات جدية على طريق كسر العلاقة مع الولاية الشيطانية؟

هذا السؤال الانتقادى، لا يعنى عدم القول بأىّ اعتبار لدور الحج فى الظروف الحالية، نحن نفتخر حتى الآن بعظمة الحج ونرفع رؤوسنا، أنّ قبلة المسلمين- طوال السنة- تبقى كمثل الجوهرة يطاف حولها وخصوصاً فى مراسم الحج، وكأن عرش اللّه صار على الأرض، وأن ملايين المؤمنين العاشقين- كالفراشات- يدورون حوله، مع ذلك، لا يمكن الإغضاء عن الفرق بين الحج المطلوب والحج الموجود! وإذا ما قارنّا حجّنا بالمعايير القرآنية، عندها يجب أن نسأل أنفسنا، هل نحن نعيش فى فضاء الولاية الإلهية؟ ألا يثقل ظلّ الولاية الشيطانية على العالم الإسلامى؟

مكة ومكانة قبلة المسلمين

بعيداً عن مناسك الحج، نجد أن أرض مكة قد امتازت بشىء آخر- كما ورد فى القرآن الكريم- فإذا اعتبرنا أن عدد الذين يطوفون حول الكعبة بالمقارنة مع مؤمنى العالم الإسلامى يعتبر قليلًا، فإن للكعبة، إلى جانب الحج، علاقة أخرى مع المسلمين لا تقبل الحد!

ص: ۲۶۶

كل يوم يتجه مئات ملايين المسلمين معاً خمس مرات نحو الكعبة، لا أريد هنا أن أناقش ما يتعلق بالقبلة فى هذه العجالة، لكن الذى لا بد من الإشارة له هو غفلة الكثير من المسلمين المصلّين عن دور القبلة.

فإذا تأملنا فى الآيات القرآنية المتعلّقة بالقبلة بشىء من الدقة، لا شك أنّنا سنخجل وننكس الرؤوس من النظرة السطحية والبسيطة! لأن منطق القرآن الكريم يرى أن كل مجتمع أو حضارة بحاجة إلى قبلة تحدّد بها هويته، قال تعالى:

«وَ لَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ بِكُلِّ آيَةٍ ما تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَ ما أَنْتَ بِتابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَ ما بَعْضُهُمْ بِتابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ...» (۱).

ومع أن الحديث فى هذه الآية عن قبلة المؤمنين، لكن يبدو أن هوية كلّ واحدٍ من المجتمعات يرتبط بقبلة محددة وخاصّة به، بحيث إن أيّاً منهم لا يقبل بقبلة الآخر.

ولكن عندما نتأمل فى مجموع الآيات المتعلّقة بتحويل القبلة وفلسفتها، لا شك أنّه لا يمكن القبول بعدم وجود دور للقبلة فى توحيد اتجاه المعتقدين بها فى أىّ مجتمعٍ أو حضارة، وأعتقد أن هذا السبب هو الذى جعل القرآن يعبّر فى آيةٍ أخرى عن القبلة بتعبيرٍ أشمل وهو (الوجهة):

«وَ لِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيها فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ...» (۲).

من دون شك، يبدو من غير الممكن إيجاد مجتمع أو حضارة من دون توحيد أفرادهما حول هدفٍ خاص، كلّ حضارة ومجتمع لا بد أن يكون لديه أهداف مشتركة يجب تبلورها فى رمزٍ ما. والآن أين نجد حضارةً فى التاريخ توحّدت حول

۱- البقرة: ۱۴۵.

۲- البقرة: ۱۴۸.

ص: ۲۶۷

رمز؟ إلى الآن- وبعد قرون- نجد أن الكعبة قد وحّدت نحوها أجيالًا لا يمكن إحصاؤها! أىّ أرض يمكنها أن تفخر بأن يكون لديها مثل هذه الرمزية؟

مع ذلك، يجب أن نتوافق مع هذا السؤال الانتقادى أو المنتقد: ماذا حدث لنا- وعلى الرغم من أن لدينا مثل هذا الرمز الذى نتجه نحوه- نعانى من التفرق؟

هذا الألم مع من يمكننى أن أطرحه غير نفسى، بحيث إن كل يوم ولخمس مرات يقوم أكثر من ربع سكان الأرض بالتوجه نحو القبلة من دون أن نستطيع الاستفادة أو من دون أن نبذل أى جهد فى هذا التوحّد العظيم!

الثمن الكبير لتحويل القبلة

كما أسلفت الذكر، لا أعتقد أن الفرصة هنا تسمح بالتطرّق إلى الموضوعات الكثيرة حول القبلة؛ لأن الحديث عن ميزة أو امتيازات أرض مكّة فى القرآن الكريم أو من خلاله، والتى يسطع فيها حرمٌ هو أفضل قبلةٍ للمؤمنين لا يتسع له الحديث هنا! ولولا عددٌ من المتصدين غير الصالحين للأديان، وما يعانون منه من العناد والانفراد أو التفرد، لن يكون أفضل من أن تجتمع كلّ الأديان والمؤمنين بها حول هذا البيت الذى يعتبر تذكاراً من إبراهيم الخليل عليه السلام، الرسول الذى يعتبر الأب الكبير لكلّ الأديان ولا يداخله أىّ لون من اليهودية أو النصرانية.

«ما كانَ إِبْراهِيمُ يَهُودِيّاً وَ لا نَصْرانِيّاً وَ لكِنْ كانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» (۱).

أعتقد أنّه لا يوجد فى العالم الإسلامى حتى الآن دراسات وأبحاث حول القبلة بشكل ما! فمن دون شك تم إنجاز أعمال قيمة وكثيرة حول هذا الموضوع،

۱- آل عمران: ۶۷.

ص: ۲۶۸

لكن مع ذلك هناك مجال لأعمال جديۀ أكثر، أرى أن إنجازها يتعلّق بمشاركۀ مفكّرى العالم الإسلامى، خصوصاً وأن المواجهۀ بين قبلۀ كلّ طرف- لدى الحضارات- يهدد الآن السلام العالمى! لذا نحن بحاجۀ إلى حوار أشمل من العالم الإسلامى.

ما أركّز عليه فى هذه الفرصۀ، هو السعى الذى بذله خاتم الرسل صلى الله عليه و آله على طريق منع الحرب والعنف، مداراۀ أهل الكتاب، والتوجه معهم نحو قبلۀٍ واحدۀ- خلال سنوات من عصر البعثۀ- وهذا ما يستحق التوقف عنده؛ لأن الثمن الكبير والثقيل لتحويل القبلۀ كان عندما وصلت المساعى السلمية إلى طريق مسدود، وهذا ما لم يدْرَك جيداً، وهنا ألفت نظر العلماء الأجلاء إلى سؤال هو:

ألا يوجد علاقۀ بين آيات تحويل القبلۀ (۱) وآيات الجهاد والشهادۀ؟ (۲) الجواب على هذا السؤال يتعلّق بسؤالٍ وجواب آخر: هل يمكن التفتيش أو البحث عن انسجام بين موضوعات القرآن المتفرقۀ ظاهرياً؟

أعتقد أن كل سورةٍ من القرآن الكريم تحمل رسالۀً محددۀ خاصۀ يمكن تلمّس أثرها فى اسم هذه السورۀ، لا يمكن لى هنا أن أتطرق إلى تسويغ هذه العقيدۀ، وأرى نفسى مجبراً على الاكتفاء فقط بالإشارۀ إلى أن الجهاد فى عصر البعثۀ كان- قبل كل شىء- ثمناً لاختيار الكعبۀ كقبلۀ للمسلمين، ويمكن لهذا السبب أن نتوقف عند ما جاء فى الآيات التى تلى آيات تحويل القبلۀ:

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاۀِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ* وَلا

۱- البقرۀ: ۱۲۴- ۱۵۲.

۲- البقرۀ: ۱۵۳- ۱۵۷.

ص: ۲۶۹

تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتٌ بَلْ أَحْياءٌ وَ لكِنْ لا تَشْعُرُونَ»(۱).

لا أصرّ على هذا الاعتقاد، وأرى أن أىّ حكم يجب أن يكون فى إطار الحوار حول أسباب ونتائج تحويل القبلة، وألفت إلى أن مصير أى حضارة على علاقة أو يتبع القبلة التى تتجه نحوها. وفى حوار الحضارات أيضاً، وقبل أى شىء، يجب تعريف قبلة كلّ من الحضارات، وهنا أعود لأشير إلى نقطة كنت قد بدأت بها هذا البحث: إنّه إذا قبلنا أنّ الكعبة هى أول مركز أو مؤسسة قامت للدفاع عن مصالح الناس، عندها يمكننا إدراك إحدى الأسرار المجهولة لتحويل القبلة!

مقارنة القبلتين

أرى أنّه لا بد هنا من الإشارة إلى نقطة تفرض نفسها كلّما تطرق الحديث لموضوع القبلة، وهى المقارنة بين الكعبة والمسجد الأقصى، ويمكن من خلال هذه المقارنة التوصل إلى عدة رموز وإشارات تكشف الاختلاف بين هاتين القبلتين، وأعتقد أنّه لو لم يكن يوجد لدى دعاة التفرد والمتعصبين العرقيين من اليهود خصلة إشعال وتسعير الحروب، فإن مصير هاتين القبلتين كان على غير ما هو عليه الآن.

من الواضح أن البحث فى هذا المجال يمرّ عبر دوائر التاريخ المتعلقة باليهود، وكذلك فإن الإشارة إلى المسائل المتعلقة بهذا البحث لا يتسع لها المجال هنا، وأكتفى بالإشارة إلى أن قسماً من سعى الرسول صلى الله عليه و آله فى عصر البعثة كان يصبّ فى إطار منع المواجهة بين القبلتين، وبما أنّنى ألزمت نفسى فى هذا البحث أن أستعين بالآيات

۱- البقرة: ۱۵۳- ۱۵۴.

ص: ۲۷۰

القرآنیة، فإنّنی أشیر إلی نقطة قرآنیة هی أن القرآن الکریم قد عرّف المسجد الحرام والمسجد الأقصی علی أنّهما مبدأ وانتهاء الإسراء اللیلی للرسول صلی الله علیه و آله:

«سُبْحانَ الَّذِی أَسْری بِعَبْدِهِ لَیْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَی الْمَسْجِدِ الْأَقْصَی الَّذِی بارَکْنا حَوْلَهُ لِنُرِیَهُ مِنْ آیاتِنا إِنَّهُ هُوَ السَّمِیعُ الْبَصِیرُ» (۱).

أری أن مسافة إسراء الرسول صلی الله علیه و آله- أی فی البُعد الأرضی للإسراء والمعراج- قد حدّدت بالفاصلة أو المسافة بین القبلتین، فهل یمکن من خلال التأمل فی مسافة الإسراء التوصل إلی أن فی فلسفة الإسراء لم یتم تجاهل التجارب التاریخیة للأدیان؟ لا یمکن الإجابة علی مثل هذه الأسئلة فی هذه الفرصة. لکن ما أراه واضحاً هو العلاقة بین القبلتین فی أدبیات القرآن الکریم والسیرة النبویة، وبلا تردید إذا لم یکن القیّمون علی الأدیان یعانون من التعصب والتفرد، کان من الممکن إیجاد أرضیة السلام والوحدة من خلال القبول بالکعبة علی أنّها أثرٌ من إبراهیم علیه السلام.

من خلال التأمل فی أکثر من ۲۰۰ آیة فی سورتی: البقرة وآل عمران، یمکننا التوصل إلی نتیجةٍ واضحة حول السبب الذی أوصل مساعی رسول الرحمة صلی الله علیه و آله السلمیة إلی طریق مسدود؟ خصوصاً إذا توقفنا عند رسالة الآیات التی تتحدث عن عمران المساجد وتخریبها.

«وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَساجِدَ اللَّهِ أَنْ یُذْکَرَ فِیهَا اسْمُهُ وَ سَعی فِی خَرابِها أُولئِکَ ما کانَ لَهُمْ أَنْ یَدْخُلُوها إِلَّا خائِفِینَ لَهُمْ فِی الدُّنْیا خِزْیٌ وَ لَهُمْ فِی الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِیمٌ» (۲).

۱- الإسراء: ۱.

۲- البقرة: ۱۱۴.

ص: ۲۷۱

ولا شک أن الحدیث فی هذه الآیات لیس عن التخریب الظاهری للمساجد، إنّما عن تلویث أماکن عبادة اللَّه بالتسلّط والتفرد الجاهلی وعبادة الأصنام، خصوصاً عندما نعید النظر فی الآیات السابقة، نری بوضوح أن القادة الظالمین والمتعصبین یقرّرون أن سعادة الإنسان مرتبطة بهذا الدین أو ذلک؛ فهذا یقول: لا أحد یدخل الجنّة غیر الیهود، وذاک یقول: النصرانیة هی الطریق الوحید للسعادة، وکل من هو غیر نصرانی فهو فی الجحیم، والقرآن الکریم، فی مقابل هذا التضاد، یطرح طریق إبراهیم ودینه الحنیف الذی یتوازن بین کلا الدینین! ألا یشکّل هذا تعبیراً عن مساعی السلام ولقطع الطریق أمام العنف وأبشع حروب التاریخ؟

ومن دون التوقف کثیراً عند هذه النقطة أعود لأؤکد علی مسألة وردت فی الآیة السابقة، فالقرآن الکریم یصف الذین یسعون إلی تفریغ المساجد من محتواها الأصلی ویسعون إلی تخریبها، بأنّهم أشدّ الظالمین، لذا لا یجب التجاوز عن هذا التعبیر العمیق ببساطة! لماذا یعتبر ظلم القادة الدینیین غیر الصالحین أشدّ وطأةً وأثراً من ظلم الظالمین فی التاریخ؟

وهنا أذکر نقطة واحدة هی: کلّما تصفحنا أوراق تاریخ الحروب والعنف برؤیة معمقة، لا یمکن مقارنة أیّ حربٍ مع الحروب الدینیة! فالجروح الناتجة عن التعصب الدینی والتی أصابت جسد الإنسانیة أشد إیلاماً من أی جرح آخر، والیوم عندما ننظر إلی أرض فلسطین، نری أنّها تعانی من قسوة قلبٍ وعداوة لا یمکن إیجاد نظیر لها فی التاریخ یمکن مقارنتها به.

قد یکون السبب الذی منع رسول اللَّه صلی الله علیه و آله من أن یکون له قبلة واحدة مع الیهود هو جور وعداوة القیمین علی المساجد، الذین أفرغوا بیت المقدس من

ص: ۲۷۲

محتواه، دون التقلیل من أهمیة الخصائص التی تتمتع بها الکعبة، هذه الملاحظة تستحق التوقف عندها- المواجهة بین القبلتین- وکأنّها مواجهة بین خطین وثقافتین: خط وثقافة الرسول صلی الله علیه و آله الذی نادی بالعدالة، خط وثقافة قادة أنانیین استغلوا الدین للتمییز! فیما وضع القرآن الکریم مسألة النضال ضد القوی المشرکة علی أنّه رسالة کل الأدیان الإلهیة (۱).

من هنا نری أن تجار الدین قد تولوا أمور بیت المقدس واستغلوا عباد اللَّه کعبید لهم:

«ما کانَ لِبَشَرٍ أَنْ یُؤْتِیَهُ اللَّهُ الْکِتابَ وَ الْحُکْمَ وَ النُّبُوَّةَ ثُمَّ یَقُولَ لِلنَّاسِ کُونُوا عِباداً لِی مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لکِنْ کُونُوا رَبَّانِیِّینَ بِما کُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْکِتابَ وَ بِما کُنْتُمْ تَدْرُسُونَ* وَلا یَأْمُرَکُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِکَةَ وَ النَّبِیِّینَ أَرْباباً أَیَأْمُرُکُمْ بِالْکُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» (۲).

مکة والکعبة فی نظرةٍ تاریخیة

سوف أعمد هنا للحدیث عن المسار التاریخی لمکة والکعبة- من رؤیة قرآنیة- خصوصاً مع الأخذ بعین الاعتبار ما ذکرته عن الضرر الذی لحق ببیت المقدس، وهنا یتسع المجال لهذا السؤال: هل کانت الکعبة بعیدة عن الضرر؟ ألم تتحوّل فی الجاهلیة قبل الفتح إلی بیتٍ للأصنام؟

یمکننا من خلال التوقف عند المسیرة التاریخیة للکعبة أن نوفر أرضیة الإجابة عن مثل هذه الأسئلة، خصوصاً مع التوقف عند التزام إبراهیم و إسماعیل علیهما السلام بتطهیر الکعبة، وأن نتعرف علی أبعاد وجوانب أخری من

۱- آل عمران: ۶۴.

۲- آل عمران: ۷۹- ۸۰.

ص: ۲۷۳

حصانة الکعبة.

قبل الحدیث عن دور الأب والابن فی تجدید بناء الکعبة، یجب الإشارة إلی أن أحد امتیازات الکعبة قِدَم البناء، وأن قدمها یعود إلی ما قبل إبراهیم- کما ورد فی القرآن- وقد لقبت ب (البیت العتیق)، وهنا نشاهد الظل الثقیل للتمییز الذی یسیطر علی دراسات الجامعات الغربیة فی مجال الآثار (الأرکولوجیا)، والذی یتطلّب جهداً حثیثاً لفضحه، ومن المحزن جداً أنّ الکثیر من مفکّری العالم الإسلامی أیضاً تحوّلوا إلی تابعین ومستخدمین لدعایاتٍ تقدّم تحت اسم العلم والبحث، وتصرّ علی تزویر الحقائق التاریخیة بشکلٍ أعمی. وهنا أکتفی بهذا المقدار من دون التوسع فی شرح هذه الفاجعة الثقافیة.

عندما نقارن بین مقدار الأعمال التی أنجزت- فی الأکادیمیات العالمیة المشهورة- حول فلسطین وبیت المقدس، وبین الأبحاث التی جرت حول مکة والمدینة، ألا نشاهد دلیلًا واضحاً علی تآمرٍ لا یبعث فینا الإهتمام؟ وإذا ما قرّرنا یوماً أن نعمل علی إبطال المؤامرات الصهیونیة، فإن علینا الاستعانة بجهود العالم الإسلامی فی ذلک، وإذا کنا الیوم لا نستطیع منافسة الآخرین فی هذا المجال، فإنّنا علی الأقل قادرون علی فضح الأیدی الظاهرة والخفیة للذین یسعون لفرض هویةٍ علی الشعوب والحضارات تتناسب مع مصالحهم وأذواقهم.

علی أیة حال، إن إثبات قدم الکعبة- کعنوان لأول مرکز توحیدی یدافع عن مصالح الناس وحقوقهم- (۱) مرتبط ومترافق مع الجهاد العلمی والثقافی؛ لأن ما نراه فی القرآن الکریم لیس أکثر من تعابیر مبهمة حول قدم الکعبة قبل إبراهیم علیه السلام.

۱- آل عمران: ۹۶.

ص: ۲۷۴

تجدید أو إعادهٔ بناء الکعبهٔ

إذا مـا کـانت الکعبـهٔ- ومن دون شـک، قبـل إبراهیم أیضاً- مکاناً لعبادهٔ اللَّه، إلّا أن أخبارها الواردهٔ فی القرآن الکریم، یزداد عـددها ووضوحها من الیوم الذی ترک خلیل اللَّه علیه السلام جزءاً من عائلته وأولاده فی ظلّها.

«وَ إِذْ قالَ إِبْراهِیمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـذَا الْبَلَدَ آمِناً وَ اجْنُبْنِی وَ بَنِیَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْـنامَ* رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْـلَلْنَ کَثِیراً مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِی فَإِنَّهُ مِنِّی وَ مَنْ عَصانِی فَإِنَّکَ غَفُورٌ رَحِیمٌ* رَبَّنا إِنِّی أَسْـکَنْتُ مِنْ ذُرِّیَّتِی بِوادٍ غَیْرِ ذِی زَرْعٍ عِنْـدَ بَیْتِکَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنا لِیُقِیمُوا الصَّلاهَٔ فَاجْعَلْ أَفْئِدَهًٔ مِنَ النَّاسِ تَهْوِی إِلَیْهِمْ وَ ارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ یَشْکُرُونَ» (۱).

مانشاهـده فی هـذه الآیات بوضوح اعتقاد خلیل اللَّه علیه السـلام بأن أرض مکـهٔ قـد اختیرت کحرم آمن، لکی یوفّر لأبنائه حصانهٔ فی ظلّ الکعبهٔ فی عالمٍ ملیء بالشرک. أکتفی بهذه الإشارهٔ لما ورد فی دعاء إبراهیم علیه السلام تارکاً ما خفی منها؛ فإبراهیم علیه السلام فی أرض مکـهٔ المحرقـهٔ الجافهٔ، کان لدیه رؤیهٔ واضـحهٔ خلال التاریخ، وکان یعقد الأمل علی نسل إسـماعیل علیه السـلام- فی إقامهٔ الصلاهٔ- وکذلک کان فی رؤیته أنّ تحقّق هذا الهدف مرتبط بدعم عواطف الناس.

وفی خلاصـهٔ هـاتین النقطـتین، نری بوضوح أن إقامـهٔ الصـلاهٔ أبعـد من علاقـهٔ خاصـهٔ أو شخصـیهٔ بین الإنسـان وربّه أو اللَّه، إذ إن لها مفهوماً اجتماعیاً وتاریخیاً، وفی غیر هذه الصورهٔ، فما هی الحاجهٔ إذاً للدعم والعواطف؟

لن أتطرّق هنا لقصّـهٔ الهجرهٔ التاریخیهٔ والمؤثرهٔ فی التاریخ، والتی نری فی أماکن مختلفهٔ فی القرآن الکریم آیات تتحدّث عن أبعادها وآثارها، خصوصاً واقعهٔ ذبح

۱- إبراهیم: ۳۵- ۳۷.

ص: ۲۷۵

إسماعیل علیه السلام. فی هذه الأثناء لا یمکن المرور علی دور الأب والابن فی تجدید أو إعادة بناء الکعبة دون التوقف عنده.

«وَ إِذْ یَرْفَعُ إِبْراهِیمُ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَیْتِ وَ إِسْماعِیلُ رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّکَ أَنْتَ السَّمِیعُ الْعَلِیمُ* رَبَّنا وَ اجْعَلْنا مُسْلِمَیْنِ لَکَ وَ مِنْ ذُرِّیَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَکَ وَ أَرِنا مَناسِکَنا وَ تُبْ عَلَیْنا إِنَّکَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِیمُ* رَبَّنا وَ ابْعَثْ فِیهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ یَتْلُوا عَلَیْهِمْ آیاتِکَ وَ یُعَلِّمُهُمُ الْکِتابَ وَ الْحِکْمَةَ وَ یُزَکِّیهِمْ إِنَّکَ أَنْتَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ» (۱).

مکّة والکعبة فی عصر الفطرة

فجأةً نشاهد انقطاعاً فی المشهد التاریخی من عهد إبراهیم علیه السلام إلی عصر البعثة- فی القرآن الکریم- وکأنّنا نواجه سکوتاً یثیر التساؤل حول أحداث مکة! ولا نجد فی الآیات القرآنیة القلیلة حول وضع مکة والکعبة قبل ظهور الإسلام إلّا إشارات حول النکران؛ من قصة هجوم جیش أبرهة وإظهار قدرة اللّه فی الدفاع عن الکعبة، وانتقاد للمشرکین- وبالخصوص قریش- الذین لم یحترموا حرمة الکعبة، وحرمة الأشهر الحرم، وتصرفوا بها بأسلوب غیر مقبول وابتذلوا مناسک الحج:

«وَ ما کانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَیْتِ إِلَّا مُکاءً وَ تَصْدِیَةً فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما کُنْتُمْ تَکْفُرُونَ» (۲).

لست هنا فی صدد الإکثار من الحدیث عن الانحطاط الذی أصاب أهل مکّة

۱- البقرة: ۱۲۷- ۱۲۹.

۲- الأنفال: ۳۵.

ص: ۲۷۶

أيـام الجاهليـة، والـذى ذكره القرآن الكريم فى آيات متعـددة، وأكتفى بالحـديث عن هـذا الانحطاط من خلال انعـدام الأمن وانتشار الاعتـداء على الحرمـات حـتى لأـعز أبنـاء مكـة والكعبـة فى الأـرض المقدسـة الـتى أكّـد على حرمهـا وحرمتهـا القرآنُ الكريم، حتى للحيوانات، وخصوصاً من قبل زائرى الكعبة الُمحْرمين.

والآن، وقبل الحـديث عن ذكريات التضـييق على المؤمنين فى مكة بعد جهر الرسول صـلى الله عليه و آله بالدعوة، وخصوصاً الظروف التى هيأت للهجرة، أستعيد نقطتين مفيدتين:

أمن مكة ونتائجه

إذا كانت سلسـلة العـداوة المثيرة مع دعوة الرسول صـلى الله عليه و آله- وفى دائرة نتائـج هـذه الدعوة- قد وصـلت إلى حدود الإقدام على قتل أعز أبناء مكّـة والكعبـة وانتهاك حرمـة الحرم، فلا يجب أن نعتقـد أن أمن مكة فى أيام الجاهلية قد فقد لونه بالكامل؛ إذ إن بعض الآيات القرآنية قد أشارت بوضوح إلى ذلك، وتؤكد أن الأمن فى تلك الأرض أيام الجاهلية كان له وجود واقعى وواضح:

«وَ قالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبى إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ» (۱).

هذه الآية تعبّر عن أن أمن مكة- كامتيازٍ واضح- واقعٌ جلى ومعروف لدى الناس، وأن الناس كانت ترى أن هذا الأمن كان مترافقاً مع رونقٍ اقتصـادى جلى، وهو مـا ورد فى سورة قريش بشـكلٍ واضـح. والمؤرخون الغربيون- على رغم التمييز فى اهتمـامهم بتاريـخ مكة والكعبة بالمقارنة ببيت المقدس- كانوا مجبرين على

۱- القصص: ۵۷.

ص: ۲۷۷

الإشارة لهذا الواقع، وبأن مدینة مکة کانت تتمتع برونقٍ تجاری.

وفی تجاوزٍ للتناقضات التی لوّثت الکثیر من الآثار التاریخیة بالتعصّب ضد الإسلام والعرب. قدّموا تصوراً عن العرب علی أنّهم بلا ثقافة، وکأنّ العرب کانوا غرباء عن الحضارة! باستثناء أجزاء من الیمن، لکنّهم عند الحدیث عن موقع مکّة فی التجارة یتحدثون عن أناس عرفوا العالم.

لست هنا فی صدد الحدیث عن کیفیة تعاطی المؤرخین الغربیین مع الإسلام والعرب فی هذا البحث الذی أقصره علی ما یمکن أن أستند به علی القرآن الکریم.

ما یمکن أن نراه فی العدید من آیات القرآن هو ما تمتعت به مکة من أمن، والرونق الاقتصادی عن طریق التجارة، وبالتفکیر فی نتائج هاتین المیزتین ندرک خطأ الصورة المغرضة التی أشرت لها.

إن حیاة الناس وعلاقاتهم فی زمن الجاهلیة کانت ممزوجةً بالقبائح والنواقص الکثیرة، والتی سأشیر إلی بعضها بالاعتماد علی عددٍ من الآیات فی القرآن الکریم، والدافع هو ما أشرت له من أن الدفاع عن أهل مکة، لیس سوی تذکیر بالتعصب ضد العرب المتوافق مع السیاسة الصهیونیة، والهادف إلی تحریف الوقائع التاریخیة بشکل جلی؛ فدار الندوة فی مکة وسقیفة بنی ساعدة فی یثرب، تدلّل علی دور التشاور فی القرارات الاجتماعیة المهمة، وعندما یشاهدون أو یجدون مثیلًا لهذه المؤسسات أو لمثل المنافسة الأدبیة فی سوق عکاظ فی أیّ أرضٍ أخری، یعمدون إلی تضخیمه واعتباره أنموذجاً للدیموقراطیة والبلوغ الأدبی! وأنا هنا مجبر علی تقصیر الحدیث عن الثنائیة المسیّسة فی الکتابة الغربیة للتاریخ، علی أمل أن نری مساهمة العالم الإسلامی فی محاربة هذا التحریف.

ص: ۲۷۸

ثقافة الأخلاق والاعتقادات الدينية

إذا ما التزمنا فى هـذا المجال أيضاً بإطار الآيات القرآنيـة والأسـلوب السابق، يمكننا القول: إن ثقافـة وأخلاق أهل مكـة لم تكن بعيدةً والظروف الاقتصادية التى كانت سائدةً.

وخلاصـة هذه الآيات فى القرآن الكريم تشـير إلى مكّة بميزتين: المدينة الجافة والمحرقة التى شـكلت للبعيد والمحرومين جحيماً كلّه ألم وعـذاب، وكـذلك مكاناً للربـح والمال، وجنّـةً لبعض الأشـراف القلائل! خاصـةً إذا توقفنا أمام آيات الربا وارتباطها بآيات النفاق (۱)، والتى تذكّرنا باختلال مسيرة التاريخ.

ونتصوّر مجموعتين من الناس تعيشان فى ظروفٍ مختلفة:

۱- البقرة: ۲۶۰- ۲۸۰؛ و آل عمران: ۱۲۹- ۱۳۶.

ص: ۲۷۹

متمولون يمتصون دماء المحرومين حتى الرمق الأخير بأرباح قروض مضاعفة! وأناس يعيشون فى براثن الفقر، يدفعهم الخوف من الفقر إلى وأد وقتل أعز أولادهم (۱)، على الرغم من أن قتل البنات (وأدهم) فى الجاهلية كان فيه أثر من العداء لهنّ والغيرة الشديدة والمفرطة.

إلّا أن القرآن الكريم قد أكّد فى سورة الإسراء على علاقة ذلك بالفقر، وفى هذا الإطار فإن كتّاب التاريخ المتوافقين مع اليهود المعادين للعرب قد صوّروا الماضى بطريقة كان لها الأثر السيّء فى صياغة الأفكار والعقول. وكأن المرأة فى حياة العرب تلك الأيام لم تكن تحسب إنساناً!

لا- أنوى هنا أن أدخل فى بحث مسائل فرعية، وأكتفى بالإشارة إلى أنّه إذا ما كانت مكانة جميع النساء على هذا النحو، فكيف كان لسيدةٍ مثل أم‌المؤمنين خديجة عليها السلام كلّ تلك الإمكانات لتستخدم وتوظّف الكثير من الرجال؟

على أية حال، فى تلك الحياة الثنائية إلى جانب الاختلافات الطبقية، فإن المرأة والخمر والربا والميسر قد ساعدت على تعميق الظلم فى علاقات الناس بعضهم ببعضهم الآخر.

«إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَيْسِرُ وَ الْأَنْصابُ وَ الْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ فَاجْتَنِبُوهُ...» (۲).

وأشير إلى أنّه إذا كانت الخمر والميسر والأزلام من الشرك، فإن كل واحدٍ منها أيضاً يشكّل سبباً أو عنصراً مدمّراً، ولا يجب أن ننسى أنّ هذه الأمور كانت تشكّل جانباً من ثقافة تلك الأيام! لكن عندما يرتبط الإدمان على شرب الخمر

۱- الإسراء: ۳۱.

۲- المائدة: ۹۰.

ص: ۲۸۰

مع الميسر أو القمار فإن تدميره يكون مضاعفاً! واليوم نرى أن أصحاب حانات القمار يستغلّون الخمر والسكر إلى جانب المرأة ليضفوا على القمار رونقاً! وإذا استذكرنا هنا أن القرآن الكريم فى سورة المائدة قد تحدّث عن علاقة الخمر والقمار ببعض مظاهر الشرك، فإنّنا ندرك أن الرسالة الثقافية الأقرب إلى القلب من وراء ذلك هو الحديث عن أشياء تنجّس مائدة النعم الإلهية.

شعر الشعراء وسجع الكهان وأوراد السحرة

فى تلك الأرض المقرونة بعنف السيف، كان للشعر والسجع مكانتهما التى تدعو للتوقّف عندها، فكلّما تأملنا فى منطق المعارضين للرسول صلى الله عليه و آله، وكما ورد فى كثيرٍ من الآيات القرآنية، نجد أن مكة كانت من الناحية الأدبية كالقمّة الشامخة، وعلى ضوء آياتٍ من القرآن الكريم- من ضمنها جزء من سورة المدثر- نرى أن مكان ولادة البعثة يعجّ بالمحافل الأدبية التى لم تكن غريبةً عن الأدبيات القرآنية، والأثر الذى تركه طنين رسالة وأدبيات القرآن الكريم من علامات وآثار واضحة فيها. وكذلك الحديث عن متكلّمين مدققين وما ذكر بإعجاب عن سياستهم وحيلهم فى إبطال أثر ودور القرآن.

كنت أتمنّى عند كتابتى لهذا البحث أن يكون فى متناولى متحفٌ كى أصوّر أدبيات تلك الأرض، لقد بقى لنا من تلك الأيام آلاف اللوحات بحاجة إلى إعادة اكتشاف دقيق وعميق، كى نكون أقدر على معرفة الآيات القرآنية بشكلٍ أفضل.

فى هذه الحالة، نرى أن الكثير من التعاليم القرآنية قد نزلت لأجل إحداث تغيير فى تلك الأرض، ونستطيع معها إدراك عدّة نقاط حول ما كان يجرى فى أرض ولادة البعثة فى زمن نزول القرآن الكريم، والمثال، إذا كنا نشاهد شعار

ص: ۲۸۱

الدعوة إلى الدين الحنيف فى الأدبيات القرآنية، فإن ذلك يقودنا حتماً إلى واقع أن شعار الدين الحنيف فى تلك الأرض كان شعاراً معروفاً وجذاباً، وإذا كنا نعتبر أن الاعتقاد الدينى للناس كان مختلطاً بالخرافة، فإن علينا أن ننظر إلى الوجه الآخر للعملة.

من خلال التوقف أمام ما جاء فى القرآن الكريم حول الاعتقادات والثقافة والاقتصاد والأخلاق والتغذية والصحّة والآداب والعادات، نتوصّل إلى إدراك منشئها فى الجاهلية، خاصّةً إذا ما كانت نظرتنا تأخذ بعين الاعتبار ترتيب نزول الآيات.

فى نظرةٍ أخرى، فإن علاقة أشراف وسادة مكة مع أهل الكتاب تستدعى التوقف عندها والتأمل، ففى تأكيد القرآن الكريم على بعث الرسول صلى الله عليه و آله من الأميين، ما يساعدنا على معرفة مدى الفساد الذى كان يضع العلم والأدب فى خدمة ظالمى الجاهلية، وكأنّ الدين والقانون والأخلاق قد استغلت- كقيدٍ وسلاسل- لفرض السلطة الطبقية:

«الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِى التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ وَ يُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلالَ الَّتِى كانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّرُوهُ وَ نَصَرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِى أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» (۱).

إن مثل هذه الآيات هى بمثابة نافذة لرؤية المجتمع الذى نزلت فيه دعوة الرسول صلى الله عليه و آله، ولذكر أو تعداد كلّ الآيات نحن بحاجةٍ إلى تأليف كتب كثيرة، لذا

۱- الأعراف: ۱۵۷.

ص: ۲۸۲

سأكتفى هنا بذكر هذه النماذج.

وفى إدامة النظرة التاريخية حول مكة، يجب أن نتوقف عند علاقة تلك الأرض مع يثرب، العلاقة التى مهّدت للهجرة والتحوّل:

«وَ إِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِى أَوْحَيْنا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنا غَيْرَهُ وَ إِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا* وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلًا* إِذاً لَأَذَقْناكَ ضِعْفَ الْحَياةِ وَضِعْفَ الْمَماتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنا نَصِيراً* وَإِنْ كادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْها وَ إِذاً لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلًا* سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنا وَ لا تَجِدُ لِسُنَّتِنا تَحْوِيلًا» (۱)

.

الهجرة نقطة تحوّل فى تاريخ مكة

لا أنوى هنا أن أناقش موضوع هجرة الرسول صلى الله عليه و آله إلى يثرب، وسأكتفى بالتوقف عند الأثر أو التحوّل الذى تركته هذه الهجرة النبوية فى تاريخ مكة؛ فإذا اعتبرنا أن تلك الهجرة التاريخية تشكّل الخطوة الأولى نحو تأسيس الحضارة الإسلامية، ففى رؤية أخرى أو ثانية، كانت خطوةً مصيرية فى إطار تحرير أرض مكة من سلطة الظالمين الذين لوّثوا مكة والكعبة بالشرك.

والآن، وقبل النظر إلى نتائج الهجرة النبوية وبالترافق مع مصير مكة، يجب علينا أن لا نغفل عن الدور المهمّ لموسم الحج فى تبادل التجارب.

وهنا، لسنا بحاجة إلى التذكير بأن معرفة يثرب بالدعوة الإسلامية لم تكن مفصولةً عن موسم الحج؛ من هذه الرؤية، نرى أن موسم الحج يمثل مناسبةً قيمة ومهمة لما يوفره من أرضية للتبادل الثقافى ونقل المعرفة بين الناس.

۱- الإسراء: ۷۳- ۷۴ و ۷۶- ۷۷.

ص: ٢٨٣

وهنا، أشير إلى نقطة غير معروفة من الآية المشهورة:

«يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثى وَ جَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَ قَبائِلَ لِتَعارَفُوا...». (١) مفسرو القرآن الكريم، وفى قراءتهم لمعانى هذه الآيـة، توقفوا عند جزء منها هو «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُم»، بشـكل أثّر على جاذبية «لِتَعارَفُوا» فيها، وهنا أعتقد أن المعنى أو الرسالة الأساس لهذه الآية ليس سوى (التعارف)، الذى يعبّر عن تربيةٍ قرآنية.

وهنا نشاهـد أن نظريـة حوار الحضارات فى مقابل تصادم الحضارات فى الحاضـر قـد جـذبت الكثير من محبى السـلام فى العالم، وهنا أتوجه بالسؤال لعلماء المسلمين، ألا نرى فى تأكيد القرآن الكريم على تبادل المعرفة- كعنوان لفلسفة التعدد المرتبطة بالأرض والدم- أنّها تُبطل نظرية تسعير الحرب؟ ألم يعلن القرآن الكريم- بكل صراحةٍ وبأسلوبٍ شفاف- أن فى تعدّد وتنوع الحضارات والمجتمعات أصلٌ مشترك يربط جميع الناس مع بعضهم، حتى مع وجود اختلاف فى الأرض والدم والقبائل والشعوب، وأن عليهم أن لا ينسوا هذا الأصل المشترك؟ إن فلسفة هذا التعدد والتنوع ليس التفاخر الذى يحمل بعضاً من معنى التكاثر ويوفر أرضيةً لاستعادة تفاخر الجاهلية (٢)، بل الأقرب إلى العقل والمنطق أن يكون هذا التنوع ذريعةً للتعارف بدلًا من التفاخر الذى يسبّب الحرب.

أختم هـذه النقطـة أو المسألـة الإنسانية والعالمية فيما يتعلّق بشـعار الاسـلام بالقول: إن موسم الحج، يشـكل فرصةً ذهبية منقطعة النظير لزوار الكعبة، كى

١- الحجرات: ١٣.

٢- أنظر سورة التكاثر.

ص: ۲۸۴

یستفیدوا من قطرات هذا المحیط العظیم وتلاطم أمواجه فی سبیل تکامل الأفکار والتجارب المتنوعهٔ فیما بینها.

من هـذه الرؤیـهٔ، أعتبر أن موسم الحج أفضل فرصهٔ لا یجب أن ننسـی الشـکر علیها، تجربهً فی التبادل الثقافی، فی أجواء سـلیمهٔ بعیدهٔ عن الجدل والانحراف.

والمثال البارز والتاریخی هنا هو ارتباط عدد من قبائل یثرب بدعوهٔ الرسول صلی الله علیه و آله، إذا نظرنا بهذا النحو، فإنّنا ندرک دور موسم الحج، لیس فقط کنقطهٔ تحول فی تاریخ مکهٔ ویثرب، بل کتمهید للحضارهٔ الإسلامیهٔ، ونقطهٔ تحوّل أیضاً فی تاریخ الحضارات.

أسئلهٔ حول أرضیهٔ الهجرهٔ النبویهٔ

إذا تجاوزنا جمیع ذلک، فإنّنا نواجه أسـئلهً حول أرضـیهٔ الهجرهٔ النبویـهٔ لا یمکن تجاهلها، فإذا نظرنا إلی قصّهٔ الهجرهٔ من نافذهٔ الآیات فی سـورهٔ الإسـراء، نری أن الحـدیث عـن طریقیـن غیر معروفیـن- قبـل الهجرهٔ- لـم یتطرّق إلیه أصـحاب السـیر والمغـازی، وکـذلک المفسرون الکبار.

فی تلـک الآیـات، یجری الحـدیث عـن مسـاعی المشـرکین لجرّ رسـول اللّه صـلی الله علیـه و آلـه إلی منحـدر صـعب، «وإن کـادوا لیفتنونـک...»، وهنـاک حـدیث عن مسـاعٍ أخری لفصـل أعزّ أبنـاء مکـهٔ عن الکعبـهٔ «وإن کـادوا لیسـتفزّونک من الأرض لیخرجوک منها...»، وحتی الآن لم أشاهد فی السّیَر والمغازی وکذلک التفاسیر أی أثر لرؤیهٔ جامعهٔ أو شاملهٔ لمجموع هذه الآیات.

لا أرید هنا أن أدخل فی مناقشهٔ مسألتین مجهولتین تعبّران عن علاقهٔ الهجرهٔ النبویهٔ بطریقی: المساومهٔ والقطیعهٔ، مکتفیاً بالإشارهٔ التالیهٔ:

ص: ۲۸۵

فى إعـادهٔ قراءهٔ تاريـخ الإسـلام، يجب البحث عن الفتنـهٔ الـتى كـان بإمكانهـا أن تـدفع الرسول صـلى الله عليه و آله أمامهـا، ألم يكن الرسول صلى الله عليه و آله أمام ضائقهٍ أجبرته على الهجرهٔ.

وبتعبير أوضح، ما هى المقترحات التى قدّمها مشركو قريش ودفعت الرسول صلى الله عليه و آله فى ظلّ العصمهٔ إلى رفضها؟

الجواب على مثل هذه الأسـئلهٔ يتعلّق أو يرتبط بإعادهٔ قراءهٔ تاريخ الإسلام على ضوء الآيات القرآنيهٔ، وبمشاركهٔ كلّ المؤرخين الأحرار فى كل العالم الإسلامى، ولا مجال هنا سوى التذكير بمثل هذه الضرورهٔ.

وبغض النظر عن ذلـك كلّه، فإنّ ما يتعلّق بتاريـخ مكـهٔ فى القرآن الكريم، هو العلاقـهٔ بين الجهاد فى عصـر البعثـهٔ مع تحرير مكـهٔ من السلطهٔ الطبقيهٔ لأشراف وسادهٔ مكهٔ قبل الإسلام وتطهير الكعبهٔ من رجس الشرك.

ص: ۲۸۶

أستميحكم العذر أن أشير إلى نقصٍ آخر فى إطار ضرورة إعادة قراءة تاريخ الإسلام، وهى أنّ المؤرخين الكبار قد وفروا لنا مصادر قيّمة عن السيرة والمغازى، لكنّهم لم يعتنوا أو يهتمّوا بتصنيف حروب التاريخ الإسلامى.

والنقص الأوضح، كان حول الغزوات والسرايا التى وردت فى النصوص التاريخية بشكل متفرق وموزع من دون الاهتمام بانسجامها وما ترمز إليه، وأعتقد على ضوء الآيات القرآنية، أن جهود عصر البعثة كانت تتمحور حول تحرير الكعبة من سلطة ظالمى قريش.

من الواضح أنّنى لا أستطيع أن أدخل فى شرح مثل هذه الفرضية هنا، وأكتفى بالإشارة التالية: لقد بيّن القرآن الكريم مشروعية هذه الجهود التى أراقت الدماء فى مقابل ظلم المشركين وكذبهم، وهم الذين أخرجوا أبناء مكّة من الحرم الإلهى الآمن:

«أُذنَ لِلَّذِينَ يُقـاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَ إِنَّ اللَّهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ* الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَ لَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَ بِيَعٌ وَ صَلَواتٌ وَ مَساجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَ لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ» (۱).

تحرير مكة، فى فلسفة الجهاد

إن أثر أو نور هذه الآيات يتجلّى فى سورة الحج، التى تعبّر عن العلاقة بين الجهاد فى عصر البعثة وبين تحرير مكة، الأرض التى أهدت لتاريخ الحضارة

۱- الحج: ۳۹.

ص: ٢٨٧

الأمنَ، والتي بنى فيها أول مركز قامت أو تأسّست فلسفته على الدفاع عن حقوق الإنسان ومصالحه، بحيث لا تجتمع سلطة الغرباء مع التوحيد والكعبة، أولئك الذين كانوا مدينين لأمن مكة في مختلف الظروف، من دون أن يستحقوا أو يتمتّعوا بأهلية إحياء وعمران الكعبة.

رواية وسقاية زائرى الكعبة، وإطعام الحجيج، وكساء الكعبة وسدانتها، والدفاع عن تلك الأرض، كانت لبّ وجوهر حضارة مكة، كما لو أنّها قد أوجدت نظاماً فيما يتعلّق بشؤون بيت اللّه وملجأ الناس وتذكار إبراهيم الخليل عليه السلام. مع ذلك كلّه، فإن غربة متولّى الحرم عن روح الحج وفلسفة بناء الكعبة، كانت إلى درجة يصدق عليها قول شاعر إيران وخواجة شيراز المفوّه (حافظ):

لقد ضرب الحاجب الجميع بسيف الخمرة، وأخرج من الحرم خمراً!

لقد شكّلت هذه النقطة المدخل المنطقى للقرآن الكريم للتأكيد على مشروعية الجهاد في عصر البعثة، وهنا لا نستطيع أن نتطرّق إلى الرموز والدلالات المجهولة للمعارك الدموية التي دفعت أعداء رسول الرحمة صلى الله عليه و آله لاتهامه بالعنف، والحال أن فلسفة كلّ هذه المعارك لم تكن سوى وضع حدٍّ للحرب والعنف:

«فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ حَتَّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَ إِمَّا فِداءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها...» (١).

أرى أن رسول الرحمة صلى الله عليه و آله وأصحابه قد تلقوا أمراً بالحرب من أجل تحقيق شعار ومبدأ السلام، ولكى يخلّصوا الإنسان والحضارة الإنسانية من وزر الحرب، فكيف يمكن اتهام الحرب بأنّها عنف فيما فلسفتها تقوم على السلام والعداء للعنف؟!

١- محمد: ۴.

ص: ۲۸۸

فى الرد على أسئلةٍ من هـذا القبيل يجب القبول بالاختلاف بين حروب عهد الخلافة- خاصّةً بعد انكسار قفل الفتنة- مع حروب عصر البعثة، والاعتراف بالانحرافات إلى جانب السعى لإبعاد صفة الدموية والعنف عن الإسلام المحمدى ودين رسول الرحمة صلى الله عليه و آله.

النصر الساطع وبطولة (حماسة) السلام والأخلاق

لا أستطيع أن أشرح هنا جهاد عصر البعثة فى علاقته بتحرير مكة، لذا علىّ أن أتغاضى عن نقاط كثيرة واضحة وغير معروفة، لأشير إلى بطولـة الأخلاق والسـلام التى فكّت طلسم فهم سـلام وأمن مكـة، وحـدّدت مصـير أرضٍ هى قبلـة المسـلمين؛ أى الحديث عن صـلح الحديبية الذى سمّاه القرآن الكريم بالفتح المبين:

«إِنَّا فَتَحْنا لَکَ فَتْحاً مُبِيناً* لِيَغْفِرَ لَکَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِکَ وَ ما تَأَخَّرَ وَ يُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْکَ وَ يَهْدِيَکَ صِراطاً مُسْتَقِيماً* وَ يَنْصُرَکَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً» (۱).

لو لم يكن لـدىّ خوف من الإطالة بهذا البحث، لكان من الممكن لى أن أشـير إلى نقاط حول تقسـيم الفتوحات من رؤية قرآنية، غير أنّنى أكتفى بالإشارة إلى أن التجربة المرّة للرسول صـلى الله عليه و آله فى علاقته بالمشـركين، وما كان فيها من ليونة وبطولة أخلاقية، على الرغم ممّا تعرّض من ظلم وعنف من أعدائه، لم تكن عصـيةً فقط على فهم المعاصـرين للبعثة، بل ما زالت عصيةً أيضاً على الفهم حتى يومنا هذا، برغم مرور قرون عليها، ما يسبّب عدم إدراك أبعاد وأسرار انتصاره الباهر والعظيم هذا.

۱- الفتح: ۱- ۳.

ص: ۲۸۹

کلّ النصوص التاریخیهٔ والسّیَر والمغازی تحدّثت عن غضب واعتراض عددٍ من أصحاب الرسول صلی الله علیه و آله، عندما کانوا یرون تصرّفه الرحیم فی الردّ علی عنف وظلم سادهٔ قریش، وما لم یذکر فی هذه النصوص تلک الأبعاد العمیقهٔ لبطولهٔ السلام والأخلاق المحمدیهٔ.

وأشیر هنا إلی بُعدٍ من أبعاد الفتح المبین لا یکمن فی البُعد الظاهریالذی اهتمّ به کتّاب التاریخ حول فتح مکهٔ، من دون الالتفات إلی نتائج صلح الحدیبیهٔ.

فإذا توقفنا قلیلًا أمام الأحداث المختلفهٔ لما بعد هذه البطولهٔ العظیمهٔ، ندرک أن أبرز نصرٍ فی تاریخ الإسلام قد تحقّق بمعجزهٔ الأخلاق لا بحدّ السیف، ونری أن أبرز رجال السیاسهٔ والسیف قد التحقوا بمعسکر الرسول بعد صلح الحدیبیهٔ، کإسلام خالد بن الولید، وعمرو بن العاص- بعد مدهٍ قصیرهٔ منه- وهو تعبیر عن أن معجزهٔ الأخلاق هی التی نزعت أسلحهٔ العدو.

ولأنّه لا یمکن فی هذه العجالهٔ أن نستفیض فی الحدیث عن هذه البطولهٔ التاریخیهٔ والمصیریهٔ کما یجب، سأشیر إلی نقطهٔ من السیرهٔ النبویهٔ أعتبرها رمزاً لهذه البطولهٔ، لکن قبل ذلک لا بد من التطرّق إلی نقصٍ آخر فی کتابهٔ السیرهٔ هو:

عدم اهتمام کتّاب السیرهٔ بالمصادر القرآنیهٔ

الکبار الذین بذلوا جهوداً للکتابهٔ حول السیرهٔ النبویهٔ وترکوا لنا آثاراً قیمهٔ، کأنّهم أغفلوا أکثر المصادر ثقهً فی هذا المجال، لقد وجدت أکثر من مئتی آیهٔ فی القرآن الکریم، کل واحدهٍ منها تغطّی مجالًا من السیرهٔ النبویهٔ، وأذکر هنا أنموذجاً یدعم بطولهٔ صلح الحدیبیهٔ الخالدهٔ:

ص: ۲۹۰

«وَ لا تَسْتَوِی الْحَسَنَةُ وَ لَا السَّیِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِی بَیْنَکَ وَ بَیْنَهُ عَداوَةٌ کَأَنَّهُ وَلِیٌّ حَمِیمٌ* وَ ما یُلَقَّاها إِلَّا الَّذِینَ صَبَرُوا وَ ما یُلَقَّاها إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِیمٍ» (۱).

فبلا ـ شک، هذه الآیات تتضمّن أحد أبعاد المنطق الحاکم علی سلوک الرسول صلی الله علیه و آله، أیة ردّة فعلٍ هی أفضل فی مواجهة السیئة؟ ثورةٌ بعیدة عن التصور تسقط بید العدو، فإذا اهتممنا بسلوک رسول اللّه صلی الله علیه و آله انطلاقاً من هذه الآیات التی تزید علی المائتین، والمتعلّقة بالسیرة النبویة، فإنّنا سنجد نماذج علی ذلک.

فی الآیتین السالفتین، نجد علاقةً بین معجزة الأخلاق وبین الاستثمار، فالاستثمار فی الأدبیات الحدیثة من المقولات الاقتصادیة، أی الحدیث عن الاستفادة من مصادر مثل الأرض والماء والطاقات المختلفة، وقمّته ما نراه، فی إعادة إنتاج الطاقة الملوّثة، لکن هاتین الآیتین تتحدّثان عن الاستثمار البعید عن التوقع والذی فیه حظّ عظیم، أی تبدیل العداوة إلی صداقة ورحمة، خلخلة مرکز الحرب وإسعار النار وتحویله إلی مرکز للبناء.

صلح الحدیبیة، أنموذج واضح لمثل هذه المعجزة فی تاریخ مکة؛ فمعجزة الأخلاق کانت الردّ الأفضل علی السیئات والقلوب المریضة بالتعصّب والعداوة نحو الإسلام ورسول الرحمة، وتبدیلها إلی مرکز للحب؛ وإسلام خالد بن الولید وعمرو بن العاص شهادة واضحة علی هذا الواقع؛ فخالد صاحب السیف الذی هزم جیش الإسلام فی معرکة (أحد)، وأنزل أشدّ الألم والجراح علی قلب الرسول صلی الله علیه و آله وأصحابه، لکنّه تحوّل إلی قائد فدائی فی خدمة الإسلام بمعجزة الأخلاق.

۱- فصلت: ۳۴.

ص: ۲۹۱

بیعهٔ الرضوان

تجدید بیعهٔ أصحاب الرسول صلی الله علیه و آله معه- فیما یتعلّق بصلح الحدیبیهٔ- یعبّر عن أهمیهٔ هذا الحدث کنقطهٔ تحوّل فی تاریخ الإسلام وتاریخ مکهٔ:

«لَقَدْ رَضِیَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِینَ... إلی آخر السورهٔ» (۱).

لا أنوی أن أعرض ما توصّلت له- فی اعتقادی- علی ضوء هذه الآیهٔ فی هذه الفرصهٔ، فالواضح هو الاختلاف بین نظرهٔ أولئک الذین یقیّمون الوقائع من خلال حجاب الظاهر، وبین النظرهٔ التی لا تنحبس حتی فی حجاب الزمان والمکان؛ فالرسول صلی الله علیه و آله قبل صلح الحدیبیهٔ رأی فی المنام أنّه داخلٌ هو وأصحابه إلی مکهٔ، غیر أنّ ما حدث من تطوّرات، ومن الکذب والظلم الذی مارسه أشراف وسادهٔ مکهٔ فی مقابل نعومهٔ رسول الرحمهٔ صلی الله علیه و آله قد أثر علی اعتقاد الکثیرین بالشک والتردید.

لم یمرّ وقت طویل، حتی أزاح فتح مکهٔ السلمی من دون إراقهٔ دماء صدأ هذا التردید والشک، وشاهدوا بالعین ما رآه رسول اللَّه فی المنام أو الحلم.

وأری نفسی هنا مجبراً علی التغاضی عن نقاطٍ صغیرهٔ وکبیرهٔ، وأن أختم هذا القسم بالإشارهٔ إلی أعظم حجّ فی تاریخ مکهٔ.

حجّهٔ الوداع

فی المسافهٔ الفاصلهٔ بین صلح الحدیبیهٔ وحجهٔ الوداع، وقعت أحداث کبیرهٔ فی تاریخ الإسلام وتاریخ مکهٔ، مثل عمرهٔ القضاء، وفتح مکهٔ، والبراءهٔ من

۱- الفتح: ۱۸.

ص: ۲۹۲

المشركين، وتطهير حرم الكعبة من آثار الشرك، ونجد أنّها خصّصت بآيات فى القرآن الكريم؛ لذلك أكتفى بما قلته وما كتبته حتى الآن حول «صورة مكة فى القرآن الكريم».

ومن الواضح أن ما كتبته سيكون مدخلًا لأبحاث جديرة، أبحاث يجب الاهتمام والقيام بها فى إطار إعادة قراءة تاريخ الإسلام وتاريخ مكة بمشاركة علماء العالم الإسلامى.

والآن أتطرّق إلى آخر حجّة تاريخية للرسول صلى الله عليه و آله، والتى تعتبر أكثر الحج ذكرياتٍ فى تاريخ الكعبة ومكة، أرض مكة مكان ولادة دعوة الرسول صلى الله عليه و آله الذى دعا إبراهيم الخليل عليه السلام ربّه أن يبعثه، ولأنّ الحديث عن تلك الأرض التى شهدت أعظم مراسم حجٍّ فى حجة الوداع؛ فإذا اعتبرنا هذا الحجّ حسن الختام فى عصر البعثة فلا نكون قد قلنا جزافاً، خصوصاً إذا ما توقفنا أمام شأن نزول آية إكمال الدين، التى رويت مقرونةً بحجة الوداع:

«أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً» (۱).

فى النظرة الأولى، قد لا نجد علاقةً بين هذه الآية والآيات التى تسبقها والتى تليها، إلا أنّنى أعتقد خلاف ذلك، فبالعودة إلى النقاط المحورية التى تدور حولها سورة المائدة، أرى أن هذه الآية كضوءٍ منير يجب أن يشعّ على مائدة النعم الإلهية غير المحدودة.

إذا ما كنت لم ألتزم فى هذه الكتابة بإطار الآيات القرآنية، فإنّى أضيف هنا نقاطاً حول حجة الوداع، وأشير إلى التالى:

۱- المائدة: ۳.

ص: ۲۹۳

فی تاریخ مکهٔ وتاریخ الإسلام الحافلین، لا نجد مثیلًا لتلک الأیام التی سیطر فیها هذا النشاط والحیویّهٔ علی تلک الأرض، لکن سنّهٔ اللَّه التی لا تتغیر قضت أن تکون أعذب مدینهٔ فی حیاهٔ هذا العالم معجونهً بالمرارهٔ؛ فقد رافقت هذه المراسم العظیمهٔ ذکریات من ظلال الحزن، ففیما کان معظم أصحاب الرسول صلی الله علیه و آله فی أوج نشاطهم وحیویتهم، وکانوا یحتضنون الکعبهٔ فی وسطهم کالفصّ، ویقومون بمناسک الحج مع رسول اللَّه، فی أوج هذه الفرحهٔ التی لا یسعها الجسد، نالتهم حرقهٔ حدیث مرّ عن ألم الفراق، إن شرح تلک التجارب یجب أن نشاهدها من أقلام الفنانین بالاستعانهٔ بالعلم والتحقیق؛ کی ینقلوا ویصوروا ذلک المشهد المثیر.

مراسم الحج فی سیرهٔ الخلفاء الراشدین

کآخر قسمٍ من هذا البحث، أشیر إلی أنّ عظمهٔ حجّهٔ الوداع شکّلت الداعم لمراسم الحج فی تاریخ الإسلام، فبعد ارتحال الرسول صلی الله علیه و آله، شهد المسلمون هذه المراسم العظیمهٔ کلّ سنهٍ بحضور خلفاء الرسول صلی الله علیه و آله. وبالتوقف أمام الکثیر من الأخبار، خصوصاً العائدهٔ إلی النصف الأول من القرن الأول، نشاهد آثاراً لإقامهٔ الحجّ فی رؤیهٔ تراعی مصالح المجتمع.

فخاصّیهً فی أیام الخلیفهٔ الثانی- وعلی الرغم من اتساع الثروهٔ والقدرهٔ وأسلوب تعاطیه وارتدائه للألبسهٔ المرقعهٔ- فی ذروهٔ محبوبیته وأوج الثروهٔ والاقتدار وذکره علی کل لسان (۱)، نشاهد آثار تجربته القیّمهٔ فی التاریخ السیاسی، فقد استفاد من الحج کفرصهٍ لیطّلع ویُطْلِع قادهٔ المسلمین فی هذا الاجتماع علی ما

۱- تاریخ مدینهٔ دمشق، ابن عساکر، ج ۴۴.

ص: ۲۹۴

يجرى فى العالم الإسلامى، وكذلك ليجد المواطنون فرصةً ليخبروه بالحلو والمرّ من أخبارهم، وكذلك ليشاهدوا صورةً حية من صور علاقة أركان وأقسام المجتمع فى التعامل البنّاء.

وفى الروايات أيضاً حديث عن غضب الخليفة الثانى مع عمّال وكوادر الدولة:

«متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟»، وكذلك الحديث عن تأكيداته المتكررة حول حقوق الناس والمواطنين.

ومن جملة الأخبار، حديثه حول الإصلاحات كان قد سُمِع منه فى آخر سنواته، وقد تحدّث عن الاختلاف الطبقى فى المجتمع وانتقده ووعد بأنّه إذا بقى ليهدمنّ هذا الجدار أو هذه الفاصلة.

وللأسف، ومع إراقة دمه، كسر قفل رتاج الفتنة ودخل تاريخ الإسلام فى أتون الفتن التى لا يتسع لها هذا البحث، ولكن السؤال هو: هل إن الإصلاحات التى كان يتطلّع إليها هى تلك الإصلاحات التى بدأ تطبيقها بعد مقتل الخليفة الثالث، أسئلة من هذا القبيل والإجابة عليها نتركها لفرصة أخرى، ودافعى من ذلك هو السعى للإشارة إلى الاختلاف بين مراسم الحج فى العهد العلوى وما كان قد سبقها، ففيما كان الخلفاء الآخرون- إلا فى ظروف استثنائية- يقومون بحضورهم على الاهتمام بجلال الحج، كان الإمام على عليه السلام الذى يعتبر- وبناءً على الأخبار والروايات وليد الكعبة- محروماً من الحضور فى مراسم الحج، وكان مجبراً على تكليف نائبٍ عنه كضريبةٍ كبيرة دفعها من أجل مواجهة الحرب التى فرضت عليه وعلى الإصلاحات التى بدأها، مع ذلك، فقد قال فى آخر لحظات حياته حديثاً بقى معلقاً بالآذان:

«اللَّه اللَّه فى بيت ربّكم، لا تخلوه ما بقيتم، فإنّها إن تركت لم تناظروا».

ص: ۲۹۵

مقارنة الحج فی الظروف الحالیة مع الحج المطلوب

ألیس هناك فرق فیما نشاهده الیوم من مراسم للحج عن الحج المطلوب؟

لست فی صدد أن أجیب عن هذا السؤال، لکنّنی أشیر إلی أن العالم الإسلامی الیوم وارثٌ لأرض وبیت ومراسم عظیمة ملیئة بالأخبار والأحداث الباعثة علی الافتخار، من عصر إبراهیم علیه السلام إلی عصر البعثة وصولًا إلی یومنا، وکلنا یرفع رأسه بهذا الفخر الذی لا بدیل له أو نظیر، مع ماضٍ ملیء بالفخر أیضاً.

مع ذلک، یجب أن نأخذ هذا الهمّ علی محمل الجدّ، وهو الحذر من أن نصاب بالتقصیر أو التقاعس فی استثمار هذا الکنز أو الثروة الفریدة؛ ومن دون أن أطیل أشیر إلی أن علی العالم الإسلامی أن یعمل علی توضیح دور الکعبة فی الدفاع عن حقوق الناس.

فی البدایة، تیمّنت بالافتتاح بآیةٍ تری الکعبة أول مرکز وضع لحمایة حقوق الإنسان، وفی النهایة أیضاً أتیمّن بالآیة الکریمة التالیة لأختم بها کلامی:

«کنتم خیر أمّة أخرجت للناس...».

تعریف مرکز

بسم الله الرحمن الرحیم

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَی الرِّضا – علَیهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنـادِرُ البِحـار – فی تلخیص بحـار الأنـوار، للعلاّمـة فیض الاسـلام، ص ۱۵۹؛ عُیونُ أخبـارِ الرِّضـا(ع)، الشـّیخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائمیّة" الثّقافیّ بأصبَهانَ – إیرانَ: الشهید آیة الله "الشمس آباذی" – رَحِمَهُ اللهُ – کان أحداً من جَهابذة هذه المدینة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَیت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَیهِـم) و لاسیَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (علیه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّریفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درایته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجریّة الشمسیّة (=۱۳۸۰ الهجریّة القمریّة)، مؤسَّسةً و طریقةً لم یَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ کلَّ یوم.

مرکز "القائمیّة" للتحرّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إیرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریّة القمریّة) تحتَ عنایة سماحة آیة الله الحاجّ السیّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّیجی الحوزات العلمیّة و طلاب الجوامع، باللیل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دینیّة، ثقافیّة و علمیّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشیعة و تبسیط ثَقافة الثَّقَلَین (کتاب الله و اهل البیت علیهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزیز دوافع الشَّباب و عموم الناس إلی التَّحَرِّی الأدَقّ للمسائل الدّینیّة، تخلیف المطالب النّافعة – مکانَ البَلاتیثِ المبتذلة أو الرّدیئة – فی المحامیل (=الهواتف المنقولة) و الحواسیب (=الأجهزة الکمبیوتریّة)، تمهید أرضیّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافیّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البیت –علیهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققین و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلامیّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهیل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

- مِنها العَدالة الاجتماعیّة: التی یُمکِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحدیثة متصاعدةً، علی أنّه یُمکِن تسریعُ إبراز المَرافِق و التسهیلاتِ – فی آکناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلامیّة و الإیرانیّة – فی أنحاء العالَم – مِن جهةٍ اُخرَی.

- من الأنشطة الواسعة للمرکز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ کتبٍ، کتیبة، نشرة شهریّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقیقیّة و مکتبیة، قابلة للتشغیل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثیّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّکة و... الأماکن الدینیّة، السیاحیّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائمیّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضیّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعیّة، الاخلاقیّة و الاعتقادیّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّة و اعتباریّة، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّة، الجوامع، الأماکن الدینیّة کمسجد جَمکرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع "ما قبلَ المدرسة" الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعلیمیّة عمومیّة و دورات تربیة المربّی (حضوراً و افتراضاً) طیلة السَّنَةِ

المکتب الرّئیسیّ: إیران/أصبهان/ شارع"مسجد سیّد/ "ما بینَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائی/"بنایة"القائمیّة"

تاریخ التأسیس: ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریة القمریّة)

رقم التسجیل: ۲۳۷۳

الهویّة الوطنیّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البرید الالکترونی: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاکس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مکتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التِّجاریّة و المَبیعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمین ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

المیزانیّة الحالیّة لهذا المرکز، شَعبیّة، تبرّعیّة، غیر حکومیّة، و غیر ربحیّة، اقتُنِیَت باهتمام جمع من الخیّرین؛ لکنّها لا تُوافِی الحجمَ المتزاید و المتّسعَ للامور الدّینیّة و العلمیّة الحالیّة و مشاریع التوسعة الثّقافیّة؛ لهذا فقد ترجّی هذا المرکزُ صاحِبَ هذا البیتِ (المُسمَّی بالقائمیّة) و مع ذلک، یرجو مِن جانب سماحة بقیّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرَجَهُ الشَّریفَ) أن یُوفِّقَ الکلَّ توفیقاً متزائداً لِإعانتهم - فی حدّ التّمکّن لکلّ احدٍ منهم – إیّانا فی هذا الأمر العظیم؛ إن شاءَ اللهُ تعالی؛ و اللهُ ولیّ التوفیق.